معروف الرصافي

دراسة ادبية لشاعر العراق

وحياته السياسية والاجتماعية

تأليف

بدوي احمد طبانه

مدرس اللغة العربية وآدابها في دار المعلمين العالية
ببغداد

مطبعة النهضة بشارع المحافظة بمصر

معروف الرصافي

دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية

تأليف

بدوي احمد طبانه

مدرس اللغة العربية وآدابها فى دار المعلمين العالية

بغداد



١٣٦٦ — ١٩٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

طبع من هذا العدد ٢٠٠٠ نسخة

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

تصدير الكتاب

بقلم

حضرة صاحب المعالى السيد محمد رضا الشبيبى
وزير المعارف الاسبق

تعد المرحلة التى اجتازها هذا الشرق القريب خلال الخمسين سنة الماضية من أحفل مراحل حياة الشرق بما جرياتها وكوائنها وأحداثها الجسام ويحسبه عصرنا المذكور من عصور الانتقال ، تحولت فيه البلاد من حال إلى حال وتطورت مظاهر الحياة فيها على اختلافها من حسية ومعنوية ، وفى هذه المرحلة دالت دول ، ونشأت على أنقاضها دول أخرى ، وزالت نظم قديمة ، مألوفة فى الحكم والثقافة ، ووجدت نظم حديثه فى هذا الشأن .

ويجمل القول لهذه الفترة ميزاتها ، وحسبنا منها أنها فترة نشبت فيها حروب عامة ، لم يشهد لها هذا الكون مثيلا ، وميزة أخرى خطيرة لهذه المرحلة التاريخية ، هى هذا الوعى القومى ، وتلك اليقظة الشعبية العامة ، إذ رأينا هذه الشعوب العربية بل الشرقية ، تعج بالشكوى ، وتضج من الفساد والفوضى ، تجسم لها الداء ، وعرفت الدواء ، فهى تلحف مطالبة بالإصلاح وتنشد العدل ، وتتذمر مما أصابها من تأخر وضعف ، وتود لو أنها جارت الأمم الناهضة فى أخذها بأسباب التقدم والفلاح .

وقد أصبح هذا الوعى عاما ، والشعور الحى ساريا فى جميع الطبقات ، خصوصا فى بعض هذه الأقطار ، وكان النابهون من شعراء هذه الفترة الطويلة وأدبائها أكثر تلك الطبقات وعيا ، وأعمقها شعورا بما تعانيه تلك الشعوب من آلام ، أو ما يعتلج فى صدور أبنائها من آمال، فكان التجاوب تاما ظاهرا للعيان بين هذه الطبقة النابهة من الشعراء والأدباء . وبين تلك الشعوب الشاكية المتألمة ، بل هو كالتجاوب بين الصدى والمحكى من الأصوات ، ولم يدخر أولئك الشعراء وسعا فى الإفصاح والبيان عما يجيش فى أعماق النفوس ، وقرارات القلوب ، وقد تسنى للقوم أن يصوغوا من تلك العواطف الثائرة كلاما حيا يغذى الأرواح ويشيع فيها القوة والنشاط ويبعث الأمل والرجاء .

ومن البديهى والحالة هذه أن يكون أولئك الشعراء والأدباء من طبقة المجددين المبدعين ، ومن المسلم به كذلك أن تهمل مقاييس القدماء ، وموازين المقلدين الذين يوازنون فيها بين الجيد والردىء من القول أو الغث والسمين من الكلام ، وما كانت تلك الموازين والمقاييس القديمة البالية ، إلا هذه الصناعات اللفظية ، والمحسنات البديعية ، هذا من جهة الألفاظ . وإلا هذا الشعور المصطنع والعاطفة الكاذبة : غلوا فى المدح ، وإقذاعا فى الهجو ، وهذا من جهة المعنى ، إلى غير ذلك . لهذا أنف المجددون من شعراء الفترة المذكورة وترفعوا عن المحاكاة والتقليد ، فجاء شعرهم شعورا صحيحا بعظمة الماضى ، وتصويرا واضحا لهوان الحاضر ، ودعوة للخلف إلى ترسم خطا السلف الصالح ، وقد سجلوا فى قصائدهم كوائن الفترة ، وأحداثها الجسام ، على اختلاف أشكالها من سياسية واجتماعية ، وغير ذلك . ومجمل القول بعد أن كان الأدب فى القرون الأخيرة ضربا من التصنع والمبالغات والأخيلة الباطلة أصبح فى الفترة المذكورة فناله رسالة سامية .

كثر عدد النابهين من هؤلاء الشعراء فى عصرنا المذكور ، وذلك فى جملة البلاد العربية ، فكان منهم فى مصر مثلا إسماعيل صبرى وأحمد شوقى وحافظ

إبراهيم كما كان منهم فى الشام شكيب أرسلان ، وعبد الحميد الرافعى وغيرهما من أعلام الشعر والأدب فى سوريا ولبنان ، أما فى العراق فقد نبغ رهط من الشعراء وفى مقدمتهم جميل صدقى الزهاوى ومعروف الرصافى الشاعران الأشهران فى هذه البلاد .

* * *

وهذا الشاعر - أعنى الرصافى - خليق بالدرس، وتجريد كتاب خاص يتكفل بنقد شعره وأدبه والبحث فى سيرته وحياته ، بل لا يستكثر تجريد أكثر من كتاب واحد فيه . إذ هو فى مقدمة أولئك الشعراء الماضين إحساسا بما عاناه الشرق والشعوب العربية المستظلة براية الهلال من آلام ، وما حاك فى صدورها من آمال ، وقد أجاد فى التعبير والتصوير ناقلا ما شهده جيله من المآسى إلى الأجيال القادمة ، فقد ولد ونشأ وعاش فى الفترة المذكورة ، ولابس ما جرياتها وأحداثها ، أدرك ثورة شباب الترك على الطغاة من سلاطين بنى عثمان ، بل كان له ضلع فى دعوتهم إلى إذكاء تلك الثورة ، وقد اتصل بزمرة من القادة الذين حالفهم الظفر فى قلب نظام الحكم البالى فى بلاد الدولة .

تشبع الرصافى وهو نزيل القسطنطينية بروح تلك الثورة ، وانتحل مبادئها على علاتها ، ومال إلى مشارب قادتها المذكورين ، ولا غرو فإن الرصافى كان يومئذ فى عنفوان شبابه وفتوته ، وللسن ما لها من دخل وتأثير فى هذا الشأن .

ومن الخطأ ظن من يظن أن ثورة الأتراك المذكورة كانت مقصورة على قلب نظام الحكم فحسب ، بل هى ثورة عامة على سائر نظم البلاد ، غايتها قلب النظم الاجتماعية قبل نظم الحكم السياسية ، وقد حذا فريق من قادتها حذو أمثالهم فى فرنسا وقلدوهم تقليدا تاما ، ورموا إلى مارموا إليه من أهداف فى الثورة الفرنسية الكبرى ، فما كان غريبا جريئاً من آراء الرصافى ومثله الزهاوى — ولا شك أن للشاعرين آراءهما الغريبة أو الجريئة — فإن مرده على الأكثر إلى تأثرهما ببعض الغلاة المتأثرين بفلسفة الثورة الفرنسية ، وكان هذا الفريق

من الغلاة يبيتون ما يبيتونه للإسلام ، ويتآمرون على نظم الحياة الروحية ، والثقافة الإسلامية ، وفيهم من يزعم أن الدين آفة الشرق وأن تمسكهم بالإسلام علة العلل فى تأخرهم وعجزهم عن مجاراة الشعوب العربية الناهضة .

لم يكن الثوار كلهم — والحق يقال — على هذا الغرار ، بل كان ولم يزل فيهم عدد غير قليل من الزعماء والقادة ، يعد نموذجا فى الغيرة على الشريعة السمحاء ، والتفانى فى سبيل الإسلام ، والعطف على أمانى الشعوب الشرقية ، والشعب التركى ولا سيما الجيل الذى أدركناه من أوفى شعوب الشرق للعقيدة الإسلامية ، ولهذا ادعى بعض الباحثين أن رهطا من أولئك الغلاة الملحدين مدسوسون لا يمتون إلى السلالات التركية الصريحة بسبب من الأسباب.

هذا وقد انبعث عن شطط القوم ما انبعث من تحزب وشقاق بين الأتراك أنفسهم فضلا عن غيرهم فتفرقت الكلمة ، وتعددت الأحزاب وآل ذلك أخيرا إلى كثير من المآسى والكوارث المعروفة فى تاريخ الدولة العثمانية .

والخلاصة كان الرصافى معدودا فى هذه الفئة الثائرة الغالية فى ثورتها، كما تدل على ذلك جملة من آرائه المبثوثة فى كتبه المنظومة والمنثورة ، كما أنه قد أتقن لغة الأتراك واطلع على أدبهم نظما ونثرا ، واندمج فى البيئة التركية وخالط سائر الطبقات فيها ، ولا سيما رجال الفكر والسياسة ، مجاريا للقوم فى آرائهم ومذاهبهم الحديثة من سياسية وفلسفية . ومما لا شك فيه كذلك أن الرصافى كان يكثر من التردد على مجالس القوم ، ويغشى أنديتهم ومعاهدهم الخاصة والعامة ويصغى إلى مايدور فيها من جدل عنيف فى القضايا المعضلة ، التى كانت شغلا شاغلا للناس فى مناحى السياسة والاجتماع ، فأصبحت هذه البيئة الجديدة التى اندمج فيها وتأثر بروحها مصدرا من مصادر إلهامه وثقافته ، وقد تيسر له مالم يتيسر لغيره ، فاستطاع أن يفرغ آراءه وأفكاره الثورية الحديثة فى قوالبها العربية القديمة ، ولا عجب فإنه تخرج فى علوم اللغة العربية على أشهر المتخصصين بها من علماء بغداد وذلك قبل نزوحه إلى الآستانة .

نحن لا ننكر أن الثوار كانوا على حق فى كثير من بواعث الثورة وأسبابها ومنها ذلك الجمود السياسى والجفاء الروحى اللذان اشتهر بهما الأتراك القدماء ، وهما من أقتل الأدواء فى هذا الشرق بأسره، ومنها تفريط السلاطين والحكام بحقوق الشعوب المحكومة ، ولذلك قوبل إعلان الثورة على هذا الشكل بالتهليل والتكبير فى جميع بلاد الدولة ، وغمرت الجمهور هنا موجه من الغبطة والحبور ليس لها مثيل ، حتى إن كاتب هذه السطور قد اندفع إلى تأييدها وتأييد الحزب الذى قام بها إلى حد بعيد ، كما اختير فى أوائل من اختير من أعضاء ذلك الحزب العاملين فى العراق . ولكننا ننكر أشد الإنكار غلو الغلاة ، وإفراط المفرطين ، والخروج عن الصدد فى تقويض أسس الحياة الاجتماعية الراسخة فى البلاد .

لا بد للأمم فى مهب الأعاصير من التماسك أو التمسك بأمراس النجاة ، وما هى إلا المحافظة على دساتيرها فى الدين والأخلاق وفى العادات الحميدة .

ومجمل القول لا مناص للشعوب الفتية الناهضة فى عصور التحول والانتقال من المحافظة على مقومات حياتها ، ومشخصات وجودها . وشعائر معتقداتها إلى غير ذلك من أخلاق وأوضاع صالحة . وقد ثبت على الأغلب أن الطفرة غير مأمونة ، ولها ما لها من عواقب وخيمة .

استساغ الرصافى ما استساغ من آراء تلك البيئة الثائرة على علاتها ، وجاهر بما جاهر به من شك وارتياب فى بعض الأصول الاعتقادية ، التى لا مجال للشك فيها عند جمهور المسلمين، وكان رائده فى ذلك حرية القول والرأى والاعتقاد وهو يدين بهذه الحرية ،ويقدسها التقديس كله، بل كان الرصافى ومثله الزهاوى يريان فى الجهر بآرائهما من هذا القبيل ، ضربا من الجرأة والإقدام ، ويعتقدان فى الصمت نوعا من الجبن والرياء ، إلى هذا ونحوه مما أسخط عليهما رهطا من رجال العلم والدين ، وأحفظ كثيراً من الأدباء المعروفين بأصالة الرأى والاتزان فى غير قطر من هذه الأقطار العربية .

غير أن الناظر فى ديوان الرصافى يجد فيه إلى جنب ذلك أقوالا تدعو إلى الرفق فى مقاضاته ، والتأنى فى مؤاخذته ، ومن هذه الأقوال ما يدل على الإيمان واليقين . وتنزيه البارى (جل اسمه) فضلا عن الإقرار بربوبيته ووحدانيته ، وبين أيدينا وصية للرصافى هى آخر ما وجد له مكتوباً بخطه قبيل وفاته ، وقد شهد فيها أنه ميت على دين الفطرة ، فأى جدوى لنا بعد ذلك فى غمزه ، والطعن فيه من هذه الناحية ؟

أما الإسراف فى المجون . ومقارفة المعاصى ، ونحو ذلك فلهما فى الشريعة حكم آخر كما لا يخفى . وليس من شأننا التطرق إلى هذه الجهة ، ولم تكتب هذه الكلمة من أجل الخوض فى هذا الموضوع .

وعلى هذا لنا أن نعد الرصافى ممن خلط الحسنة بالسيئة فى أدبه ، وقد رضى لنفسه تخطى الحدود ، ولم يعرف لينا أو هوادة فى نقده وسخريته وهجوه المقذع ، فكان كالريح إذا هاجت عاتية نكباء تأتى على ما مرت به من رطب ويابس ، أو هو كالحجر الصلد فى اندفاعه من شواهق القنن تهشيما لما يقع فوقه ، وتحطيما لمن يقف فى طريقه .

وشعره طافح بالعبث والمجون ، قلما سما به عن مستوى الحياة المادية ، ولا بدع فهو من الأدباء الذين يجنحون بأدبهم إلى الواقع ، ويخاطبون به العقول ولا شأن لهم فيه بمخاطبة القلوب ، ولا بمناجاة المثل العليا .

وليس من الحكمة فيما أرى نسج من ينسجون فى الآداب الرفيعة والفنون السامية على هذا المنوال ، فالحكمة هى الاعتدال والاقتصاد فى كل شىء ، وتجنب الإفراط والتفريط . وخير المذاهب الأدبية توسط ذويها بين السبح فى عالم الأوهام والأخيلة الباطلة وبين التمرغ فى حمأة المادة . وقد انفرد الرصافى بطريقته هذه عن معاصريه من فحول الشعراء ، ولم يعن بمذهبه هذا شاعر فحل من شعراء الديار المصرية أو السورية كإسماعيل صبرى وحافظ إبراهيم وأحمد شوقى وغير هؤلاء ، إذ كانوا إلى القصد والاعتدال

فى مذاهبهم الأدبية المذكورة . وهذه دواوينهم شاهدة على ما نقول ، ومرد ذلك إلى الاختلاف الشديد فى المنشأ والبيئة ، كما مرت الإشارة إلى ذلك . فالرصافى قدر له أن يعيش فى بيئة ثائرة كثيرة الزلزال متوالية الهزات ، تهز قلاقلها العروش ، وتدك أحداثها معاقل ذوى التيجان أما القوم فقد قدر لهم أن يعيشوا فى بيئة أخرى لا شك أنها تختلف عن البيئة السابقة .

ومجمل القول ينحو الرصافى فى أدبه منحى من يعتمد على العقل المطلق كما يراه هو عقلا مطلقا ولا يعول فى حكمه إلا على الواقع ، والتعويل على أحكام العقول فى الأمور العملية جائز مألوف . ولكن أنى يجوز لنا التعويل على أحكام هذه العقول الضعيفة القاصرة فى محيط الحياة الوجدانية ، وما يتصل به من دين وأدب وشعر وفلسفة ؟ وكم ضل العقليون والعمليون الواقعيون فى هذه الفجاج الواسعة والأجواز العميقة . وما أبعد الشقة بين مراتب العلم والعمل وبين مضطرب العقول ومطمأن الأرواح والقلوب !

وفيما نعانيه ونشهده اليوم من اضطراب وفساد فى الحياة ، ومن خوف وقلق يستعبدان الناس ما فيه من عبر ودروس بالغة وهذا موضوع خطير ، حجة الأذواق الرفيعة والمعانى السامية فيه حجة دامغة ، وحجة الجدل والمراء حجة داحضة ، والبحث فى ذلك يتسع لكتاب كبير ، ولكنه يخرج بنا عما نحن بصدده الآن .

ولا شك أن شعراء هذه الفترة السالف ذكرهم (والرصافى منهم فى الطليعة) قد أحسنوا فى توخى أشرف المقاصد ، وأنبل الأغراض وأوكدها صلة بمصالح الجماعات ، فأشادوا بمحاسن الحريات ، ونددوا بمساوىء الاستبداد ، وانحلال الأخلاق لدى الطبقات الحاكمة ، كما شرحوا للنشء وغيرهم سنن العمران ، ونواميس الكون فى رقى الشعوب وانحطاطها ، وتقدم الأمم وتقهقرها على غرار ما يفعله الأطباء الأساة ، ورجال الاصلاح وقد تطور الأدب فى زمانهم نظما ونثراً وأصبحت له كما قلنا رسالة عامة وغاية

إصلاحية فى الحياة ، بيد أن الرصافى من بين هؤلاء ذهب إلى مخاطبة العقل أكثر من ملاحاة العاطفة والوجدان ، وكانت دعوته إلى الاعتبار بالحقائق الواقعية فى هذا الكون فقط ، والعناية بالمظاهر المادية وحدها فى هذه الحياة . وهنا تكون مداحض الأقدام وشطط العقول وفتنة الأفكار ، ومن هذه الناحية كانت له تلك الشطحات ، فهو ممن خلط الحسنات بغيرها فى أدبه كما تقدم القول فى ذلك .

وقد أصبح أدب الرصافى الآن فى ذمة التاريخ وسوف يمخض الزمن نتيجة هذا الأدب ، ويصدر التاريخ حكمه فى مبلغ الجدوى التى عادت على شبابنا وناشئتنا من اتباع هذه الطريقة أو تلك فى الآداب الحديثة ، وإذا تأملنا النتائج التى حصل عليها شبابنا فى هذا المنحى من مناحى الأدب والفكر ، أو فى ذلك المنهاج من مناهج التربية والتعليم ، لم نجدها نتائج مثمرة ، شباب حائل الألوان ، متباين المشارب ، لا هو شرقى يدرك ميزة الحضارة الشرقية ويتذوق روحانية الشرق ، ويدرك الحكمة من رسالة الرسل والأنبياء ، ولا هو شباب غربى فى جرأته ومغامراته أوفى نشأته الاستقلالية ، وميله إلى التعاون والنظام ، ولا بد لنا قبل ذلك من الموازنة بين محاسن هذه المذاهب ومساوئها ، وبين مناحى الضعف والقوة فى المذاهب المذكورة .

* * *

مضى القول فى البيئة التى عاش فيها الرصافى إلى ما بعد رسوخ الحكم الدستورى فى البلاد التركية ، ومن ثم توالت الحروب من البلقان إلى طرابلس إلى اليمن وغيرها من بلاد الدولة ، إلى أن اتصلت بتلك الحرب الكبرى ، وهى الحرب التى انضم فيها الأتراك إلى حلفائهم الجرمان ، وفى أثناء هذه الحرب الكبرى نار العرب فى الحجاز بقيادة (الحسين بن على) ملك العرب ، وأعلن القوم استقلالهم وانفصالهم عن الجامعة العثمانية .

انقسم قادة الرأى فى البلاد العربية حيال هذا الحادث ، وفى سبيل تنظيم

علاقاتهم بالأتراك إلى قسمين : قسم يرى ضرورة الاتفاق مع الترك ضمن الجامعة الإسلامية أو العثمانية على شرط حصول العرب على قسطهم من الحكم الذاتى أو (اللامركزية) كما كانت تسمى إذ ذاك . ويرى أصحاب هذا الرأى أنه حل للمشكلة فى مصلحة الفريقين ، وقد تكاثر أنصار الرأى المذكور بين العرب أنفسهم بعد نشوب تلك الحرب الكبرى ، متمسكين بعروة الجامعة الإسلامية ، موجسين شرا من غدر بعض الدول العظمى المعروفة بمطامعها الاستعمارية ، ونكثها بعهودها المقطوعة للأمة العربية . وكان الرصافى ومثله الزهاوى ممن يجنحون إلى هذا الرأى وذلك قبل ظفر الحلفاء وتسليم الأتراك لهم بدون قيد أو شرط ، ولا عجب فقد كان هذا الشاعران غرسين من غراس الدوله بل كان كل منهما ربيباً لنعمة القوم ، وما كان هذا الموقف من الشاعرين فى رأى بعضهم إلا من قبيل الوفاء وعرفان الجميل .

أما الفريق الآخر من قادة الرأى فى العرب ، فهم لا يرون مندوحة عن إذكاء ثورتهم على الأتراك ، وقطع كل ما كان لهم من صلة بالقوم ، لأن العرب جربوا الأتراك مراراً ، وقد علمتهم التجارب أن الحصول من القوم على قسط من الحرية أو الحكم الذاتى ليس فى حيز الإمكان ، وقد مال أصحاب هذا الرأى إلى تأييد الثورة الهاشمية ، ومما شجعهم على ذلك ماجرى على أحرار العرب وشبابهم الناهض من تقتيل وتشريد على يد (جمال باشا) القائد التركى المشهور . وهو الذى ادعى أن شهداء العرب تآمروا مع الأعداء على سلامة الدولة .

ومن هذه الناحية كان بعض قادة الثورة العربية ينظرون شزراً إلى الرصافى بعد نزوحه من الاستانة إلى سورية فالعراق ، كما كان الرصافى يبادل القوم ذلك النظر الشزر بمثله فى كثير من الأحيان ، وهذا سبب من أهم أسباب الجفاء وفتور العلاقات بين الرصافى وبين بعض شباب العرب . وهو الأمر الذى أدى أخيراً إلى عزلته فى بعض الأرياف العراقية وانقطاعه عن قرض الشعر ، إلا إذا ألحت البواعث والمناسبات .

أقام الرصافى فى ناحية ريفية تبعد عشرات الأميال عن بغداد، وكان خلال إقامته فيها على الأغلب يعانى أزمة نفسية عنيفة . وذلك من جراء المصير الذى لم يكن يتوقعه هو ولا غيره من الناس لنفسه ، والدليل على أنه كان يعانى تلك الأزمة اتخاذه زى البدو والأعراب ، وظهوره أمام الناس بذلك المظهر الخشن والمباذل الغريبة ، بعد أن كان أشهر من نار على علم فى محافل الأدب البغدادية . وهكذا استراح الرصافى إلى طريقة من طرق الرمز والإيحاء ، فى بث الاحتجاج والإنكار ، واطمأن إلى هذا الأسلوب فى التعريض بسوء المعاملة ، والإجحاف الذى يلقاه أدباء البلد . ولم يكن للرصافى على الظاهر بد من الالتجاء إلى هذه الطريقة التى يرمز بها إلى قلة المبالاة ، وعدم الاكتراث به وبطبقته من الأدباء وذلك بعد أن أعيته الحيل ، وكل لسانه من العتاب والحساب .

ومن رأينا أن الرصافى لم يوفق أيضاً فى لفت الأنظار إلى مقاصده وأغراضه من هذه الناحية ، وذلك لأسباب لا نظنها تخفى على النقدة الألباء بعد تأملهم فى بعض ما قدمناه .

* * *

كان لكل من الرصافى ، ولمن جفاه وقسا عليه من القوم عذره الذى ينتحله وحجته التى يحتج بها ، فأما الرصافى من جهته فكان يحمل ذلك على بخس حقه ومنزلته فى الشعر والأدب ، وفيما أداه بواسطتهما من خدمة لقومه ولبلاده . فانه أذاع للعراق ذكراً بعيداً وبث له دعوة واسعة .

وأما القوم من ناحيتهم فكانوا ينكرون على الرجل صرامته وشدته وشذوذ آرائه أحياناً ، ولا يحتملون نقده اللذاع وإسفافه فى الهجو والإقذاع .

والحقيقة التى لا بد لنا من الإصحار بها مهما كان موقفنا من الفريقين ، هى أن كثيراً من أعلام الأدب فى هذه البلاد مغمورون ، يكابدون شظف العيش ويقاسون الأمرين ، ولا سبب لذلك على الأكثر إلا بلادة الشعور وجفاء الطبع اللذان جبل عليهما رهط من القادة والزعماء ، وما عرفوا به من

شح وتقتير على نوابغ أمتهم فى الفنون والأدب ، وما اشتهر القوم به من جمود شديد فى تشجيع حركة النشر والتأليف والأخذ بيد الباحثين والمؤلفين.

ومما يضاعف الأسى فى هذا الباب أن فضل الأدب لا يجحد ، وأثره لا ينكر فيما ناله العراق من صيت حميد ، وما حصل عليه من مركز سام ، وذلك بخلاف السياسة ، فقد كان ولم يزل إثم السياسة أكبر من نفعها فى هذا الشأن .

ولم لا يكون ذلك كذلك فى بلد كثيرا ما تسند مناصب الدولة العليا فيه إلى غير أهلها ، ولا يستثنى من تلك المناصب العالية الوزارة التى يقال لها وزارة التربية والتعليم ، وهى الوزارة المرجوة المؤملة فى إنهاض القوم من كبوتهم والأخذ بأضباعهم وإقالتهم من عثرتهم ، وذلك على الوجه الذى تقوم به أمثالها من الوزارات فى البلدان الناهضة ؟

* * *

وإذا كان لكل شاعر فحل سمة واضحة فى شعره ، ولكل أديب موهوب ميزة كبرى فى أدبه ، فان للرصافى فى شعره ميزتين : إحداهما متصلة بهذا الشعر من ناحية المعنى، والميزة الأخرى تتصل به من حيث المبنى .

فأما ميزة شعر الرصافى من حيث معناه ، فهى استقلال فى الرأى والفكر ومجاهرة بالمعتقد على علاته ، وتعبير عن كل ما يجول بخاطره ، ولو كان فيه ما فيه من الخروج على كل مألوف محترم فى بيئته ، وله فى شعره آراء غاية فى الجرأة كما لا يخفى ، ويكثر فى أدبه المجون ، ومن مجونه ما لم ينشر فى ديوانه لبذاءته وإسفافه فيه إسفافا قد يترفع عنه الرعاع ، وقد يتحاماه أدنى طبقات الناس مروءة وفتوة ، وما أشبه حياة الرجل وطريقته من هذه الناحية بحياة مشاهير المجان المعروفين بعبثهم فى بعض عصور الدولة العباسية ببغداد ، وما أشبه طريقته بطريقة القوم .

وبعد فلا غرض للرصافى من ذلك كله على ما يقول هو فى أشعاره إلا تحرير العقول ، وتنوير الأفكار ، واستخلاص الحقائق ، والتميز بينها وبين

الأوهام والخرافات ، ومن ثم التخلص من رياء المرائين ونعاق المنافقين ،فهل وصل الرصافى إلى غرضه ؟ وهل دنا من غايته ؟ من رأينا أنه كان قليل التوفيق فى هذا السبيل ، كما كانت جهوده — على أنها والحق يقال جهود طويلة مضنية — ضئيلة الجدوى ، وما ذلك إلا لأنه ارتكب ما ارتكب من هفوات ، وسار فى طريق كثيرة العثار ، منعقدة الغبار ، فلم يصل إلى مراده ، بل كان دون الوصول إليه خرط القتاد ، والدليل على ما نقول أن خطته هذه ألبت عليه من ألبت من المعارضين ، فنهم من احتج عليه أشد احتجاج ، ومنهم من انبرى لتفنيد آرائه إلى غير ذلك مما نغص عيشه أحوج ما كان إلى الهدوء ورغد العيش .

وللرصافى ومثله الزهاوى أسلوب خاص ينظمان بموجبه الشعر فى موضوعات العلوم الكونية وبعض المسائل الطبيعية أو الرياضية . تقرأ هذا الشعر فكأنك تقرأ فصلا لكاتب كتبه فى موضوعه ، فهذا الشعر لا يفرق عن النثر فى شىء ، ولست من يعجبه هذا المذهب مطلقاً ، ولم أجد فيه ميزة من ميزات الشعر ، ولا أدرى لماذا أولع الشاعران به ؟ والغالب أنهما نسجا فيه على منوال بعض شعراء الأتراك .

هذه هى ميزة شعر الرصافى من حيث معناه ، وهى دون ميزة هذا الشعر من ناحية مبناه ، إذ من رأينا أن الميزة الكبرى فى شعر الرصافى لا توجد إلا فى رصانة مبانيه ، وقوالبه الشعرية : ديباجة فى غاية الصفاء ، وبيان فى منتهى الإشراق، وألفاظ فى أعلى رتب الجزالة ، ولعل هذا الشاعر كان فى هذا الزمن الأخير نسيج وحده فى الاطلاع على غريب اللغة ، وتقييد أوابدها ، وامتلاك أعنة فصحها وشواردها .

ولا نغلو إذا قلنا إن العراق بل بلاد العرب كافة لم تشهد له ضريبا منذ قرون وبعضهم يقول منذ سقوط دولة العباسيين فى بغداد ،وكأنما أبت له شدته وصلابته المعروفة فى مقاصده ومعانيه الشعرية إلا أن تلازمه فى ناحية المبانى والألفاظ

فهو من هذه الناحية قليل النظير بل هو مثال يحتذى به فى هذا الباب .

* * *

كنت أتوق إلى الوقوف على كتاب عن الرصافى ، قيل لى إنه لبعض المختصين به من أدباء بغداد ، وبينما أنا كذلك إذ زارنى فى منزلى الأستاذ الفاضل السيد بدوى أحمد طبانه مدرس الأدب فى كلية المعلمين ببغداد وأطلعنى على هذا الكتاب فإذا هو عبارة عن دراسة مستوفاة فى الموضوع .

ومما راقنى جدا أن يضطلع بها مؤلف مصرى فيحوز قصب السبق فى هذا المضمار على أدباء العراق ، وقد تصفحت الكتاب فاذا مؤلفه الأستاذ قد ألم بكثير من النواحى التى ينبغى الإلمام بها فى هذا الشأن ، فلم يفته البحث فى بيئة الرصافى ومنشئه وسيرته وفنه وشاعريته إلى غير ذلك .وقد كون آراءه فى النقد وذكر ما للشاعر وما عليه ، والموازنة بين محاسنه ومساويه فى الشعر والأدب تكوينا لطيفا يدل على تجرد وإنصاف فى كثير من فصول الكتاب .

هذا إلى أن الأستاذ فى طليعة المكبرين المعجبين بأدب هذا الشاعر كما يلوح لنا من فصول أخرى من الكتاب .

* * *

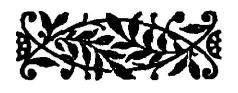
ولا يخفى أن الرصافى شاعر مكثر ، له ديوان كبير الحجم ، وهو مع إكثاره وضخامة ديوانه شاعر محلق مجيد فلابد لمن يتوفر على وضع كتاب فيه من قراءة جل مانشر وما لم ينشر من شعر الرصافى ،والتوفر على نقده ودراسته وفى ذلك مافيه من جهد مضن لا يضطلع به إلا الكفء القدير ، وهذا مابذل الأستاذ المؤلف ـ حفظه الله ـ فيه جهد الطاقة .

وقد أفادنى لقاء السيد المؤلف أثناء البحث فى موضوع كتابه فائدة أخرى ، وهيأ لى متعة ثانية وذلك من ناحية التعرف إلى نموذج حى جمع إلى أدب الدرس كرم الشمائل وأدب النفس .

هذا ولا بد لى من القول بأنى اختلفت مع مؤلف الكتاب فى جملة من آرائه ، ولم أتفق معه فى استنباط بعض ما استنبطه ، واستنتاج بعض ما استنتجه فى هذا الكتاب. بيد أنه تلقى ذلك برحابة صدر وسجاحة خلق ،وقد شاء له أدبه أن يثبت تلك التعاليق والأقوال وسيطلع القراء عليها فى مواضعها من الكتاب .
وحسبي الآن تقديم هذا الكتاب المصنف فى الرصافى إلى كل من يعنى بشئون الأدب العربى الحديث ، ونقد الشعر والشعراء المحدثين ، ولست أشك فى أن عدد من يشاطرنى رأيي فى نفاسة هذا الكتاب وفى فضل مؤلفه عدد غير قليل .
وإلى الله أبتهل أن يجعل التوفيق حليفاله ، إنه ولى التوفيق ؟

٢٧ صفر سنة ١٣٦٦
١٨ كانون الثانى سنة ١٩٤٧

محمد رضا الشبيبى





أنا ابنُ دِجلةَ معروفاً بها أدَبي   وإنْ يكُ الماءُ منها ليسَ يَرْوِيني

(الرصافي)

مقدمة

فى الشعر العربى إلى عهد الرصافى

لم يستطع أدب أمة من الأمم النهوض بما استطاع الأدب العربى أن ينهض به فى التعريف بالأمة العربية هذا التعريف الشامل الذى بدأ بالأرض التى دب عليها هؤلاء العرب ، وانتهى إلى السماء التى أظلتهم ، يشجعنا على هذا الاعتقاد قلة المصادر التى يمكن الاعتماد عليها فى تبين حياة العرب الأولين وطرق تفننهم فى أسباب الرزق ، والضرب فى أودية الحياة .

استطاع الناس أن يعرفوا كثيرا عن مصر القديمة بالكتب التى لايتسرب إليها الشك ، والتى وصفت حياة المصريين وتقاليدهم وطقوسهم، سواء منها ماخطه الكهنة ورجال الدين فى كتاب الموتى ونحوه ، وماسجله الرواد الذين أموا وادى النيل فى كتب رحلاتهم وأسفارهم، وكذلك بالآثار التى خلفها المصريون القدماء والتى لا تزال شاخصة إلى اليوم، ماثلة للعيان بما نقش عليها من رموز وكتابات يجد فيها المؤرخ والباحث مايفسح لهما الطريق وينير لهما نهج البحث فيما يحاولان من استخلاص ما يبغيان من الحقائق عن المصريين الغابرين .

وقريب من ذلك أمة اليونان ، وإن كان لهذه الأمة أدب عريق يتجلى فى الإلياذة وغيرها من كتب القصص والأساطير ودواوين الأفكار والمعتقدات، ولكننا نرى أن هذه الآثار الأدبية ـ وإن أدت إلينا الكثير مما يلقى الضوء على تاريخ الأمة اليونانية وعقائدها ـ تساندها معرفة تامة بأحوال البلاد وملوكها وطبيعة أرضها ، وما اكتنفها من مظاهر الطبيعة .

ولأمة الفرس حضارة مذكورة ولكنها مسطورة ، يقال أمر بتسطيرها ملوكها ، وأولو الأمر فيها تسطيرا يجد الباحث فيه غنيته .

وليس الأمر كذلك بالنسبة للأمة العربيـة التى اختطت حياتها فى هذه الموامى الشاسعة بين حل وترحال ، فلم يؤثر لها كتاب ، ولم يعثر لها على أثر يعتد به فى هذه الناحية .

وإنما استطاع هذا المـأثور عنهم من جيد النظم والنثر وحده أن ينهض بهذا التعريف الشامل خـير نهوض فى عصور الجاهلية ، واستطاع الأدب العربى وحده أن يثبت أنه مصدر كبير فى العصور التالية ، بحيث لم يعد من المقدور تغافله فى معرفة زمان ، أو طبيعة مكان ، فى صدر الإسلام ، وأيام بنى أمية ، وامتدت حدود الأدب فى العصر العباسى إلى آفاق بعيدة ، فلا مناص عنه ــ رغم ما كتب عن هذا العصر من كتب التاريخ والسير ــ لمن يبحث عن الحقيقة من جهاتها المتعددة ، وأنحائها الشاردة !

فلطائفة الجادين أدبها ، ولجماعة اللاهين أدبها ، ومن هذين اللونين وغيرهما من فنون الأدب استطعنا أن نقف عـلى كثير من ألوان الحياة المتباينة فى ذلك العصر الزاهر الزاخر .

وليس لنا أن نستطرد فى هذا الأمر ، ولا أن نستشهد عليه بما يؤيده ، فـكتب الأدب وحدها كفيلة بإثباته ، وفى سطورها الموشاة بالنظم والنثر الـكفاية .

ونحن مع ذلك مضطرون إلى وقفة قصيرة تجاه العصر العباسى ، مادمنا نتحدث عن العراق ، وأدب العراق ، ومعروف الرصافى شاعر العراق.

فلقد اختط أبو جعفر المنصور بغداد فى بقعة هى ملتقى الحضارات البابلية والأشورية والفارسية والآرامية ، وملتقى الأديان والمذاهب على ضفتى دجلة ، وشاء الله أن تزدهر هذه المدينة الفتية أيما ازدهار ، وأن تموج بالعلماء ، وتزخر بالأدباء ، ويحج إليها أرباب الفنون ، وذوو المواهب من سائر الملل والنحل .

واعتلى أريكة الملك فى حاضرة العروبة الكبرى الضراغم الشداد من بنى العباس ، وأخذت الخيرات تتدفق على هذه الحاضرة من سائر أرجاء المملكة الإسلامية المترامية الأطراف ، فزاد الخصب ، وعمرت الأرض ، وتثقفت العقول نتيجة للنهضة العلمية الشاملة ، وأم بغداد كل متطلع إلى المجد ، وكل منتجع للثراء ، والخلفاء والولاة من وراء ذلك يمدون لهم فى حبل العطاء ، ويفتحون باب النوال على مصراعيه ، فأتخموا بعد المسغبة ، وأثروا بعد الخصاصة .

ولقد أحدث هذا العطاء ، وماجر إليه من الغنى مما لم يسبق له مثيل فى عصور العربية تنافسا بين أولى المنزلة ، طمعا فى مجد يخلد خلود الأدب ، وتنافسا بين الأدباء على الإجادة والسبق ، ليظفروا بأعظم قسط من العطاء ، والحظوة والتقريب ومن ورائهما غنى يساق سوقا .

ذكر الرواة ومنهم أبو الفرج فى الأغانى أن سلما الخاسر خلف ثروة مقدارها خمسون ألف دينار وألف ألف وخمسمائة ألف درهم غير الضياع ، وقد خلف مروان بن أبى حفصة أكثر من ذلك ، ومثلهما فى هذا جمهرة من الشعراء غير مبذريهم الذين كانوا يفوقونهم كسبا ، ولا يبقون على شىء مما كسبوا كأبى نواس (١) .

وقد شحذ هذا العطاء ألسنة الشعراء فجددوا وغالوا وتأنقوا وابتكروا ، وامتد ذلك إلى نواحى الشعر فشمل ألفاظه وأساليبه ، ومعانيه وأخيلته ثم أغراضه وفنونه ، مما تجده مفصلا فى كتب الأدب وتاريخه .

ولهذا ازدهر العصر العباسى حتى لم يساوه فى ازدهاره عصر سابق ، ولم يلحقه فيه لاحق ، وظلت بغداد خمسة قرون تشع منها أضواء العلم والمعرفة فى ربوع البلاد العربية وتجاوزتها إلى بعض بلاد الغرب المتخبطة فى دياجير الظلام إذ ذاك .

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى . تأليف السباعى بيومى . نقلا عن الأغانى .

وحل بالعراق رسل الخراب والدمار ، جماعة التتار الهمج ، فقوضوا هذه الحضارة السامقة التي بناها العرب بأيديهم في هذه القرون ، لولا أن قيض الله لهذه الحضارة من احتضنها ، ورعاها من كيد الكائدين .

وكانت فترة ظلام غشت وادى الرافدين ، فأطفأت هذه الجذوة الملتهبة وعبثت بسراج العلم ، وطوحت بآثار الفضل ، وطغت على حديقة الأدب ، فصوحت زهرها وثمرها .

وقد عودنا الشعر أنه السجل الذى تطوى فيه صور العصور ، فيطالعها الخلف. فيرون فيها صورة إن لم تكن مطابقة للأصل ففيها مميزاته. وفى أجزائها سماته . لما عرف عن الشعراء من صدق الحس ، وصفاء الحواس ، وهم الذين يتأثرون بما يسود البيئة التى يعيشون فيها ، ويرسمون فى شعرهم صورتها ، لذلك فقد سجل الفساد الذى أصاب البلاد العربية فى هذه الفترة ، بل لقد أصاب الشعر نفسه الفساد كما أصاب مناحى الحياة المختلفة .

وكان أهم أسباب هذا الفساد جور الحكام ، وجهلهم ، وأعجميتهم ، واهتمامهم باحتجان الثروة دون العناية بصحة أو تجارة أو صناعة أو زراعة، وكان هنالك البخل الشديد على الشعراء بعد العطايا التى كانت تنوء بها كواهلهم ، بل عدموا القوت، فانصرفوا عن هذه الصناعة الكاسدة ، يضربون فى مناكب الأرض جريا وراء العيش والتماسا للرزق، مادامت هذه الصناعة لا تكفل لهم مايقيم أصلابهم ، وما دام هؤلاء الحكام قد سدوا فى وجوههم أبواب الطلب لأنهم لا يفهمون قدر مايقال فيهم ، ولأنهم أعاجم ، وأنى لهم العطاء ؟ وليس الذى يأخذ من شأنه العطاء !

وخير مصور لهذه الحالة البئيسة قول عبد المحسن الصورى :

وصناعتى عربيــــة وكأننى ألقى بأكثر ما أقول الروما
فلمن أقول؟ وما أقول؟ وأين لى فأسير ؟ لا بل أين لى فأقيما ؟

وإنك لتقرأ القصيدة من قصائد هذا العصر فلا تجد إلا معنى تافها ، وإلى جانبه تجد تكلفا لفظيا واضحا ، حتى ليخيل إليك أن التفنن فى جمع المحسنات البديعية هو الغرض الأول للشاعر ، وليس ذلك لشىء سوى إقفار العقول ، وجدب القلوب من كل معنى جليل وعاطفة قوية . نتيجة لانحطاط الثقافة وجور الحكام .

وهنالك ظاهرة أخرى فى شعر هؤلاء الشعراء ، وهى التقليد للسابقين من الفحول فى عصور العربية الزاهرة ، ولكنه تقليد سقيم ، وليس التكحل فى العينين كالكحل ! فقد تجد التغزل والإلحاش وتجد الخمريات ولو لم يكن أصحاب ذلك من الولهين بالحسان ، أو المعاقرين لابنة الحان وتقرأ لهم الأبيات الحماسية تحس فيها صليل السيوف ، ومثار النقع . ووقع سنابك الخيل ؛ ولم يشهد قائلوها حربا ، ولم يقبضوا على قائم سيف ، أو عامل رمح ، ولم يمتطوا صهوة جواد ! وإنما هى رغبتهم فى محاكاة المجيدين من الشعراء فى عصور الازدهار .

كانت هذه حالة الأدب عامة ، والشعر خاصة ، أيام هؤلاء الغزاة الأفاقين ، ولم يكن عهد الأتراك العثمانيين أسعد من هذا العهد ، جور شامل ، وعسف باد ، واستنزاف للأموال ، وإهمال لمرافق الدولة ، وعمل فى غير هوادة للقضاء على كل أثر للعروبة ومناهضة للسانها القويم ، وأدبها الكريم ، واهتمام بعض قادتهم (بتتريك) الأمم العربية ولا سيما فى أخريات هذا الدور من أدوار التاريخ ، فأخذت لغة الضاد تتضاءل وتنزوى ، لولا أن صانها الله بكتابه الخالد وحديث نبيه الكريم ، وكلاهما أس العقيدة وليس من اليسير التحلل من أسس هذه العقيدة ، إذ لم يبق للقوم غيرها !

أما العراق فى العهد العثمانى فقد اعتوره ما اعتور سائر البلاد العربية ولكن مصر تخلصت من العثمانيين قبل هذه البلاد فى عهود ثلاثة : أولها عهد المماليك ، وثانيها أيام الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت ، وثالثها

على يد محمد على باشا رأس الأسرة العلوية المالكة . بقى العراق يئن تحت الحكم العثمانى إلى نهاية الحرب العامة الأولى التى نشبت سنة ١٩١٤ . على أن العهد العثمانى لم يجر على غرار واحد فى الحكم والجور ، ففى أوله الاستبداد الذى قبع العراقيون طوال أيامه فى عراقهم ، وفقدوا كل اتصال بالخارج ويمكن عده عهد العزلة عن كل ما هو أجنبى من حضارة أو ثقافة كما بقيت مادة الثقافة عربية بحتة ، إذا ما استثنينا ثقافة الجالية التركية ، ومادة الثقافة العربية التى أشرنا إليها محدودة ، منحصرة فى مدارسة القرآن الكريم وعلومه ، وحفظ شعر الأولين وقدر تافه من العلوم الكونية.

وفى هذه الفترة أعرض أبناء البلاد عن السياسة ، أو أعرضت عنهم السياسة ، فليس لهم فى الكثير الغالب طموح إلى منصب أو تطلع إلى وظيفة فانصرفت جهود أذكيائهم ، وذوى المواهب منهم إلى الأدب ، فكانت هناك نهضة أدبية عواملها دينية بحتة عمت الأقاليم الجنوبية ، وكان مركز هذه النهضة بعض حواضر الفرات وأشهرها النجف والحلة ، وقد اقتصرت على الشعر دون النثر غالباً ، ويصح أن يسمى هذا الشعر (الشعر العلوى) ، أو (الشعر الحسينى) ، وموضوعه مأساة الحسين وغيره من أئمة البيت . ولعاطفة الولاء والتفانى فى محبتهم ، أبلغ الأثر فى ازدهار هذا اللون من الشعر الذى شعاره البساطة والصدق والإخلاص فى حب آل البيت ، وبكائهم واستثارة كوامن الألم المستقر فى قرارة النفوس .

وليس هذا الشعر شعر دموع وآلام فقط ، بل هو فى جوهره شعر قوة وحماسة ، ولقد كان له أثر بعيد فى إشاعة الفصحى ودحر العامية فى الأقاليم التى توطن فيها ، وذلك لإقبال العامة عليه إقبالا منقطع النظير ، إذ كان ينشد فى المآتم الخاصة والعامة وتعنى بها حفلات الذكرى لمصرع الشهداء من آل البيت وكذلك فى سائر المجتمعات الدينية .

وإلى جانب هذا اللون المتميز من الشعر ، وجد الشعر الغنائى أوالغزلى ، ولم تخل بغدادوالبصرة والموصل من شعراءكان لهم أثركبيرفى النهضة الحاضرة ، ومن شعراء هذه الفترة عبد الغفار الأخرس وعبد الباقى العمرى وغيرهما .

أما الفترة الثانية من العهد العثمانى فتبدأ بإعلان الدستور سنة ١٩٠٨ ، وفيها ظهر تجدد الشعراء ، فعدلوا بشعرهم عن مذاهب الجامدين وقل المدح وكثر وصف جمال الكون ، ومحاسن الطبيعة ، وشاع الشعر السياسى والشعر الاجتماعى ، وعبر أصحابهما عن مساوىء الاستبداد ومجدوا الحرية وأشادوا بقيم الفضائل ، ومكارم الأخلاق وأثرها فى نهضات الأمم ويقظة الشعوب ومالوا إلى وحدة الموضوع فى القصيدة الواحدة .

ويمتازالشعر فى هذه الحقبة بأنه شعرله رسالة وللشعراء أهداف يتوخونها وهى التعبير عن آلام الأمة وآمالها ، وعن طموحها إلى مجاراة الأمم الناهضة ، ورغبتها فى التخلص من عوامل الضعف والانحلال(١) .

على أن رسالة الشعر أصبحت فى أخريات هذا الدور قومية بحتة بعد أن كانت وطنية عثمانية ، ومن شعراء هذا العهد جميل صدقى الزهاوى ومعروف الرصافى ، ورضا الشبيبى ، وحبيب العبيدى ، وخيرى الهنداوى ، ويلى هذه الطبقة طبقة أخرى من شعراء الشباب حذت حذوهم فى طرق الموضوعات العامة ولها شعركثير ، وبعضهم ممن تخرج على رجال الطبقة الماضية ، وفى هذه الطبقة الثانية : محمد مهدى الجواهرى و وأحمد الصافى النجفى ، ومحمود الحبوبى النجفى وغيرهم .

وبعد انقشاع سحابة الحكم العثمانى عن العراق بعد الحرب العامة الأولى احتك العراق احتكاكا قوياً بالحضارة الحديثة ، وتأثر بمختلف النظم الجديدة

---

(١) عن مقال للعلامة الشبيبى فى العدد الذهبى لمجلة الهلال موضوعه (الأدب والأدباء فى العراق فى خمسين سنة)

للأدب والثقافة وأقبل الشعراء على السياسة ، وكان من بعضهم هجر للأدب ومن بقى يعالج الشعر منهم لم يفارق شعراء الماضى فى كثير ، على أن بعضهم تأثر بما تأثر به العالم فسلم من التقليد وأصبح شاعر العصر.

هذه صورة سريعة رسمناها لحالة الأدب ، وعوامل ازدهاره وأسباب ذبوله وانحلاله وهى سلسلة كان شاعرنا إحدى الحلقات المهمة فيها .

هذا الدور التاريخى الذى مر بالعراق ، والذى تقلبت به الأحوال ، جدير بالبحث والتنقيب، ففيه ضعف وانحلال وفيه إحساس بهذا الضعف والانحلال، وفيه أخذ بأسباب النهوض من هذه المهاوى السحيقة التى تردى العراق وغيره فيها ، وفيه ظهرت بوادر النهوض ، والتمعت سمات الحياة ، وبرز العراق درّة فريدة فى تاج الشرق العربى ، وها هو ذا يخطو إلى الأمام بخطا ثابتة ، وعزيمة ثاقبة ، وهمة مضرية ، لا تعرف الوهن ، وهو يحث الخطا جاداً لإدراك مجده العريق، واللحاق بسالف منزلته أيام عزة العرب والمسلمين فى عصر بنى العباس ، بهمة قادته العاملين ، ورعاية البيت الهاشمى ، الذى خلص العروبة من أعدائها الذين كانوا يعملون جاهدين على إفنائها .

هذه المرحلة التى شابتها هذه الأحداث ، فزادتها نقاء ، وزادت جوهرها تألقا والتماعاً ، أبرزت معروفا الرصافى، الذى يمثلها خير تمثيل ، تمثلت فيه أمانى بلده ، وتمثلت فيه عقلية وطنه ، هذه العقلية التى تقلبت تقلب هذه الأحداث ، وكان شعره صدى لما يضطرب فى بيئته من الأمانى والآلام .

معروف



الرصافي في عنفوان شبابه

[الرصافى ـ أبواه ـ أسرته ـ تعلمه ـ أساتذته ـ اشتغاله بالتدريس مواهبه الشعرية ـ سفره إلى تركيا ـ قصة زواجه ـ اختياره عضوا فى مجلس المبعوثان ـ مغادرته تركيا بعد الحرب العامة الأولى ـ فى الشام ـ إلى فلسطين ـ استدعاؤه إلى وطنه ـ توظفه فى الحكومة ـ فى الصحافة ـ فى مجلس الأمة العراقى ـ فى الفلوجه ـ أخريات أيامه ـ وفاته ، وصيته] .

١

هذه بغداد تتثاءب بعد إغفاءتها الطويلة أكثر من ستة قرون، والأمر بها ليس لأحد من أهلها ، ولكنها مدينة المنصور ، إن أدركها الوسن فإلى يقظة ، وإن أصابها الخمول فلابد لليل العاكر من آخر، ولابد من صحوة ذات بشائر، ودون إشراقة النهار وإشعاعة الشمس تنفس البلجة فى جوف الغسق .

وهذاك دجلة يجرى من قديم الآباد بين الأودية والوهاد ، فيخترق بغداد من الشمال إلى الجنوب كما يسرى الشريان بحياة الجسد فإلى ضفته الغربية تجد الحى العتيق ، الذى يسمى (الكرخ) وإلى ضفته الشرقية النصف الثانى من بغداد الذى يدعى (الرصافة) وبينهما الجسر العتيق الذى أنشد فيه ابن الجهم .

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

ورصافة بغداد سمية رصافة أخرى ببلاد الشام هى التى عناها الفرزدق حين قال مخاطبا راحلته ، وممنيا نفسه بالوصول بعد الحفا والوخد والذميل :

متى تردى الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى

جاد العراق بعلم من أعلام المعرفة الربانية ، وقطب من أقطاب التصوف الإسلامى ، هو « معروف» الذى نسب للكرخ فكان (معروف الكرخى) ، وخلد الكرخ بمعروف .

لم يستأثر (الكرخ) بالخلود دون شقيقته (الرصافة) فلقد جاد الزمان على أهل الرصافة (بمعروف) الذى تردد فتيا على علم من أعلامها هو العلامة

(السيد محمود شكري الآلوسي)(١) الذي أحبه وتوسم فيه الذكاء وعرف ما يعدله نفسه من الخلود بمواهبه الفريدة التي أيقن أن سيكتب لها الخلود، فنسب الفتى إلى هذه الرصافة المنسية المذكورة فكان (معروف الرصافي).

وخلد معروف بمواهبه وعبقريته وفنه، وخلدت الرصافة بمعروف!

٢

نحن الآن في العقد الأخير من القرن الثالث عشر الهجري (٢) وفي مطلع الربع الرابع من القرن التاسع عشر الميلادي (٣) وتمخضت الليالي عن وليد نابه لم يكسب النباهة من سبيل ثروة خلفها أبوه، أو مجد تليد تعلق بأسبابه، أو علم تميزت به أسرته، أو نسب شرف به.

فليس لدينا خبر مأثور عن ماهية البيت الذي ينتمي إليه شاعرنا ومن يوثق بروايته من الرواة ومن كسب هذه الثقة من معاشرة الرصافي، وصحبته أمداً غير قليل لا يجزمون بمعرفة أكيدة عن حقيقة الأسرة التي ينتمي إليها الرصافي فهذا عالم جليل صحب الرصافي أكثر من ربع القرن صحبة الأخ بله صحبة الصديق يقول:

«كان الرصافي - رحمه الله - قليل التحدث عن نفسه وعن أسرته، وإذا

---

(١) السيد محمود شكري ابن السيد عبد الله بهاء الدين ابن أبي الثناء شهاب الدين محمود الالوسي من كبار علماء العراق وأدبائه نشأ في بيت كريم من أعرق بيوتات العراق علما وفضلا وورعا، تخرج عليه جماعة من أفاضل العلماء، وخيرة الشعراء «منهم الرصافي» وله كتاب جليل «بلوغ الأرب في أحوال العرب» مطبوع في ثلاثة مجلدات. توفي سنة ١٩٢٤

(٢) سنة ١٢٩٢ الهجرية (٣) سنة ١٨٧٣ الميلادية

أراد محدثه أن ينتزع منه شيئاً من هذا القبيل كان عليه أن يستعمل اللباقة والمداورة للحصول على بعض ما يريد . » ثم يقول : « أما أصله وأهله فلا يتحدث عنهما إلا إذا جذبه الحديث إليهما جذبا ، فيضطر إلى الإيماء والإلماع دون التبسط والإسهاب » ويخلص المحدث الكريم إلى الجزم بقوله : « ومن قال لك: إن أباه من أصل كذا وأمه من أصل كذا فقد أبعد ! فإنى على وثيق صلتى به لم أسمع منه حرفاً واحداً يشير إلى هذه الجهة » (١) اه

ونستطيع أن نستخلص من هذه العبارات أن معروفا نشأ فى أسرة غير مذكورة ، فهذا الذى صحبه أكثر من ربع القرن لم يعرف عن شاعرنا شيئا عن أبيه، ولا شيئاً عن أمه ويخلص من ذلك كله إلى الجزم بأن من قال :إن أباه من أصل كذا وأمه من أصل كذا فقد أبعد !

ولا يزال الناس فى لهفة وولع بالأحساب والأنساب وكثيرا ما سألوا الرصافى عن أبيه، ولكنه لم يجبهم إجابة تشفى غلتهم فى معرفة نسبه ، وهو حين يجيبهم يمعن فى الإبهام ، ويزيد الأمر تعقيدا ، استمع إليه يجيب على سؤالهم :

قالوا : ابن من أنت ياهذا ؟ فقلت لهم :
أبى امرؤ جده الأعلى أبو البشر
قالوا : فهل نال مجدا ؟ قلت واعجبى
أتسألونى بمجد ليس من ثمرى ؟

على أن هذا الجزم لم يعق المولعين بالتعلق بأسباب الأنساب ، والتماس المجد فى العظام والأشلاء من نسبة الرجل من جهة أبيه إلى قبيلة عربية ، ومن نسبته من جهة أمه إلى قبيلة عربية أيضاً . وقد تعجب أشد العجب من هذه الأقوال ، إذا علمت أن قائليها أنفسهم يقولون فى عبارة صريحة «أما أبوه فمن عشيرة كردية تقطن فى نواحى كركوك تسمى الجبارة ، وتدعى هذه العشيرة أنها

---

(١) صديقى الرصافى: للمرحوم الأستاذ طه الراوى. مجلة عالم الغد البغدادية

علوية النسب، ويسلم لها جميع أهالى كردستان بذلك ، فإن صح ادعاؤها فهى عربية الأصل . وأما أمه فمن عشيرة القراغول[1] وهم بطن من شمر القاطنين فى سهول العراق » . وكأنما استكثروا على شاعر العروبة وبلبلها الصداح الذى غذى بلبانها وعاش ببغداد مستقرها ، أن يكون أبوه وأمه غير عربيين .

فلندع حديث النسب والأنساب فما نظن أن فى هذا البحث كبير غناء ، ولا نرى شاعرنا الخالد يعنيه هذا النسب ، ولو كان فى شغل به لشغل نفسه بالتحدث عنه والمباهاة به ولو لذلك الصديق الصادق الذى صحبه أكثر من خمسة وعشرين حولا ونظنه لو وجد فيه سبب فخر لفخر به وباهى الناس الذين يحتفلون بذلك احتفالا كبيرا . ولما قال: «أبي امرؤ جده الأعلى أبو البشر» وإنما الذى يعنيه أنه شاعر العراق وشاعر العروبة بلسانها المستقيم وخواطرها وعواطفها وآلامها وآمالها :

عهدتك شاعر العرب المجيدا ... فمالك لا تطارحنا النشيدا ؟
فنحن إليك بالأسماع نصغى ... فهل لك أن تفيد فنستفيدا ؟
بشعر لا تزال تنوط منه ... بجيد بدائع الدنيا عقودا
إذا أنشدته الحسناء تاهت ... كأن قلدتها دراً فريداً ..
وأنت إذا قرعت به عبيداً ... رددت إلى الحرار به العبيدا
ولو تستنهض الجبناء يوماً ... به لتقحموا الدنيا أسودا
ولو كررته للقوم ألفا ... لأقسم سامعوه بأن تعيدا

---

(١) يصعب الجزم بأن هناك عشيرة تسمى «القراغول» وهى من أفخاذ شمرو فى قضاء الشطرة فى متصرفية المنتفك عشيرة تدعى القراقول لا تفرق عن عشائر المنتفك فى شيء الا أنهم يقولون بأنهم تحدروا من أصول غير عربية .

(العلامة الشبيبى)

هذه مفخرة الشاعر وتلك معجزته، التى يتباهى بها غـــير منتحل نسبا ، ولا مدع أبا .

وهؤلاء الذين أجهدوا أنفسهم فى نسبة الشاعر، أو نسبة أبيه وأمه إلى قبيلتين عربيتين، لم يدلونا على الوقت الذى انتجعت فيه هذه الأسرة بغداد من موطنها الأصلى : بين كركوك وجمجمال فى بلاد الكرد (كردستان) .

ولم نعرف شيئا عن أبيه أكثر من أن اسمه «عبد الغنى» من قبيلة عربية أو كردية، على الخلاف الذى رأيت، وأنه كان رجلا رقيق الحال. أما أمه التى صحبت الشاعر حياته الأولى فامرأة عربية من عشيرة القراغول وهى بطن من شمر ، متوسطة الحال ، ولكنها عريقة الأصل ، كريمة المحتد .

نشأ الرصافى فى بيت جده فى بغداد فى دار قديمة الطراز قديمة البناء فى محلة من محلات بغداد ، تدعى محلة القراغول ، وكانت له فى هذه الدار غرفة صغيرة مظلمة، تسمى بلغة عامة بغداد «كفشكان» ، وكان لإقامته فى تلك الغرفة أثر بعيد فى ميل شاعرنا إلى العزلة عن لداته ، فلم يشركهم فى لعبته أو تسليته على الرغم من ولوعه بالعبث ولوعا كان من أثره أن فقد إحدى أصابعه حين كان يعبث ببعض الأدوات الحديدية .

ولم تكن هذه العزلة عن لداته من صبيان الحى فحسب ، بل تجاوزتها إلى الانقباض عن أهله وعشيرته الذين كانوا يعاشرونه ويساكنونه، ويحنون عليه إذا استثنينا أمه التى تعلق بها تعلقا ما عليه مزيد وبكاها أمر البكاء بعد وفاتها.

٣

وترعرع الرصافى فى حجر أمه ،وكان من الطبيعى لمن فى مثل حال الرصافى من رقة الحال أن يطمح أو يطمح له ذووه إلى طرق باب التعلم التماسا لما يجره العلم من الرزق وفتح أبواب العيش .

ولابد لرواد العلم أو رواد العيش إذ ذاك من أن يسلكوا أحد نهجين، لا ثالث لهما :

أما النهج الأول وهو السائد إذ ذاك فى أكثر بلاد العربيةفهو تعلم العلوم الدينية، فالأزهر فى مصر قبلة القاصدين من المصريين وإخوانهم المسلمين فى سائر أرجاء المعمورة، وفى العراق مسجد النجف الأشرف، ومدرسةالإمام أبي حنيفة، وإلى جانب هذين المنهلين حلقات للدرس فى مساجد بغداد الكبرى، أو فى منازل المقتدرين من جلة العلماء، والشبه قريب بين مايدرس فى الأزهر، ومايدرس فى هذه المساجد والمعاهد. ومادة الثقافةفىهذهالمعاهد إسلامية عربية تتناول العلوم الشرعية من فقه وتفسير وحديث، وما يتصل بها من علوم المنطق والكلام وإلى جانب هذه العلوم الدينية العلوم اللسانية من نحو وصرف وبلاغة وعروض وأدب، وإلىهاتينالمجموعتين قدر لايذكر من العلوم الكونية.

ومصير المتخرج فى هذه العلوم، هو مصير أشياخه : يتصدر للتدريس ويؤمه الطلاب، ويجرى عليه رزق من وزارة الأوقاف إذا أسندت إليه الإمامة والخطابة فى أحد مساجد العراق.

أما النهج الآخر فدراسة لاتمت إلى السابقة بصلة، فقد أنشأ مدحت باشا والى العراق العثمانى (١٨٦٨) — وكان رجل إصلاح أينما حل يجذب اليه قلوب الناس بما يسدى للبلد الذى يتولاه من العناية والأخذ بيده إلىالنهوض حتى لقد اتهمته الدولة العثمانية بسبب هذا التقرب إلى من يليهم بأنه يطمع أن يكون له بالعراق ما كان لمحمد على باشا فىمصر — أنشأهذا المصلحالكبير — فيما أنشأ — عدة معاهد للتعليم كالمدرسةالرشدية العسكرية.والرشديةالملكية والحميدية. والصناعات، ومدرسة للضباط. واللغة التركية هى لغة التعلم فى أكثر هذه المدارس. وأهم هذه المدارس شأنا ومستقبلا المدارس العسكرية التى تهيء طلابها لتولى وظائف الدولة، والتدرب على أعمال القيادة وفنون

القتال ، وكثيرا ما يكون لمتخرجيها حظ الإيفاد إلى مقر الخلافة فى الاستانة وقد عصف الزمان،وأودى الإهمال بهذه المعاهد إلا المدرسة الرشدية العسكرية.

لم يكن أمام الرصافى إلا سلوك أحد النهجين ، فسار يتخبط فى حيرة واضطراب. يسير فى الطريق الأولى ولا يكاد يصل إلى غايتها ، ثم الثانية ولكنه يخفق فيضطر إلى العود إلى ما انتهى عنه !

ومن الطبيعى أن هذا التردد ليس من ورائه إلا الفشل الذريع والوقوف دون الغاية ، فلم يكن الرصافى بسبب هذه الدراسة فقيها فى الشريعة،ولا أستاذا للغة يتصدر مجالسها ، ولم يكن موظفا يتسنم الوظائف العامة أو يقود الجيوش

أرسلته أمه فى سن مبكرة إلى أحد كتاتيب بغداد فظل به إلى أن أتم حفظ آيات الكتاب الكريم ، وتعلم مبادىء الكتابة . وغادر الرصافى معهد تعلمه الأول ليلحق بمدرسة ابتدائية . فقضى فيها سنوات ثلاثا حتى أتم الدراسة فيها وحصل على شهادتها ، ولحق بعد ذلك بالمدرسة الرشدية العسكرية ، وهى المدرسة الوحيدة الباقية من آثار الوالى المصلح (مدحت باشا) فى دار السلام . فمكث فيها سنوات ثلاثا وصل فيها إلى الصف الثالث وفى السنة الرابعة لم ينجح فى امتحانها فحمله ذلك على ترك المدرسة ، وكان هذا الإخفاق سببا فى نكوصه عن متابعة الدراسة .

ولقد أضاع الرصافى هذه الفترة من حياته فيما لم يعد له نفسه!

وانسد بهذا الفشل السبيل الثانى، الذى يؤهل للوظيفة العامة . والراتب المغرى ، والجاه العريض . ولم يفد معروف منه شيئاً فى علمه ولا زيادة فى معرفته . وكان هذا الفشل خيراً للرصافى ولأمته ، وللغتها ولآدابها،فكسب ذكراً وخلوداً، ما كنا نظنه يحلم بهما من وراء الوظيفة العامة والراتب المغرى والجاه العريض.

ولم يكن بد لهذه الشاعرية المستقرة فى قرارة نفسه، والملكة التى وهبها

من تنمية ورعاية ولا سبيل للتنمية والرعاية غير الدرس والتحصيل والتزود من اللغة وآدابها . فأتاحت له الأحوال بعد هذه الجولة التى آب منها بغير جدوى انتجاع بحر لاقرارة له ، يزخر بالعلم والأدب والحكمة هو المرحوم (السيد محمود شكرى الألوسى) ، عالم وابن عالم وحسبك أن تعرف أنه صاحب (بلوغ الأرب) ، وصاحب القرابة القريبة من أبى الثناء شهاب الدين الألوسى صاحب (روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى) فاخذ يرد منهله العذب النمير، واتخذه شيخاً وأستاذاً وهو الذى لقبه بلقبه الخالد (الرصافى) فدرس على يديه مبادىء العربية والفروع ولازمه مدة اثنتى عشرة سنة . كما تتلمذ على غيره من أشياخ ذلك الزمان منهم (الشيخ عباس القصاب) و(الشيخ قاسم القيسى) الذى قرأ عليه كتاب الهداية فى الفقه الحنفى ، وكتاب الولدية فى آداب البحث ، ومن وفاء الرصافى لهذا الأستاذ قصيدته التى بعث بها إليه يذكر فيها هذه التلمذة ويتذكر عهده ، وقد جاء فيها :

إذا قاسم القيسى مر بخاطرى ... تذكرت عهداً فى الصبا مر كالحلم
تذكرته إذ كنت للعلم طالباً ... بفكرى وسعيى مجهد النفس والجسم
فقد كنت أحياناً أزور فناءه ... وأنتابه للرشف من منهل العلم
وكم زرته فى جامع الفضل راجياً ... شفاء لما فى مدنف الفهم من سقم
إذا جئته يوما تثلت كنانتى ... فثقف منها كل ما اعوج من سهم
وعدت صحيح الفهم منه قد انجلت ... بلقياه عنى غمة الغرم بالغنم
هو العالم الحبر الذى من يلذ به ... يكن فائزاً بالعلم والأدب الجم
بما شاء فى التوضيح من واقد الذكا ... وماشاء فى التقرير من صادق الحكم
بقية أعلام مضوا وكفى به ... من العلم طوداً فوق أطواده الشم
له نظر فى غامض العلم نافذ ... ورأى سديد لايحوم على الوهم
إذا ما نحا فى العلم قتل عويصة ... رماها بسهم من فطانته مصم

* * *

نماه أبوه الشيخ أحمد للعلا فبورك فى الآباء من والد شهم
فقد كان فرداً كابنه فى ذكائه فجاء ابنه قرما تولد من قرم
وكان بتقسيم المواريث بارعاً ينيف بها رأيا على ثاقب النجم
فيا رمسه اهنأ بالذى أنت رامس سقاك السحاب الجون بالوابل السجم

وقد أثبتنا هذه القصيدة تأكيداً لتلمذة الرصافى لهذا الشيخ وقد جحد ذلك بعض الناس.

ويقول الرصافى عن نفسه.

«حبب إلى فى بدء دراستى العربية التبسط فى فهم الشواهد وشروحها وتذوق مافيها من بلاغة فكنت أحفظ الشاهد وما يسبقه ومايلحقه من أبيات فاجتمع فى حقيبتى وفى حافظتى منها شىء كثير، وعندها كنت أحاول أن أنظم الشعر محاكياً ومحاذيا فقرضت الشعر وسنى دون السادسة عشرة فاجتمع عندى منه طائفة صالحة. وقد كان القريض يأخذمن وقتى الشىء الكثير»[١].

وكان لهذا الذى يورده معروف عن نفسه أثره البعيد فى تنمية استعداده وتقوية شاعريته بإمداده بزاد لغوى كما سنفصل ذلك فى موضعه من دراسة شعره إن شاء الله.

ولكنا نقول الآن إن هذه الدراسة قد هيأت له معرفة كاملة باللغة، وإلماما بغريبها، ونحوها وصرفها وبلاغتها وأدبها. واستطاع الرصافى بهذا القدر من الثقافة وما وهب من حدة الذهن وصفاء الطبع أن يكون أستاذاً فذاً فى العربية فى أكثر من معهد من المعاهد العالية.

---

(١) «صديق الرصافى» للمرحوم طه الراوى. عالم الغد البغدادية. العدد التاسع من السنة الأولى.

٤

وفى أثناء هذا الجد فى الدرس والتحصيل وقرض الشعر الذى كان يحتاج منه إلى وقت غير قليل ، كان الرصافى فى حاجة ملحة إلى المال يستعين به على الحياة ويتقوى به على متابعة الدرس وينهض بأعباء نفسه ومن يعنى به من ذوى قرابته وهو الأبى الذى يعاف أن يمد يده . إذن فليعمل ليكسب من العمل ما يحفظ ماء وجهه من أن يراق وهو القائل :

لاتشك للناس يوماً عسرة الحال ... وإن أدامتك فى هم وبلبال
وجانب اليأس واسلك للرجا طرقاً ... فالدهر مابين إدبار وإقبال
واركب على صهوات الجد مغترباً ... فيما تحاول ذا حل وترحال
واطلب على عزة بيض الأنوق ولا ... تطلب لعمرك أن تحظى بمفضال
لم يبق غير الذى غلت أنامله ... إما بأغلال شح أو بإقلال

وأقرب الأعمال وأيسرها على مثل الشاعر بهذا القدر من الثقافة الذى حصله ، مهنة التدريس فامتهنها فى بعض المدارس الرسمية الابتدائية فى بغداد وكان يتقاضى على هذا راتبا ضئيلا ، ولكن الأمل بدأ يرسل وميضاً على حياة هذا الشاب الذى بدأ يستقبل الحياة .. فقد خلت وظيفة التدريس فى قضاء (مندلى) [١] ورأت الحكومة أن يكون أساس التعيين التفوق فى امتحان مسابقة يجرى بين الراغبين فى هذه الوظيفة وكان عددهم أحد عشر رجلاً أحدهم معروف الرصافى ، وقد كتب له الفوز والغلبة على سائر المتقدمين .فكان هذا أول فوز يظفر به الشاعر فى حياته ويفتح له أبواب الأمل ولكن لم يكد يتمتع باقتطاف ثمار هذا الفوز حتى رغب إليه مدير معارف بغداد بإيعاز من واليها

---

(١) قضاء من أقضية لواء بغداد « والقضاء » فى العراق مثل « المركز » فى مصر « واللواء » فى العراق هو « المديرية » « والمحافظة » فى مصر.

(نامق باشا) التركى أن يتنازل عن التدريس فى القضاء المذكور على أن يعتاض عنه تدريس آداب اللغة العربية فى المدرسة الإعدادية الرسمية فى بغداد براتب لا يقل عن راتب التدريس فى القضاء المذكور، وإن السبب الذى من طلب اليه من أجله الاستعاضة عن هذه الوظيفة بتلك غير معلوم. فقبل ذلك وبقى فى عاصمة العراق يقوم بتدريس العربية فى المدرسة المذكورة إلى إعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ م (١)

ولقد كان الرصافى مدرسا ناجحاً، بعلمه وشخصه: مهيباً من طلابه، محببا إليهم وهذا أحد تلاميذه (٢) يقول عنه:

«إنى أذكر الرصافى الذى كان أول مدرس تلقيت عنه اللغة العربية فى الإعدادية الملكية قبل التحاقى بمعهد الطب فى الآستانة، أذكر فيه اتزانه ووقاره والله لقد كان التلميذ منا يفرق لطلعته وهيبته، ويشعر بالاحترام والطاعة، ويستجمع شتات أفكاره، ليصغى ويسمع، وقد ظلت حلاوة ألفاظ الرصافى بعد هذا العهد الطويل تتمثل لى فى مختلف أدوار حياتى، وإنها تتجدد الآن، فكأنها قيلت اليوم»

٥

فى هذه الأثناء كان الرصافى يقرض الشعر الرصين، ويبعث به إلى أمهات الصحف فى العراق وسائر البلاد العربية، فنشر كثير من شعره السياسى والاجتماعى فى صحف مصر وسوريا، ولاسيما صحيفتى المقتبس والمؤيد،

---

(١) روفائيل بطى «الأدب العصرى فى العراق العربى» المطبعة السلفية — مصر ١٩٢٣ ج ١ ص ٧٠

(٢) هو معالى الدكتور ابراهيم عاكف الالوسى وزير المعارف العراقية الاسبق.

فطوف ذكر الرصافى فى بلاد العربية وشرق وغرب وذاع صيته ، واعترف له الفضلاء بالفضل ، والأدباء بالإجادة .

كان بين العرب والترك أخوة يرفرف فوقها علم الإسلام ولكن غلبت على بعض الترك العنصرية فغلبوها على سياستهم وأساء بعضهم إلى العرب فهبوا ينتقصونهم وظهرت بوادر الفتنة ومبادىء الشقاق والتفرقة ، وقامت بعض الصحف التركية تزيد الفتنة اضطراماً ، وصادف أن زار القسطنطينية (السيد رشيد رضا) فهاله ما رأى من انقسام الرأى وبواكير التفسخ وهو من دعاة الوحدة الإسلامية فأنذر بالكارثة ولكن القوم لم يصيخوا له وكان أكثر رجال الصحافة تعنتاً وتعصباً وكراهية للعرب (أحمـــد جودت) صاحب جريدة (إقدام) التركية فقد نال من العرب وتطاول على مجدهم ، وعلى رجالهم فقام جماعة من المخلصين للعروبة ، فأهانوا صاحبها كما أهان عروبتهم ، وذهب جماعة من الممثلين للعرب فى مجلس المبعوثان العثمانى إلى الصدر الأعظم ، وشكوا إليه تجنى الجريدة وصاحبها فأرضاهم بتعطيل الجريدة ومصادرتها ، ولم يلبث صاحبها أن أعاد إصدارها بعنوان جديد واعتذر إلى العرب عما كان منه ، وأراد أن يبرىء نفسه من سوء النية فأعلن عزمه على إصدار جريدة عربية تشيد بذكر العرب وتقرب الهوة بينهم وبين الترك فأرسل إلى معروف الرصافى يطلب إليه الشخوص إلى تركيا للمساهمة معه فى إصدار هذه الجريدة فغر الرصافى بهذه الدعوة وخدعه الوعـــد الخلاب فلبى الدعوة وأسرع إلى القسطنطينية ، يحدوه الأمل فى خدمة أمته والإشادة بمجدها ولكن خاب فأله إذ وجد أن (أحمد جودت) لم يكن صادق الرغبة فيما وعد فبقى الرصافى هناك لا عمل له وشهد كثيراً من الأحداث التاريخية التى اعتورت نظم الحكم فى تركيا مما سنشير اليه فى بحث « شعره السياسى » .

وفى هذه الأثناء اتصل بأحرار الانقلاب الدستورى وأيدهم وأخذ ينافح

جهاراً عن مبادىء العدالة والحرية، ثم قصد إلى سلانيك وبقى فيها شهراً ثم قفل راجعاً إلى القسطنطينية وسافر منها إلى بغداد . وفى طريق عودته أعوزته نفقات السفر ، وهو فى بيروت فابتاع مجموعة شعره (محمد جمال) صاحب المكتبة الأهلية — وقد نظم هذه المجموعة وجمعها العالم الأديب (محي الدين الخياط) فى ديوان أصدرته المطبعة المذكورة باسم (ديوان الرصافى) وعاد إلى بغداد ،وقبل أن يستقر به المقام فيها وصلته برقية من إخوانه العرب الذين تركهم فى القسطنطينية ومنهم (فهمى المدرس) و (جميل صدقى الزهاوى) وغيرهما يستحثونه على العودة إلى قاعدة الدولة فى تركيا بعد أن يسروا له سبيل التحرير فى جريدة عربية اسمها (سبيل الرشاد) وكان يصدرها هناك (عبد الله مبعوث آيدين) فلبى الرصافى الدعوة ، وتسلم وظيفته الجديدة ، وظل يحرر فيها نحو سنة وإلى جانب هذا العمل الخطير كان يقوم بالتدريس فى المدرسة الملكية العالية، يدرس العربية فيها ويدرس آدابها فى مدرسة الواعظين التابعة لوزارة الأوقاف . وقد طبعت محاضرات الرصافى التى ألقاها فى هذه المدرسة عن الخطابة عند العرب فى كتاب طبع فى تركية بعنوان (نفح الطيب فى الخطابة والخطيب) كما أن مجلة المنتدى الأدبى نشرت بعض محاضراته هناك فى الأدب والشعر . وقد بقى الرصافى مدرساً وصحفياً حتى انتخب سنة ١٩١٢ مندوباً عن (المنتفق) فى المجلس النيابى العثمانى، وقد عرض عليه رئيس الاتحاديين ،وكان الرصافى اتحادى النزعة إذ ذاك النيابة عن بغداد أو غيرها فأبى الرصافى قائلا: إن هناك من أشراف بغداد ورجالها من هو أحق بها منه. ورضى أن يكون نائباً عن الناصرية (المنتفق) فتم له ما أراد .فأصبح من نواب المبعوثان وبقى فى الآستانه طيلة الحرب العظمى الأولى وكان يساكنه السيد عبيد الله آيدين الذى عرض عليه الزواج لتهيئة أسباب الراحة والاستقرار لزميله الرصافى ولإبعاده عن مواطن الريب والشبهات فتزوج ثيباً من نساء أزمير شقيقة ضابط متقاعد يدرس فى المدرسة الحربية العسكرية ، فبنى بها وسكن فى بيته

صغير وكانت عقيما فلم تنجب ولدا . وقد طلقها معروف، وهو فى تركية لغير سبب معروف، مدعيا أن دخله لا يساعده على القيام بأعباء أسرة ينفق عليها ويكترى لها بيتا ،هذا هو السبب الذى ذكره الرصافى لخاصة أصدقائه. ولكنه طلقها برضى منها بعد أن عزم على الرجوع إلى بغداد وكان راتبه من التقاعد الذى يتقاضاه من حكومة العراق ثمانية عشر ديناراً فى الشهر . والواقع أن الرصافى كان رجلا لا يقوى على تحمل المسؤليات ولو أراد الولد لكان له مندوحة فى التزوج من غير هذه الزوجة العقيم (١) .

كان الرصافى يلبس العمامة فى تركية، ولكنه طالما ضاق ذرعاً بهذا الرمز الدينى، وهو المتحلل من التزمت والتوقر ، فأراد أن يجارى المجتمع بالخروج من هذا المظهر الذى يحد من حريته فخرج للناس فى ثوب جديد إذترك العمامة التى كانت تشعره بالهرم قبل أوانه وتمنعه من أن يخوض مع الناس كالذى خاضوا ، وذلك ما كان يميل إليه وطالما صرح به فقد سافر مع صديق له من الضباط الأتراك إلى سلانيك وكان رجال الشرطة إذ ذاك يطاردون ذوى العمائم الذين كانوا يشجعون الناس على الثورة وشق عصا الطاعة، وقد غاب عنه الضابط قليلا والرصافى فى انتظار عودته ، وإذا رجال الشرطة يقبضون على معروف ويقودونه إلى مخفر قريب ظناً منهم أنه أحد المشاغبين وقد عدّ الرصافى هذه الحادثة من جناية العمامة عليه ، وما هى إلا فترة وجيزة حتى

---

(١) إن ما سقناه عن زواج الرصافى وطلاقه زوجته هو ما استقيناه مما وقع تحت أيدينا من المصادر ، ومايعرفه أكثر الناس ، ولكن معالى الشبيبى (حفظه الله) أنبأنا أن الرصافى أسر اليه حين عودته إلى العراق بعد الحرب العامة الأولى أن له زوجا فى تركيا وأنه يحن إلى العودة إلى تركيا ليلتقى زوجه ، وعلى هذا يجوز أن يكون الطلاق قد وقع بعد هذا الحديث الذى سبقت الاشارة إليه (المؤلف).

خلع الرصافي ما كان عليه من ثياب وغطاء وارتدى ثيابا عصرية ولبس طربوشا وقبض على عصا مفضضة قصيرة، كان شباب الأتراك يحملونها للزينة إذ ذاك .

وقد كان معروف بذلك راضياً مسروراً فرأى نفسه من رجال العصر في فكره وبزته ، واندمج بين الناس ليؤدى رسالته فى خدمة العروبة وتناسى ما كان فى بدايته من مظهر دينى فخاض فى الذى خاضوا وأم المجتمعات وصار رجلا جديداً فى كل شيء . وكثيرا ما خاض فى السياسة وهاجم الجامدين من رجال الدين وقد ظل الرصافى فى تركية حتى فتح الانكليز العراق ، ووضعت الحرب أوزارها فغادرها إلى الشام وأقام فيها حيناً غير سعيد ذاق فيه ألم الحرمان بما عرف عنه من الإباء والترفع ؛ فلم يسعد بما سعد به غيره من المنصب والجاه والعطاء فى عهد حكومتها العربية .

ولم يطل به هذا الألم إذ استدعى إلى بيت المقدس ليقوم لتدريس الآداب العربية فى دار المعلمين، فغادر الشام وابتسمت له الحياة ولقى من التكريم والتقدير فى فلسطين ما هو أهل له ،وقد سجل الرصافى فى شعره عتبه على الشام مالقى فى أرضها مما خيب أمله لولا أن فلسطين فتحت ذراعيها لإيوائه قال :

فليت سورية الوطفاء مزنتها عن العراق وعن واديه تغنينى
قد كان فى الشام للأيام مذ زمن ذنب محته الليالى فى فلسطين
إذا كان فيها (النشاشيبي) يسعفنى وكنت فيها خليلا (للسكاكينى)
وكان فيها (ابن جبر) لايقصر فى جبر انكسار غريب الدار محزون

٦

ولما قامت الحكومة الوطنية الموقته فى العراق سنة ١٩٢١ دعى الرصافى إلى وطنه ليساهم بعقله وفضله وجهاده فى نهضة وطنه فلبى الدعوة واستقبل فى وطنه استقبالا رائعا فخاض فى السياسة عنيفاً ثم اعتزلها .

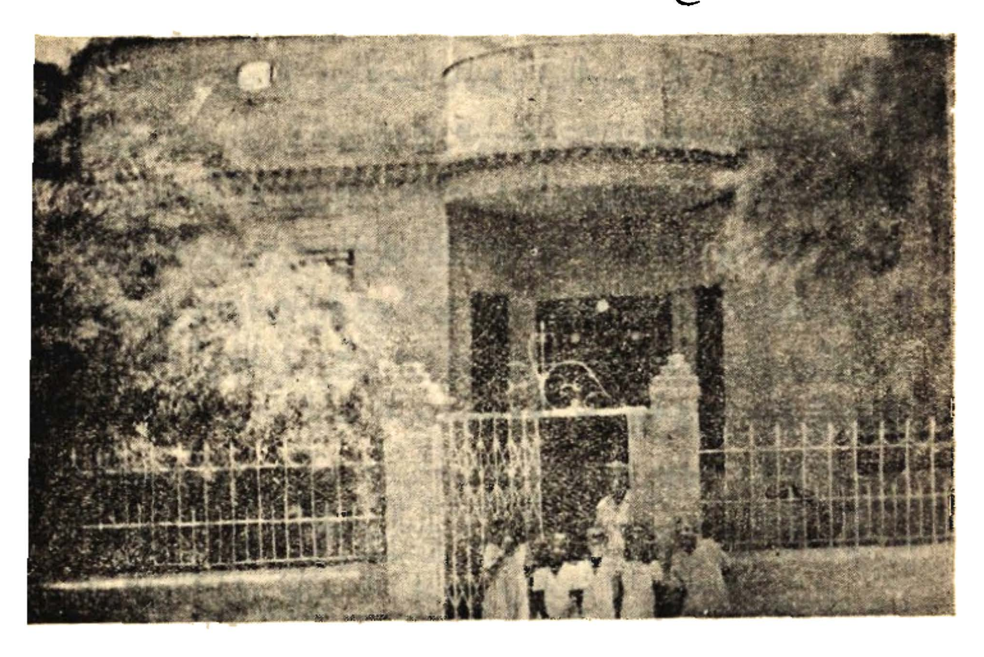
وبعد أن انتهى دور الحكومة الموقتة وذلك على أثر دعوة المجلس التأسيسى الذى سن دستور العراق الحالى وغير ذلك من القوانين الأساسية ، وقد عين فى الدستور نظام الحكم فى العراق ، وحدد مسؤلية الحكومات أمام المجالس التشريعية إلى غير ذلك من الأصول المدونة فى الدستور العراقى ، فمال الرصافى فى هذا الدور إلى وظائف الدولة وقد استفادت وزارة المعارف من اختصاصه فى العربية وآدابها فعين مفتشا للغة العربية لأول مرة ، وذلك حينما تقلد منصب وزارة المعارف صاحب المعالى الأستاذ رضا الشبيبى وذلك سنة ١٩٢٤ وكان رئيس الوزارة فى هذا الوقت السيد ياسين الهاشمى السياسى العراقى المشهور .

وقام الرصافى فى وظيفة هذه بجولات فى شمال العراق وجنوبه لتفتيش المدارس وله فى هذا الباب تقارير مفيدة وظل حتى سنة ١٩٢٩ يعتزل التفتيش والتعليم حينا ويعود إليه حينا آخر حتى كانت آخر وظيفة تولاها تدريس الأدب العربى فى دار المعلمين العالية فى بغداد وقد طبعت محاضراته التى ألقاها على طلابه فيها فى كتاب سماه (دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية) .

وعقب اعتزاله التعليم أصدر جريدة يومية اسمها (الأمل) ولكنها احتجبت بعد مدة قصيرة ، وسافر فى أثناء ذلك إلى بيروت مرتين مؤثراً الهجرة عن وطنه على مقاساته آلام الحرمان فيه ولكن لا يلبث الشوق أن يدعوه إلى بلده الذى أحبه ووفى له

وفى سنة ١٩٣٠ انتخب نائبا عن الأمة فى المجلس النيابى العراقى الذى عرضت عليه المعاهدة الانكليزية ، فكان الرصافى من معارضيها وأعيد انتخابه فى ذلك المجلس مرة أخرى وأعيد انتخابه مرة ثالثة سنة ١٩٣٧ وكان قد غادر العاصمة إلى الفلوجة منذ سنة ١٩٣٣ ، واتخذها دار إقامة ، فقدم له صديقه الحميم (السيد عبد العزيز آل عريم) دارا جميلة تطل على الفرات ومن حولها حديقة جميلة وقد بقى هناك موفور الكرامة ينتجعه أهل الأدب والمعجبون به فى أنحاء العراق . وهنا لك ألف كتابه (الشخصية المحمدية) أو حل اللغز المقدس

وفى منتصف سنة ١٩٤١، غادر الرصافى الفلوجـــة إلى بغداد فسكن دارا فى الأعظمية فى شارع رحب جميل .



(المنزل الذى قضى فيه الرصافى أخريات أيامه فى الأعظمية من ضواحى بغداد)

وكانت هذه الفترة من حياته مضطربة يصل إليه المال الكثير فلا يلبث أن يتلفه ويبقى سائر أيامه جائعاً ، حتى لقد مرض مرضاً سببه هذه الفاقة ، فرثت ثيابه وأحاطت به المصائب إلا أن كل ذلك لم يفقد الرجل عزته وإباءه

وسمع سيد من سراة القوم هـو السيد (مظهر الشاوى) بما يعانى أديب العراق فأخذته النخوة العربية فبادر إلى إسعافه وإعانته وأغدق عليه الأموال والكسا ، واستبدل بعصاه النخرة عصا جديدة من الأبانوس زينها الصاغة وصاغوا لها مقبضا بالفضة مطعما بالذهب عـــلى شكل حية فشكره الرصافى بقصيدة نسجلها :

أنا شيخ وذى عصاى فتيه　　قد أتتنى من مظهر لى هديه
صاغة الصابئين قد ألبسوها　　حلية ذات صنعة عبقريه
وشحوها من مظهر بكلام　　معرب عن مودة أخويه
فسأمشى بها قويا سويا　　بعد ما كنت ماشيا كالحنيه
وستبقى الذكرى بها لإخاء　　موثق بالوشائج الأدبيه
شرف قد أفادنيه إخائى　　لكريم من أسرة حميريه

وعاد هذا المحسن الكبير إلى إظهار الشاعر بما هو أهله من المنزلة فى قومه فأهداه سيارة يستعين بها على التنقل ، ولكن الرصافى قد أبى هذا الفضل لأنه لا يجد نفسه فى كبير حاجة إليه وقد كتب إليه شاكراً ومعتذرا عن قبول هذه العطية السخية ، وزاد الشاوى فى تفضله فأمر بإجراء راتب شهرى قدره أربعون ديناراً على الرصافى يقبضها كل شهر مادام حيا وأقر على نفسه أمام كاتب العدل أن هذه الهبة باقية ماعاش فإن مات لزمت ورثته كما كان هنالك شهم أبى هو فخامة (السيد حكمت سليمان) الذى تعهد الشاعر خير تعهد وشاركه فى هذا التفضل أخوه (السيد خالد سليمان) رحمه الله . وظل الرصافى على هذه الحالة حتى فاضت روحه الكريمة يوم الجمعة ١٦ آذار سنة ١٩٤٥ .

* * *

توفى وحيدا فى هذه الدار التى كان يسكنها فى الأعظمية من ضواحى بغداد مع خادمه (عبد بن صالح) الذى لزمه أمدا غير قصير وكانت تربط الرصافى بهذا الخادم الوفى والتابع الصفى روابط العطف والحنان وكانت منزلته من سيده منزلة الابن من أبيه . والرصافى هو الذى زوجه فأعقب بنات وظل عبد على الوفاء لأبيه الروحى والولاء لمولاه حتى النفس الأخير ، وإنك لتقرأ الوصية التى كتبها الرصافى بخط يده فلا ترى إلا إشادة بهذا الخادم الأمين الذى أوصى له بكل ماخلف . وماذا خلف الرصافى ؟

خلف عصارة ذهنه وسلافة عبقريته فى سطوره وكتبه وهو ينصح بنشرها ، إذا لم تمد له الحياة فى حبلها، وأن يكون ريعها لهذا الخادم الذى شجعه الرصافى



وقتلُ الرَّدَى قتلَ جبارٌ فلم تكنْ ... لِتدْرِكَ فيه ثأرَها نفسُ ثائرِ

(الرصافى)

على الزواج والإنجاب ، وحمل نفسه أثر هذا الوزر ، وألقى عليها تبعة هذه الجناية فهو يكفر عن ذنبه بهذه الوصية بهذه الآثار وليس لدى الرصافى شىء أثمن من هذه الآثار .

اخلاقه

وكيفَ يُصبحُ مِن دنياهُ في دَعةٍ
مَن باتَ في نَفسه الآمالُ تزدحمُ؟
(الرصافى)

١

نشأ الرصافى على ما قدمنا هذه النشأة المتقلبة التى لا تكاد تستقر : سواء فى ذلك حياته التعلمية بين كتاب ، ومدرسة رسمية ، ومدرسة عسكرية ، ودراسة دينية ، وحياته العملية أو التعليمية والصحفية فى تركية وفلسطين وفى بلده ومسقط رأسه العراق .

فهى حياة ملأى بالمغامرات التى لامبعث لها إلاهيام الشاعر بالحرية والطلاقة ، وكأنه خشى فى كل مرحلة فى هذه المراحل الحافلة أن يتحكم فيه العمل، وتقيده العادة فيحد ذلك من حريته ، ويأسره فى قيود قوانينه ونظمه وهو الحر الطليق الذى لايعترف بعالم السدود والقيود .

فالخلق المتميز فى الشاعر هو تعشقه للحرية وكان هذا الخلق وحده هو الذى اختط له سبيل المجد وفتح له أبواب النبوغ وهو القائل : . .

إذا لم يعش حراً بموطنه الفتى فسم الفتى ميتا وموطنه قبرا
أحريتى إنى اتخـــذتك قبلة أوجه وجهى كل يوم لها عشرا
وأمسك فيها الركن مستلما له وفى ركنها استبدلت بالحجر الحجرا
إذا كنت فى قفر تخذتك مؤنسا وإن كنت فى ليل جعلتك لى بدرا
وإن نابنى خطب ضممتك لاثما فقبلت منك الصدر والنحر والثغرا
وإن لامنى قوم عليك فإننى لملتمس للقوم فى جهلهم عذرا

٢

وثمة صفة اتصف بها وما أجدره بها وهو الإنسان والشاعر المرهف الحس الرقيق الشعور الحاد العاطفة . وهى صفة إنسانية وفضيلة نفسية طبع عليها وهي خلق الوفاء. والمظهر العام لهذا الخلق البارز والصفة المتميزة له وفاؤه لوطنه الأكبر وطن العروبة التي ينمي إليها ويحيا فى كنفها ، ووفاؤه لوطنه العراق الذى أظلته سماؤه ، ورواه ماؤه ، وغذته أرضه ونماؤه ، وحسبنا هنا التلميح والإشارة فسنعرض لذلك عرضا وافيا حين دراسة شعره .

هذا هو المظهر العام لهذا الخلق البارز عند الرصافي . أما مظاهره الخاصة فلانزال محتاجين إلى التدليل عليها فهذا وفاؤه لأمه يحدثنا عنه صديقه الحميم [1] فيقول : « زرته ذات مرة فى بيته فلمحت على وجهه أمارات الانفعال وآثار الدموع فلم أكتم عنه مالمحت فقال لى: سمعت قينة إلى جوار منزلى هذا، تغنى غناء شجياً أذكرنى البيت الذى كنت أعيش فيه ، وعلى الأخص أمي التى كانت تحنو على حنوا ما عليه من مزيد . وقد كانت تتعهدنى بالعناية جسما وروحا ، فتعني بنظافة ثيابى وجسمى ، وتسألنى عما كنت أقرأ فى الكتاب والمدرسة. وكانت - رحمها الله - لايقرلها قرار حتي ترانى إلى جنبها ، ولا أزال أذكرلها اهتمامها بمطعمى وملبسى وكل ما يدور حول تهذيبى وتعليمى .. ومهما تطاولت بى الأيام فانى لاأزال أذكر عيشتى تلك معها وأحن إليها .. ولما رجعت إلى بغداد بعد طول الغيبة , وقد انتقلت إلى جوار ربها .. لم أقو على رؤية البيت الذى كنا نعيش فيه ، بل لم أستطع سلوك الطريق الذى يتصل به ».

ويؤكد هذا الوفاء لأمه تلك المحاولة التى حاولها أحد أقاربه ليبتز منه ما يستطيع من المال فلم يجد وسيلة توصله إلى غايته إلا أن يأتيه (من نقطة الضعف)

---

(١) هو المرحوم العلامة الأستاذ طه الراوي .

التي يعرفها فيه وهي حبه لأمه فزعم له أن قبرها متهدم وأنه في حاجة الى الإصلاح فنقده الرصافي كل ما كان يملك من المال ليقوم بهذا الواجب المقدس نحو أمه التي أحبها في حياتها و بكاها بعد وفاتها .

ثم وفاؤه لهذا الخادم الذي وفى له فقد جعله الرصافي شريكه في حظه وقسيمه في رزقه ، وقد قام الرصافي دونه باحتمال أعباء الحياة وفعل معه مالا يفعل كثير من الآباء مع أبنائهم فقد رعاه وزوجه ورزق بنات ، ولدن في كنفه ونشأن في منزله وصارت أسرة تعمر الدار ، وعميد هذه الأسرة وربها المسئول معروف وحده . وتلك عاطفة ما نظنها اتخذت هذا المظهر في أحد بني آدم ، كما ضمن لهذا الخادم و بناته الرزق ما استطاع بما أوصى به من كتبه ومخطوطاته ليكون ريعها راتبا يجري عليهن بعد وفاته .

هذا هو الوفاء ، وهذه هي الإنسانية الكاملة ، تتجلى في الشاعر البائس الذي وهب نفسه للبائسين ووهب شعره وشاعريته ، وهؤلاء هم ملهموه أغر قصائده، وأروع شعره كما ستري ، وهو القائل :

من ليس يبكيه من أبناء جلدته بكاؤهم فهو من جنس التماسيح !

* * *

وسنجتزيء الآن بإثبات هذا الجزء من وصية الرصافي الخالدة لترى قدر العناية من السيد الأبي ، بخادمه الوفي :

(. . بما أن عبد بن صالح الذي هو معاوني على العيش في مسكني ، كنت أنا السبب في زواجه، وقد ولد له بنات صغار ، وليس له من أسباب المعيشة والكسب ، مايجعله قادراً على إعاشتهن ، أرجو من أهل الخير في الدنيا ومن أصدقائي الكرام الأحرار ، أن يسعوا في إيجاد شغل له يكسب به مايقوم بإعاشتهن ، وإن الله تعالى لا يضيع أجر المحسنين .

كل ماعندى من الكتب المخطوطة ، التى كتبتها أنا ، تباع لمن يرغب فى شرائها ، على أن يكون له حق الطبع والنشر ، ولا يكون لى فيها سوى الاسم ويدفع المال الحاصل من بيعها إلى بنات عبد ..)



(جموع الشعب العراقى تشيع الشاعر الأكبر إلى مثواه الأخير فوفت له كما وفى لها)

أما وفاء الرصافى لأساتذته واشادته بذكرهم، وقيامه بشكرهم، على ما أوردوه من موارد المعرفة فحدث عنه وأطنب ولا حرج . ومن كبار أساتذته الذين مدحهم ووفى لهم بما قاموا به نحوه من رعاية (السيد محمود شكرى الألوسى) وقد رثاه الرصافى بعد وفاته بأكثر من مرثية من خير شعره ، ومن قوله فيه مما تلمح فيه أثر الفجيعة فى قصيدته التى سماها (واشيخاه !)

إذا ذكرناك يوما فى محافلنا ... قمنا لذكراك تعظيما وإجلالا
إنى أخف لدى ذكراك مضطربا ... وإن حملت من الأحزان أثقالا

لأشكرنك يا (شكرى) مدى عمرى ... وأبكينك أبكاراً وآصالا
فأنت أنت الذى لقنتنى حكما ... بها اكتسيت من الآداب سربالا
أوجرتنى من فنون العلم أودية ... شفت من الجهل داء كان قتالا
فصح عقلى وقبلا كنت مشتكيا ... من علة الجهل أوجاعا وأوجالا
أنا المقصر عن نعماك أشكرها ... ولو ملأت عليك الدهر إعوالا
فاغفر عليك سلام الله ما طلعت ... شمس وماضاء بدر الليل أولالا

ومن صور وفائه لأساتذته كذلك تلك الأبيات العاطفية العذبة التى بعث بها إلى أستاذه الشيخ (قاسم القيسى) ، وقد سبقت .

٣

وثمة سمة ثالثة اتسم بها الشاعر، وهى اعتزازه بنفسه اعتزازا يدل عليه شممه وترفعه عن المواربة طمعا فى مغنم أو دفعاً لمغرم ، وكانت هذه الصفة وما تفرع عنها من الصفات سببا من أهم الأسباب فى نفور الناس عنه إذ هو يحاسبهم فى غير أناة على مايفرط منهم مما يراه ماسا كرامته أو ينال من شخصيته .

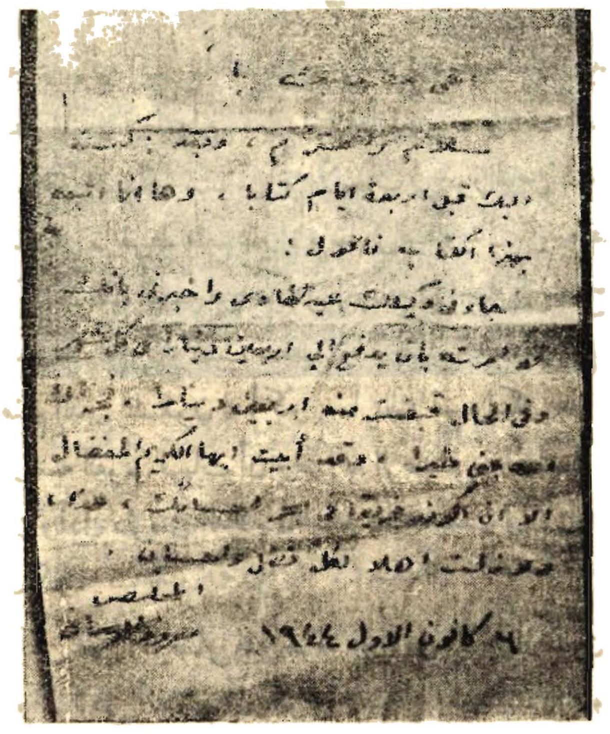
كما كانت هذه السمة من عوامل إخفاقه فى الحياة التى تحتاج إلى شيء من محاولة استرضاء الناس وكسب عطفهم والاحتيال لجلب مودتهم، ولاسيما أولى الأمر منهم الذين يملكون له أكثر مما يملك لهم ولكن هذا وإن جرت به العادة ورضيه القوم فهيهات أن يرضى به الرصافى . ولعله لو صانع مع المصانعين وأدلى دلوه فى الدلاء لما امتنع عليه منصب وإن سما وما تأبى عليه مال وإن كثر.

ولم يكن جزاء الرصافى غير جزاء غيره من الأحرار الذين تشبثوا بأذيال الحرية وآلوا على أنفسهم أن يكونوا ضحايا وشهداء ، فقاسوا قسوة الزمن وأشربوا نغب التهمام أنفاساً .

٤

وكان جديراً بالرصافي وقد نشأ في هـذه الأسرة الرقيقة الحال المحدودة الموارد من جهة ، وعاني ما عاني في بعض فترات حياته من ألوان الحرمان من جهة أخرى أن يكون حريصا على ما تصل إليه يداه من مال يستعين به على حرب الأيام إذا ما صارحته بالعداء أو ليساعده هذا الحرص على الاحتفاظ بالإباء ، وهو الخلق الذي تمكن منه وجرى في عروقه مع دماء الحياة .

ولـكن الشاعر الحر لم يقم لما كسب — وإن كثر ما كسب — وزناً . فلم يعرف عنه حرص ولم يعهد عليه ميل إلى الادخار وإنما كان ينفق كل ما وصل إلى يديه وإنه لـكثير .



٦ كانون الاول ١٩٤٤

(صورة كتاب الرصافي إلى السيد مظهر الشاوي ينبئه فيه بتسلمه راتبه الشهري الذي أجراه عليه ومقداره أربعون دينارا)

حتى لقد أعوزته الدراهم وهو فى الشام ، فلم يستطع العودة إلى العراق بعد رحيله من تركيا ، بعد مجد فى الصحافة ومجد فى التدريس ، ومجد فى التمثيل النيابى . ودخل ليس بالقليل ، ويضطر الشاعر لبيع نفثات قلمه ، وجواهر شعره ، وهى كل مايملك فيبيعها سلعة نافقة فى سوق الأدب بعد جهد ومساومة .

وإن بدا على الرصافى فى أخريات أيامه شىء من الحرص فلم يكن ذلك حرصاً وإنما كان اضطراراً لرعاية خادمه وبناته الكثيرات اللاتى شأن فى كنفه وتحت ظلاله مما أشرنا إليه حين عرضنا لصفة الوفاء فيه .

٥

ولم يحرم الرصافى نفسه شيئاً من لذائذ الدنيا ومتعها فنهز مع الغواة ، وأسام سرح اللهو حيث أساموا ، وهو الذى لم يكون بيتاً يأوى اليه ولم يبق على زوج سكن إليها ولم يعقب غلاما ولا جارية .

كان له أن يعوض عما أفقده الزمن إياه فى مجالس الأنس ، ومعاقرة الكأس ولهو برىء ، وغير برىء ! . قال يخاطب نفسه الأمارة بالسوء :

نهيتك عن هواك فما انتهيت ولكن قد فعلت كما اشتهيت
فيا نفسى عن الشهوات كفى فأنت عليك يا نفسى جنيت
وما أمارة بالسوء يوما سعت فى المنكرات كما سعيت

٦

ومن أخلاق الرصافى التطرف ، ترى هذا الخلق فى آرائه السياسية تصريحا فى قوله :

سأقول فيها ما أقول ولم أخف من أن يقولوا شاعر متطرف !

ويتطرف فى معاقرة الخمر ، فيسرع إليه السكر ، فبينه وبينه خمس دقائق :

إذا ماعقدنا مجلس الأنس بالطلا فبينى وبين السكر خمس دقائق :

أقوم إلى كبرى الزجاجات مدهقا بمستقطر من خالص التمر رائق
فأقرع بالكأس الروية جبهتى بشرب كما عب القطا متلاحق

ويتطرف فى سخطه كما يتطرف فى رضاه ، كما يتطرف فى اعتقاده ولقد كان هذا التطرف من أشر ما منى به الرصافى .



(الرصافى بالصدارة لباس الرأس العراقى)

عقيدته

على أنّ لي في معرض الشكّ رَبصة
وَرُبَّ يقـــينٍ ناله المتربصُ

(الرصافي)

ولا بد لنا أن نعرض لعقيدة الشاعر التي شغل بها كثير من رجال العلم والأدب، ولاسيما في أيامه الأخيرة، وأصبحت حديث الأندية والصحافة حتى حار الناس في أمره فمنهم من نسبه للإيمان، ومنهم من ضمه إلى جماعة الزنادقة والملاحدة، فاختلف الناس في عقيدته اختلافهم في فيلسوف المعرة (أبي العلاء).

١

ولكي نساير هذه العقيدة منذ نشأتها، ونعرف ما اعتورها في سائر حياة الشاعر علينا أن نسجل بيتين، نظمهما الشاعر ونقف عندهما وقفة، لأنهما المرحلة الوسطى، أو الحد الفاصل بين نظرتين: أولاهما إيمان وتسليم، وثانيتهما نظرة حيرة وتردد فيما بدأ من الإيمان والتسليم، وهذان البيتان:

لقنت في عهد الشباب حقائقا   في الدين تقصر دونها الأفهام
ثم انقضى عصر الشباب وطيشه   فاذا الحقائق كلها أوهام

يسجل الشاعر في البيتين إيمانه الذي لقنه في منزله على يد أمه. ومن يلوذ به من أسرته وهو إيمان تقليدي، اعتقده الشاعر لا عن بصيرة وتفهم، ولكنه إيمان لا فضل لعقله فيه. وتدين كسبه بالوراثة ولا أثر لتفكره في كسبه،

وشب الشاعر فتلقى هذا الإيمان عن أشياخه الذين رسخوه فى قلبه ، وثبتوه بما استطاعوا من أدلة العقل والنقل .

ومضى الشباب ، زمن التعلم والتلقى والتلقين ، فإذا هو يجد هذه الحقائق أوهاما ، ويجد أن ما كسبه فى حاجة إلى التثبت وإعادة النظر .

وإلى هنا لاضير على الشاعر فإنا لانجد طعنا صريحا فى دينه وعقيدته ، وهو إذ يقول ذلك يصور مرحلة التردد والشك ولكنه لم يصرح بنقض هذه العقيدة وإحلال ما ارتضى من العقائد محلها على أن هذه الحقائق التى أشار اليها الرصافى لم يوضحها ، ولسنا ندرى إن كان الشاعر يريد أصول العقيدة أم إنه يرمى إلى نقد مافى البيئة التى يعيش فيها من الترهات والأباطيل والخرافات ، التى غشت الناس فى أعقاب الفترة المظلمة ، فجعلتهم يزاولون هذه الخرافات ويحسبون أن لها أساساً من الدين والعقيدة ، فجعلوها حقائق ، وهى أوهام؟

وهذه الحيرة هى أول مراحل اليقين الذى سيجد الشاعر فى تحقيق أسبابه ، ليدلنا على هذه الحقيقة التى اهتدى إليها ورضيها واطمأن إلى اعتناقها :

على أن لى فى معرض الشك ربصةً ورب يقين ناله المتربص

ونعود إلى البيتين لنرى حظ الشاعر من الجد فى هذه المقالة ، فهو يقول إنه لقن هذه الحقائق الدينية فى عصر شبابه . وعصر الشباب هو عصر القوة وعصر الفتوة فى الجسم والعقل ، ولو قال الشاعر إنه لقن هذه الحقائق فى عصر الطفولة لكان له عذر فيما ذهب إليه من القسر والإكراه ، بدل الشباب الذى هو عهد الطواعية والاختيار .

على أن وصفه عهد الشباب بالخفة والطيش لايكاد يلتئم مع الإيمان الذى لقنه إذ التلقين يستلزم الهوادة والاستسلام لاالطيش ولا النزق اللذين رمى الشاعر بهما نفسه فنحن أمام اضطراب وتناقض وكأن الشاعر كان يريد أن يقول فلم يقل شيئا ، ولم يأت بجديد بل هى محاولة الهدم الذى لم يقم على أساسه بناء جديداً.

وعندى ما منى به الشاعر من إدمان القراءة والاسراف فى الاطلاع هو الذى زج به فى هذا المضيق الوعر ولا سيما فى هذا العصر الذى فتن فيه الناس ببعد الصيت وذيوع الشهرة فكان التشكك سلاحهم الذى صبوا به إلى هذه الغاية حتى يعدهم الناس فى المفكرين وأولى الرأى ، ولكنهم سرعان مايعودون الى هذه (الحقائق الوهمية) بعد أن يقضوا وطرهم ويسموا إلى غايتهم ولا يعجزنا فيما نذهب إليه دليل ، ولا يعوزنا تمثيل بأقطاب العلم والأدب فى عصرنا الذى نعيش فيه .

٢

نشر الرصافى « رسائل التعليقات » وهى ثلاث رسائل كتبها تعليقا على ثلاثة كتب أصدرها بعض الكتاب فى السنوات الأخيرة وهى وإن كانت مختلفة الموضوعات ، فإنها تجمعها جامعة واحدة وهى الجامعة التاريخية . تبحث الرسالة الأولى فى الرد على بعض ماجاء فى كتاب « التصوف الاسلامى » الذى ألفه الدكتور زكى مبارك ، وتبحث الثانية فى الرد على بعض ماجاء فى كتاب (النثر الفنى) للمؤلف نفسه ، أما الرسالة الثالثة فقد تناولت الرد على بعض ما ذكره المستشرق الطليانى « لثونا كايتانى » فى كتابه التاريخ الاسلامى [1]

والجزء الأول من هذه الرسائل هو أخطرها شأنا ، وهو الذى تناول فيه مسائل الدين الإسلامى جميعا ومعتقدات المسلمين كلها ، وتأولها التأول الذى ارتآه .

وأهم ما حلا له وأحلى ما أهمه القول (بوحدة الوجود) عند متأخرى المتصوفة وفلاسفة الإسلام القائلين بالكشف وفيما وراء الحس : يريدون أنه

---

(١) مقدمة رسائل فى التعليقات بقلم الشاعر نعمان ماهر الكنعانى .

تعالى الموجود المطلق وأن غيره لا يتصف بالوجود أصلا حتى إذا قالوا ، (الإنسان موجود) فمعناه أن له تعلقا بالوجود وهو الله تعالى .

ومن أقوالهم فى ذلك: (إن جميع العوالم كلها على اختلاف أجناسها وأنواعها وأشخاصها موجودة من العدم بوجود الله تعالى لا بنفسها محفوظ عليها الوجود فى كل لمحة بوجوده تعالى لا بنفسها وإذا كانت كذلك فوجودها الذى هى به موجودة فى كل هو وجود الله تعالى لا وجود آخر .

فالعوالم كلها معدومة من جهة نفسها (بعدمها الأصلى) وأما من جهة وجود الله تعالى فقط فوجودة وجودها الذى هى به موجودة ، وجود واحد هو وجود الله تعالى فقط ، ولا وجود لها من جهة نفسها .

إن الوجود الحق عين ذات الحق تعالى وهو وجود واحد ، لا ينقسم ولا يتبعض ولا يتجزأ ولا ينتقل ولا يتغير ، ولا يتبدل أصلا ، وهو مطلق عن الكيفيات ، والكميات ، والأماكن والأزمان والجهات ولا يتصور فيه الحلول فى شيء ، إذ ليس معه شيء سواه وإنما جميع الأشياء موجودة بوجوده الذى هو عين ذاته)[١] .

وهم يسمون هذا وأشباهه (علم الحقيقة) وأشار اليه الإمام الغزالى حيث قال :

(العارفون بعد العروج على سماء الحقيقة اتفقوا على أنهم لم يروا فى الوجود إلا الواحد الحق ، واستهوت عقولهم الفردية ، فصاروا كالمبهوتين فيه ، ولم يبق فيه متسع لذكر غير الله . ولا لذكر أنفسهم أيضا ، فسكروا سكرا وقع دونه سلطان عقولهم ، فقال بعضهم (أنا الحق) وقال الآخر

---

(١) الاستاذ محمود البشبيشى فى مذكراته فى علم الكلام نقلا عن الشيخ عبدالغنى النابلسى من كتابه (ايضاح المقصود فى معنى وحدة الوجود)

(سبحانى) وقال غيره : (مافى الجبة غيرالله) فلما خف عنهم سكرهم ، وردوا إلى سلطان العقل ، عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد ، بل يشبه الاتحاد مثل قول العاشق :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان سكنا بدنا
فاذا أبصرتنى أبصرته   وإذا أبصرته أبصرتنا

ومن أعلام القائلين بوحدة الوجود (محيي الدين بن عربي) و (ابن الفارض) و (أبو مدين التلمسانى) الذى عبر عن المذهب وأدلته فى هذا الشعر :

الله قل وذر الوجود وما حوى   إن كنت مرتادا بلوغ كمال
فالكل دون الله إن (حققته)   عدم على التفصيل والإجمال
واعلم بأنك والعوالم كلها   لولاه فى محو وفى اضمحلال
من لاوجود لذاته من ذاته   فوجوده لولاه عين محال
والعارفون فنوا به لم يشهدوا   شيئاً سوى المتكبر المتعالى
ورأوا سواه على الحقيقة هالكا   فى الحال والماضى والاستقبال

والرصافى يرى التصوف مذهبا فلسفيا، ويرى القائلين بمثل ماسبق من الأقوال فلاسفة مفكرين لا عبادا متزهدين ، وإن بدا عليهم شىء من الزهادة فتلك وسيلة لتصفية الفكر ، وإعداده لفهم هذا المذهب واعتناقه أعنى مذهب وحدة الوجود ، ويقول فى ذلك (إذا قلنا التصوف فلانعنى به سوى مذهب وحدة الوجود المبنى على أساس التفكير الحر المقترن بصفاء النفس وإذا قلنا الصوفية فلا نعنى بهم أهل الخانقاه والتكية ، ولا هؤلاء الدراويش من لابسى الصوف والمرقعات ولاهؤلاء المشعوذين من حاملى الدبابيس وضاربى الدفوف وناطحى الجدران بالرءوس . . . وإنما نعنى بهم رجالا من المسلمين أولى الأفكار الحرة والنفوس الزكية الطاهرة القائلين بوحدة الوجود)[1]

(١) رسائل التعليقات ص ٤٦

ومع إصابة الرصافى لحدما مافى قوله الأخير إلا أننا يجب أن تتذكر كما يقول جولد زيهر (لايمكن عد الصوفية مذهبا منظما فى الإسلام له نظام واحد بل ظهر بأشكال مختلفة ، ولمؤسسى الطرائق الصوفية أثر فى هذا التباين)[١]

والرصافى حين يقول بهذا الرأى وهو وحدة الوجود يقول : (ليس حديثى هذا بالمرجم ولا اعتقادى بالمتوهم ، فقد اتضح لى كالشمس فى رأد الضحا أن محمداً « رسول الله » جاء بحقيقتين ناصعتين : إحداهما وحدة الإله والثانية وحدة الوجود . أما الأولى فقد قالها بمنطوق العبارة ، لكى يحرر بها الناس من كل عبودية لغير الله وهى : «لاإله إلاالله» ، وأما الثانية فقد قالها بمفهوم العبارة لكى يوصل بها أولى المواهب الفطرية العالية إلى الكمال النفسى الذى لايتم إلا بمعرفة الله ، وهى « لاموجود إلا الله »)[٢] ويأخذ الرصافى فى عرض جملة من آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ويؤولها بمايوافق هذا المذهب ويؤيده ، وقد يجمح به القلم فى التماس هذا التأييد .

هذه هى وحدة الوجود وهذا هو المذهب الذى دافع عنه الرصافى فى تعليقاته .

وقد أثارت هذه التعليقات ثائرة جمهور المسلمين فى بلاد العربية ولغطت به الصحف والمجلات وقتاً غير قصير ولم يعدم الرصافى مؤيدين يذهبون إلى أن يقول كل إنسان ماشاء ويعتقد مايشاء ويرون أن تعقب أمثال الرصافى فيما ذهب إليه إنما هو حجر على العقل وقتل للمواهب ووأد للحرية فى العقيدة والقول فى القرن العشرين ومعارضين أشفقوا على المؤمنين أن تؤثر مثل هذه الأقوال فى معتقداتهم ولقد اقتحم الرصافى بين هؤلاء وهؤلاء ميدان الجدل فما شفى غلة ولا نقع صدى .

---

(١) الدكتور عبد العزيز الدورى فى محاضرته التى ألقاها فى نادى القلم العراقى عقيب ظهور رسائل التعليقات . (٢) رسائل التعليقات : ص ١٢

ولكنه كما قلنا قرأ ، وقرأ كثيراً وتأثر تأثراً ليس كثيرا بما قرأ، يدلنا على قلة هذا الأثر فى عقله وعقيدته أنه كان وقتيا لم يلبث أن تبخر مع الأوهام وعادت الحقيقة الراسخة إلى موطنها من قلبه وعقله .

٣

والرصافى مع إيمانه بالبعث لا يؤمن بالصفة التى قيل إن الإنسان يبعث عليها، ويرى أن البعث من المغيبات التى يكتفى فى الإيمان بها بالنقل إذ لا مجال للعقل فى إدراك الصورة التى يبعث عليها الإنسان .

والإيمان بالبعث عند الرصافى مع ذلك معقول مقبول : (لأن الغاية المقصودة منه هى اعتقاد المؤمن بيوم الدين الذى هو يوم الحساب والجزاء ، ذلك اليوم الذى فيه يجازى المحسن ويعاقب المسيء ، ولا ريب أن الإنسان إذا كان مؤمنا بيوم الدين إيمانا صادقا ، اجتنب الشرور وكف عن العدوان ، وبذل الجهد فى الأعمال الصالحة ، وهذا هو كل ما تريده جميع الأديان فى كتبها السماوية ، وجميع الحكومات فى قوانينها الأرضية ، وعليه فلا مرية فى أن الإيمان بالبعث يكون من أهم الوسائل المؤدية إلى السعادة فى الحياة الدنيا لأن المؤمن بيوم الجزاء يستحيل عليه عقلا وعادة أن يرتكب الشرور وأن يعمل غير الصالحات . ومتى كان كذلك كان صالحاً للحياة الاجتماعية فى الدنيا بكل ما اشتملت عليه من حقوق وواجبات

وتالله إنى لا أرى فى الوسائل العلمية والأدبية وسيلة تؤدى إلى إصلاح الإنسان فى حياته الاجتماعية أنفع ولا أنجع ولا أروع من إيمانه بيوم الجزاء المترتب على إيمانه بالبعث ولا ريب أن الفضل كله فى ذلك راجع إلى دين الإسلام القائل بالبعث دون غيره من الأديان)

هذا ما قاله الرصافى فى رسائل التعليقات عن كل هذه المعانى السامية وأنت ترى أنه غلب الغاية الاجتماعية، ولا شك أن من جملة الغايات الكبرى التى

ترمى إليها الأديان المنزلة صلاح المجتمع وإزالة أسباب الفوضى والاعتداء فيه .

أما مسألة بعث الموتى بأرواحهم وأجسادهم ، فرأيه أنه عقيدة قائمة على الإيمان الصرف ، وليس للعقل فيها مجال ، ولا يخفى أن الإيمان بالغيب يتسع لأكبر منه وأبعد ، ومما لا غناء فيه إقامة الأدلة العقلية على أمور لا تقوم إلا بالإيمان فى جميع الأديان ، وليس الدين فى بعض نواحية إلا إيمانا بالغيب كما جاء فى القرآن الكريم : (الذين يؤمنون بالغيب) فالإيمان بالغيب هو من أسس الأديان كلها . وعقول البشر عاجزة عن إدراك بعث الموتى من قبورهم شعثا غبراً ينفضون التراب عن رءوسهم .

هذه آراء الرصافى استقيناها مما كتبها بخط يده ، ولعل فى هذه الأقوال الضافية الصريحة ، ما يزيل كل لبس وغموض فى إيمان الرجل وعقيدته ، مع ماعرفناه من عدم رضاه بغير إيمان من ورائه عقل يؤيده ، وفكر يشد أزره ويعاضده .

٤

وقد ولع الرصافى ولوعا شديداً بحكيم المعرة وفيلسوفها (أبى العلاء) وكتابه (فى سجن أبى العلاء) يرينا هذا الولوع والإعجاب ، فقد نصب نفسه للدفاع عن أبى العلاء ورد الكيد عن إيمانه ، وشرح أفكاره . وتحبيذ نظرياته .

وغير خفى أن هذا الولوع ، وهذا الإعجاب دعا جماعة من الناس إلى تتبعه وتعقبه فى كل ما يكتب ، والذهاب بكلماته إلى غير ما يقصد منها ، فمن ذلك المحاورة الخيالية بين أبى العلاء وبينه [1] (وقد ذكرت له « للمعرى » أحد العظماء من البشر بما أوتى من سؤود وشرف فقال لى منغضاً رأسه ومغضيا عينه :

---

(١) رسائل التعليقات

وأشرف من ترى فى الناس قدراً   يعيش الدهر عبد فم وفرج

فهاج عليه من هاج من الناس وثاروا ووجدوا فى هذه الرواية الخيالية مطمعاً يشبعون منه نهمهم فرأوا أنه يقصد بقوله (أحد العظماء) محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولم يطق الرصافى صبرا على هذه الفرية فدحضها عند من يهمهم التثبت من أمر طويته، وحقيقة عقيدته، واتهم مبتدعيها بمرض نفوسهم وعمه بصائرهم، ورد بأنه يرى أن العظماء من البشر إنما هم عظماء بالنسبة إلى سائر الناس، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما هو عظيم بالنسبة إلى عظماء البشر لا بالنسبة إلى سائر الناس، وأن هذا الرأى فى رسول الله لم يقله الآن بل هو مدون فى كتابه منذ أكثر من عشر سنين. فلو كان يقصده فى هذه المحاوره الخيالية لما قال أحد عظماء البشر [1]

ثم هو يؤكد لكل من يدرك معنى صحيحاً للشرف فى ذهنه، سواء اتصف به أم لم يتصف، أنه فى هذه المحاورة الخيالية عند ما قال (أحد العظماء) لم يخطر على باله، ولم يدر فى خلده أى شخص معين من البشر، لا من الأولين ولا من الآخرين، وإنما جل مقصوده، هو أن يذكر لأبى العلاء هذا البيت الناطق بحقيقة، لا يمترى فيها كل من عرف نفسه أنه من عباد الله.

ويرى بعد كل هذا أن أبا العلاء لم يأت فى هذا البيت بشىء من عنده، وأنما أخذ هذا المعنى من الحديث النبوى المشهور (إنما يسعى المرء لغاريه: بطنه وفرجه [2]).

ذلك مارد به الرصافى كيد معارضيه، ودحض به حجة الذين كانوا

---

(١) من رسالة خاصة بعث بها الرصافى إلى أحد خاصة أصحابه فى (١٨-٢-١٩٤٤) نشرتها مجلة (الوادى) البغدادية ص ٧ العدد ٦ السنة ٧ الصادر يوم السبت (٢٣ آذار سنة ١٩٤٦).

(٢) المصدر السابق.

يتسقطون كلمات تصدر عنه ، ثم يؤولونها تأويلا يرضونه ولا يرضاه الرصافى .

ولقد كان ماطبع عليه الشاعر من الاعتزاز بنفسه ، والاعتداد برأيه هو الذى جعله يقتفى مقتفيه بالرد والإيضاح ، ودحض مايعرض من شبه فى شعره وفى آرائه ، رده نثرا كما رأيت ، ورده شعرا فى هذه الأبيات :

أيا بغداد لاجازتك سحب ولا حلت بساحتك الجدوب
تطاول ساكنوك على ظلما فضاق علىّ مغناك الرحيب
وكم نطقوا بألسنه حداد يسيل بها من الأشداق حوب
رمانى القوم بالإلحاد جهلا وقالوا عنده شك مريب

وهكذا يعد هذه الحملات عليه ظلما وحوبا ، وعلل لذلك بجهلهم ، وغرقهم فى بحور الضلال والخرافات ، ثم ينكر عليهم معرفة طويته وهم المحجوبون عن الغيب ، ثم يقول إن له موقفا معهم أمام الله ، ويعلن إيمانه صريحا بأن الله مطلع رقيب :

ألا ياقوم سوف يجد جدى وسوف يخيب منكم من يخيب
فمن ذا منكم قد شق قلبى؟ وهل كشفت لكم فى الغيوب؟
فعند الله لى معكم وقوف إذا بلغت حنا جرها القلوب
يقينى شر فريتكم يقينى بأن الله مطلع رقيب

٥

ولعلنا بعد كل ماأوردناه لانجد أنفسنا فى حاجة إلى تعمق كثير فى حقيقة طوية الشاعر ومعتقده ، فقد كفانا مئونة البحث وأغنانا عن تتبع النصوص الواردة فى شعره أو فى نثره ، ولو فعلنا ذلك لوجدنا كثيرا من الأبيات التى لايلتئم ظاهر معناها مع صدق الإيمان وصحة العقيدة .

فمن ذلك قصيدته التى سماها (حقيقة السلبية)[1] وفى وصفه هذه الحقيقة

---

(١) ديوان الرصافى ص ٢٠

بالسلب مايؤيد قولنا آنفا من أنه وقف موقف المتشكك الذي يريد أن ينقض الحقائق التي أخذها بالتلقين فوقف منها هذا الموقف السلبي :

أحب صراحتي قولا وفعلا وأكره أن أميل إلى الرياء
فما خادعت من أحد بأمر ولا أضمرت حسوا فى ارتغاء
ولست من الذين يرون خيرا بإبقاء الحقيقة فى الخفاء

وهذه الأبيات وما يليها أكبر الظن بالرصافى أنه أنشدها فى حال ثورة نفسية عنيفة على العقائد ورجال الدين الذين لم يرقه إذ ذاك ما كانوا يفعلون أو لعل الرصافى وقد ولع بأبى العلاء ولوعا شديدا اقتفاه فى تسجيل جميع خطراته فجاءت مزيجا من متضاربات ومتناقضات .

وآخر ما قرأنا للشاعر وصيته . وفيها القول الفصل والله تواب رحيم وقد أثبتنا الوصية كاملة ، وسترى فيها ما يثبت إيمانه بالله ورسوله إيمانا لا يتطرق إليه الريب ولا يتسرب إليه الشك .

وصية الرصافى

١

إلى إخوانى الكرام

أراهم يهيجون علي العوام باسم الدين، وما أظنهم يتركوننى حتى بعد موتى فى الحياة وليس لى من ألتجئ اليه سوى الله وكفى بالله حافظا وحسيبا، وليس لى من الاقارب من أعهد اليهم بوصيتى سوى معارفى من الاصدقاء الاحرار من أهل البلاد، فلذا اكتب هذا اليهم عسى ان يقوموا بتنفيذه ولهم من الله الاجر.

كل ما كتبته من نظم ونثر، لم اجعل هدفى منه منفعتى الشخصية، وانما قصدت به منفعة المجتمع الذى عشت فيه، والقوم الذين انا منهم ونشأت بينهم، فلذا لم اوفق الى شيئ فى حياتى يسمى بالرفاهية والسعادة فى الحياة.

لا املك شيئا سوى فراشى الذى انام فيه، وثيابى التى البسها، وكل ما عدا ذلك من الاثاث الحقير الذى فى مسكنى. ليس لى بل هو مال اهله الذين يساكنوننى.

كل من اعتدى علي فى حياته فهو فى حل منى، وان كان هناك من اعتديت انا عليه فهو بالخيار ان شاء عفا عنى، والا قضى بينى وبينه الله الذى هو احكم الحاكمين.

انا ولله الحمد مسلم مؤمن بالله وبرسوله محمد بن عبد الله ايمانا صادقا لا أرائى فيه ولا اداجى، الا انى اخالف المسلمين فيما أراهم عليه من امور يرونها من الدين، وليست هى منه الا بمنزلة القشور من اللباب، ولا يهمنى من الدين الا جوهره الخالص. وغايته المطلوبة التى هى الوصول الى شيئ من السعادة فى الحياة الدنيوية الاجتماعية والحياة الاخروية ما امكن الوصول اليه من ذلك بترك الشرور وبعمل الصالحات، وكل ما عدا ذلك من امور الدين فهو وسيلة

تفضل معالى السيد كامل الجادرجى فأعارنا هاتين الصورتين عن الأصل الذى كتبه الرصافى بخط يده، فلا يسعنا إلا أن نسجل لمعاليه أجزل الشكر.

وصية الرصافي

٢

اليه ذو الحاجة له ليس الا .

بما ان عبد بن صالح الذي هو معاوني على العيش في مسكني ،
كنت انا السبب في زواجه ، وقد ولد له بنات صغار ، وليس له
من اسباب المعيشة والكسب ما يجعله قادرا على اعاشتهن ، ارجو
من اهل الخير في الدنيا ومن اصدقائي الكرام الاحرار ، ان يسعوا في
ايجاد شغل له يكسب به ما يقوم باعاشتهن . وان الله تعالى لا يضيع
اجر المحسنين .

كل ما عندي من الكتب المخطوطة التي كتبتها انا . تباع لمن يرغب
في شرائها على ان يكون له حق الطبع والنشر . ولا يكون لحد فيها حق الا كم
ويدفع المال الحاصل من بيعها الى بنات عبد .

ادفن في اي مقبرة كانت ، على ان يكون قبري في طرف منها .
وان يكون في ارض مظلومة وهي التي لم تحفر قبلا .

ان كانت الحياة نعمة سابغة من الله على عباده ، فان الموت
رحمة واسعة منه عليهم ، فالموت هو رحمة الله الواسعة التي
وسعت كل شيء ، كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام

المؤمن بالله وحده
لا شريك له
معروف الرصافي

شعره

١

في سبيل الوطن

ألا إنما حرية العيش غادة ... منى كل نفس وصلها ووفودها
يضيء دجنات الحياة جبينها ... وتبدو المعالي حيث أتلع جيدها
لقد واصلت قوماً وخلت وراءها ... أناساً عنى الموت لولا وعودها
وقد مرضت أرواحنا في انتظارها ... فما ضرها ، والهفتا ، لو تعودها؟

(الرصافي)

١

فى العهد العثمانى

• • •

لئن عاش كثير من الشعراء فى هذا العصر، وعاش شعرهم فى الفترة المظلمة، فإن معروفا عاش بشخصه وشعره فى هذا العصر واتخذ من سماته سمات لشعره، فكان طائره الغريد، الذى يردد آياته فى الصباح والمساء، ويرسل ألحانه فى أجواز الفضاء، فاستوحى لحنه من الحياة الجديدة الزاخرة بصنوف التجديد فى الماديات والمعنويات.

بدأ الرصافى حياته فى أخريات القرن التاسع عشر، والشعراء يصدرون عن نزعة واحدة ويوقعون لحنا واحدا على مزهر واحد أصابه البلى. أغراض تافهة لا تمثل حياة الأمة ولا تعبر عن غاياتها وأهدافها التى تصبو إليها من خلع ربقة الاستعباد، والثورة على الأوضاع القائمة والحكام الغاشمين، والثروات المستنزفة والجهل الناشر ألويته على ربوع العراق وغيره من البلاد العربية، والفاقة التى تسود أكثر طبقات الأمة، وتذرهم فى ضلالهم يعمهون. والولاة يفكرون فى كل شىء إلا الاهتمام بما تعانى هذه الأمة البائسة التى أسلمتها الأيام إلى الذل والهوان.

وهنالك طبقة قليلة العدد ولكنها تتمتع بكل ما بالعراق من مال ومنصب وجاه، ورجال هذه الطبقة هم أولو الأمر والنهى وأصحاب الحل والعقد فى البلاد ؛ هم أولئك الولاة والعمال الذين تغدق عليهم تركيا الرواتب والرتب ولكنهم لا يقنعون بها للإنفاق على حاجاتهم، والانصراف إلى ما تستلزمه وظائفهم من العناية والسهر على خدمة الأمة التى وكل إليهم العناية بها

ولكنهم يقضون مدة ولايتهم وعمالتهم فى جمع مال يضمن لهم غنى الحياة إذهم مهددون دائما بخطر الخلع والإبعاد عن المنصب والجاه والمال. وأكثرهم ذكاء وأبعدهم نظراً من يشترى هذا المنصب أو يشترى البقاء فيه، مامدت له الأيام فى حبل البقاء. ولاسبيل إلى هذا الأمل المحبب، إلا إرضاء الباب العالى وما أدراك ما الباب العالى؟ وما السبيل إلى إرضائه؟ أهو الإخلاص للوظيفة، والقيام بمقتضياتها فى السلم، من توفير السعادة فى ربوع البلاد التى يتولونها، وصون الأمن فى ربوعها. ونشر العلم بين ظهرانى سكانها، ورعاية العدالة والإنصاف، وبسط الرغد والرفاه كما تقتضى كل أولئك الإنسانية، وحقوق الولاية، وكما يحتم الدين القويم. الذى يحكمون البلاد باسمه وكما يمليه الواجب الملقى على عاتق هذا الذى يتسنم مقعد رسول الله ومقعد خلفائه الراشدين؟؟

والقيام بمقتضياتها فى الحرب، من إمداد الدولة بالرجال والعتاد إذا دعا داعى الجهاد فى سبيل الدين، ولذود الطامعين، ومنتهكى الحرمات، والعائثين فى الأرض بالفساد؟

ليس كل أولئك، ولاشيئا من أولئك، ولكن هناك وسيلة فريدة يعرفها الراسخون فى علم الولاية، العارفون ما يرضى الباب العالى، وما يغضب الباب العالى!

وقوام تلك الوسيلة، التقدم بالهدايا والألطاف والتحف. وأنى لهؤلاء الولاة بالهدايا والتحف والألطاف؟ إنها ستؤخذ قسراً أو سيؤخذ ثمنها كرهاً من أهل البلاد الذين ليس عليهم إلا الغرم، ولمستعبديهم دونهم الغنم، وليس لأبناء العراق، نصيب من حكم أنفسهم، وهؤلاء الولاة، المستبدون يعيشون عيشة البذخ والإسراف، على حطام الموتى من أبناء البلاد.

وبقية هذه الطبقة القليلة، جماعة قليلة أيضاً، من أبناء البلاد هم أثارة من رجال العلم، وبقية من رجال الدين، وهؤلاء يحظون بقدر محدود، من الحياة

المناسبة بالنسبة ، إلى غيرهم من إخوانهم أبناء العراق .(١)

تلك حال العراق إذ ذاك ، ظلم صارخ ، وفتنة فى الأرض وفساد كبير ، والذين يقال إنهم الشعراء الذين هم لسان أمتهم ، المعبر عن شكاتها ، المطالب بحقها لا تجد أحدهم ، إلا مادحاً والياً ، أو مثنياً على عظيم ، أو متوجعاً من صبابة ، أو واصفاً مجلس لهو تدار عليه فيه ابنة الحان، أو باكياً الدمن والأطلال وهو فى كل ذلك مقلد للسابقين ، تقليداً لا استقلال فيه، وصدى لا حياة فيه . ومن المجلين فى هذه الحلبة عبد الغفار الأخرس ، الذى عرف بمديحه ووصفه وغزله ، فى ثوب تقليدى ، لا أثر فيه للجدة . ولا أثر لأمانى بلاده فيه ثم عبد الباقى العمرى ، الذى عرف بموالاته للولاة ، ومدائحه للخلفاء وآل البيت فى أسلوب بديعى ، يظهر عليه التكلف والصنعة ، ثم محمد سعيد الحبوبى (٢) الذى اشتهر بموشحاته الغنائية ، وشعره الوجدانى ، وكاظم الأزرى ، وحيدر

---

(١) الواقع أن الأتراك لم يرسخ حكمهم إلا فى بعض المدن العراقية الكبرى كبغداد والبصرة والموصل وأما المدن الصغرى والأرياف فكانت الحكومة فيها من قبل زعماء القبائل وبعض الأمراء الاقطاعيين وذلك وفق النظم القبلية ، وقلما استتب الأمن والطمأنينة على عهد الأتراك فى أرياف العراق شمالا وجنوبا حتى أن جباية الضرائب كانت تستدعى فى كل سنة تجهيز حملة عسكرية كبيرة ولا يمكن بدون ذلك استيفاء الضرائب المطلوبة كما أنه لم يكن للغة التركية ولا للأدب التركى شأن يذكر إلا فى بعض المدن الكبيرة المذكورة فكانت العربية لغة الأدب والتعليم داخل البلاد : (العلامة الشبيبى)

(٢) الحبوبى شاعر العشق المطلق والحب الروحى الطاهر ولا يدانيه من معاصريه شاعر فى هذا الشأن ولا فى غير معاصريه فى هذه القرون الأخيرة وقد ترفع بالشعر والأدب إلى المنزلة اللائقة بهما فلم يكن من المادحين إلا فى الاخوانيات ولم يكن من شعراء المناسبات : (العلامة الشبيبى)

الحلى ، ويكاد يكون شعرهما مقصوراً على رثاء الشهداء من آل بيت النبوة الكريم ، مع إغراق فى الصنعة ، وتكلف للبديع .

وبين هذه الأصوات ، صوت خافت ، انطلقت به عقيرة شاعر بدوى هو عبد الحميد الشاوى الحميرى ، يغرد بالعروبة وأمجادها ، وبكاء ما انتهى إليه أمرها من الضعة والهوان ، وهو أعرق فى منزعه البدوى البعيد عن الصناعة وأشبه بالبارودى فى فحولته ، ولعله أسبق شعراء العراق فى عهد الأتراك إلى التغنى بالقومية العربية ، وذكريات أمجادها ، غير أنه كان مقلا ، وصوته كان خافتاً ، فلم يؤثر لاهو ولا غيره من أهل جيله فى الطبقة التى تلتهم [٢] .

ومن هذا يظهر أن شعراء العراق فى القرن الماضى ، لم يفكروا فيما تعانيه أوطانهم من صنوف الاستعباد ، والانحلال السياسى ، وأن واحداً منهم لم يرفع عقيرته ليكون من دعاة حرية وطنه ، وتحطيم قيوده ، والثورة على مستعبديه ، إذا استثنينا هذا الصوت البدوى الخافت الضعيف !

على أن هناك قلبين امتلآ بسالة ، وروحين فاضا حماسة ، ولسانين أرسلا شعر القوة ، فى غير ضعف ولا هوادة .

وأول هذين الصنوين جميل صدقى الزهاوى الشاعر الفيلسوف الذى أرسل الشعر الحر فى عصر لم يعرف الشعراء فيه معنى الحرية ، وهو الذى انطلق بشعر السياسة والحماسة ، يحرض هذه النفوس الذليلة ، المستكينة على الثورة وتحطيم القيود ، وفك الاغلال .

استمع إليه فى هذا التحريض السافر .

لهف نفسى على رفات شباب　　　طحنتهم طحن الرحى النائبات
لو سألت الرفات : ماذا دهاه ؟　　　لاشتكى ظلم الولاة الرفات

---

(١) محمد بهجت الأثرى ـ المدخل فى تاريخ الأدب العربى ص ١٧٨

فوق خد البيض الحسان سطور كتبت بالدموع فيها شكاة
أرهقوكم ذلا وأنتم سكوت أين أين الأحرار ؟ أين الأباة؟

ثم استمع إليه مرة أخرى يخاطب السلطان عبد الحميد وهو فى قاعدة ملكه وعاصمة سلطانه وهو معدود فى رعاياه ، المشمولين برعايته ، الذين يعيشون على ما يصيبونه من تقريبه وبره :

أيامر ظل الله فى أرضه بما نهى الله عنه والرسول المبجل ؟
فيفقر ذا مال وينفى مبرأ ويسجن مظلوما ويسبى ويقتل ؟
تمهل قليلا لا تغظ ، إنه إذا تحرك فيها الغيظ لا تتمهل !
وأيديك إن طالت فلا تغترر بها فإن يد الأيام منهن أطول

هذا لحن جديد يوقع على وتر الوطنية والإحساس بما يكابد الوطن الكليم من صنوف الحيف والعسف . ولكنه لحن القوة التى لا تعرف المواربة ولا تقر المداجاة ولا تعترف بالنفاق .

وثانيهما شاعرنا الرصافى الذى سار مع الزهاوى جنبا لجنب يرددان لحن الألم ويرفعان بشعرهما علم الثورة ، ويشعلان النفوس لتعمل وتعمل ، وتظفر بحقها فى الحياة ، وليصل أصحابها إلى ما وصل إليه غيرهم من سكان المعمورة ، وما كان سكان العراق نسل العرب الأمجاد ، وأبطال الجهاد بأقل من غيرهم استحقاقا للحرية السياسية وحكم أنفسهم بأنفسهم .

عاصر الرصافى عصر الترك فى فترتيه البغيضتين : فترة الاستبداد وفترة الدستور الذى بشر الأمم المحكومة بالعثمانيين بالحرية التامة فلا يبقى للخليفة إلا التبعية الشكلية يبقى منها العرض دون الجوهر والاسم دون الرسم .

وقد يندر أن نجد للرصافى قصيدة مستقلة فى السياسة ، فى الفترة الأولى فلا تجد من شعره ما عالج الانحطاط السياسى فى صراحة وإن كان ذلك لا ينفى أنه عبر فى ثنايا شعره عن انحطاط البلاد فى شئونها العامة نتيجة لعدم الاستقلال

السياسي ، وذلك عجيب من الرصافي أن يقف هذه الوقفة في مطلع حياته وعنفوان شبابه . وماتكاد تشرق على البلاد بارقة الأمل حتى تجد الرصافي في عهد الدستور إنسانا آخر يختلف عن الرصافي قبله ، وفي الأبيات الآتية تجد الانتقام والتشفي من السلطان عبد الحميد . ولكن بعد خلعه !

لقد نقض اليمين وخان منها … فذاق جزاء من نقض اليمينا
وقد كانت به البلدان تشقى … شقاء من تجبره مهينا
فكم أذكى بها نيران ظلم … وكم من أهلها قتل المئينا
وكان يريد من سفه رحاها … بجعجعة ولم يرها طحينا
وقد كانت به الأيام تمضي … شهوراً والشهور مضت سنينا

ثم يستطرد في ذكر الآلام التي عانتها البلاد التي كتب عليها أن تذل للسيادة العثمانية وأن تكابد الشقاء المهين وأن تعاني الظلم الفادح وأن تسفك دماء أبنائها الذين يحاولون أن ينادوا بالحرية والانفكاك من هذه القيود .

ثم يقول إن هذه السنوات العجاف كانت تتثاقل وتتثاقل ، حتى أصبحت الأيام شهورا والشهور غدت سنين . وإليك أبياتا من قصيدة أنشأها عقب خلع السلطان عبد الحميد وإرساله سجينا إلى سلانيك وسماها (وقفة عند يلدز) قال يخاطب القصر :

كنت مأوى العلا مثار الدنايا … مهبط العز مصدر الإذلال
كنت جبا وأي جب عميق … بالعا للنفوس والأموال
مورد الخائنين كنت وكانت … منك تدنى مطامع العمال

إلى أن يقول :

قصر عبد الحميد أنت ولكن … أين ياقصر أين عرش الجلال ؟
أين خاقانك الذي كان يدعى … قاسم الرزق باعث الآجال ؟

ومنها .

قد تخوتنا ثلاثين عاماً … جئت فيها لنا بكل محال

تلك أعوام رفعة للأداني　　تلك أعوام حطة للأعالي
تلك فيما جرت به نقطة سو　　داء تبقى بجبهة الأجيال

ويستطرد الشاعر إلى أن هذه الفترة فترة خلافة عبد الحميد ، كانت عنوانا للعسف الذى لا يعرف شيئا يسمى العدل ، وأنها أرضعت الزمان عاراً ، وسقته شناراً ويصف الوجل الذى حل بالنفوس فحرمها نعمة الأمن والسلامة، فكل حر خائف أن يغتال، وأن تستصفى أمواله وأن تعذب ذراريه ، وأن هذه النفوس التى أعمل فيها القتل والتعذيب قد عرجت إلى السماء وترقت إلى ذؤابة أعلى كوكب جوال ، ثم قذفت شهبا متفجرة فأحرقت هذا الطاغية وصعقته .

كيف ينسى أبناء البلاد هذه الخطوب التى أحفظت النفوس وأحقدت القلوب ؟

يوم كنا وكان للجهل حكم　　خاذل كل عالم مفضال
آمر من عتوه كل أمر　　يغرس البغض فى قلوب الرجال

فالفساد الذى تسلط على النفوس والكراهية التى تمكنت فى قلوب الناس فقطعت بينهم أواصر الأخوة وهدمت دعائم الوطنية إنما بعث كل ذلك الجور والجهل . فلم يبق للدين من حرمة ولم ترع للعلماء ذمة ومصير كل حكم قائم على مثل ذلك الانحلال والتردى والسقوط والزوال .

ولا يظنن ظان أن الرصافى حين يذكر عبد الحميد الخليفة المخلوع يعنى فرداً وإنما يعنى نظاماً قام على هذه الأسس من الطغيان وما جر إليه من الفوضى والآلام ، [و]ان خلفاء العثمانيين وساستهم جميعا أمثال لهذا الجبار العنيد :

ليس عبد الحميد فرداً ولكن　　كم لعبد الحميد من أمثال !

وهذه قصيدة أخرى دعاها (تنبيه النيام) لا يذكر فيها عبد الحميد ولا غيره من سلاطين آل عثمان بل ينحى فيها باللائمة على البلاد وساكنيها ويرميهم

بالخور وضعف الهمة والتفكك وانقسام الرأي مما أطمع فيها المحتل الغشوم :

أما آن أن يغشى البلاد سعودها ويذهب عن هذي النيام هجودها؟
متى يتأتى فى القلوب انتباهها فينجاب عنها رينها وجمودها؟

ويصرح بحاجة بلاده إلى زعيم باسل ليقف سعى الذئب فى حماها بالفساد .

أما أسد يحمى البلاد غضنفر فقد عاث فيها بالمظالم سيدها

ومثل هذا المعنى ما صرح به فى قصيدة أخرى عنوانها (إيقاظ الرقود) وإنك لترى الشبه قويا بين العنوانين غير أن الأولى يغلب عليها الطابع السياسى والثانية الطابع الاجتماعى . قال مخاطبا بغداد :

تتابعت الخطوب عليك تترى وبدل منك حلو العيش مرا
فهلا تنجبين فتى أغرا ؟ أراك عقمت لاتلدين حرا
وكنت لمثله أزكى ولود

ونعود إلى القصيدة السابقة لترى الرصافى يلقى التبعات الثقال على أبناء أمته المتقاعسين عن العمل للتخلص من هذا الأسر الذى طرح بلادهم فى غياهب أولئك الحكام القساة، وهو يعجب لاستكانتهم أمام هذه الموبقات التى يجترحها الولاة واتقاؤهم شر الدولة ، وهم الذين يمدونها بالرجال والأموال وأبناء البلاد يكلفون من أمرهم رهقا والحر الأبى منهم ذليل مهين مردود عن قصده بالفشل والخيبة ولا ذنب له إلا أنه من دعاة حرية وطنه :

برئت إلى الأحرار من شر أمة أسيرة حكام ثقال قيودها
عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها وأموالها منهم ومنهم جنودها
إذا وليت أمر العباد طغاتها وساد على القوم الدراة مسودها
وأصبح حر النفس فى كل وجهة يرد مهانا عن سبيل يريدها

وصارت لئام الناس تعلو كرامها — وعاب لبيدا فى النشيد بليدها
فما أنت إلا أيها الموت نعمة — يعز على أهل الحفاظ جحودها

ثم يعود الرصافى إلى التغنى بالحريه التى عبدها واستعبدته وشبهها بغادة خود تتمنى كل نفس وصلها ، وشبهها بالشمس التى تضىء دجنات الحياة وأنها واصلت قوما فسعدوا بها وذاقو لذة وصالها ، وصدت عن آخرين فتعست حالهم ولولا أثارة من الأمل يتعللون بها من وعودها العرقوبية لآثروا الموت على الحياة .

ويعود إلى بنى وطنه فيعجب أشد العجب على صبرهم على البلايا وتصبرهم على الرزايا مع أن الهوان آدهم وآذاهم ولو حملته الجبال لأثقلها حمله . وآدها ثقله ويستفزهم بهذه التشبيهات اللاذعة بالمعزى تهاوين عند مانزاعتودها فنزت فوق الجبال :

ومائلة قد أهملتها رعاتها — بمأسدة جاعت لعشر أسودها
فباتت ولا راع يحامى مراحها — فرائس بين الضاريات تبيدها
بأضيع منكم حيث لاذو شهامة — يذب الرزايا عنكم ويذودها

ثم تدركه الحماسة فينادى بأعلى صوته ، مبكتا حينا ، ومثيرالحمية حيناً :

أتطمع هذى الناس أن تبلغ المنى — ولم تور فى يوم الصدام زنودها
فهل لمعت فى الجو شعلة بارق — وما ارتجست بين الغيوم رعودها
وأدخنة النيران لولا اشتعالها — لما تم فى هذا الفضاء صعودها
وإن مياه الارض تعذب ماجرت — ويفسدها فوق الصعيد ركودها
ومن رام فى سوق المعالى تجارة — فليس سوى بيض المساعى نقودها

هذا قليل من كثير مما جادت به قريحة الرصافى فى وصف بلاده فى فترة الاستبداد وهو شعر كما ترى لاتعوزه الحماسة ، ولاتنقصه الشجاعة ولعلك تجد فى هذا الشعر ، ولا سيما فى القصيدة الأولى تشابها بين الرصافى والزهاوى

فيما أوردناه له سابقا ولا غرو فالشاعران ينزعان عن قوس واحدة ويرميان إلى غاية واحدة وليست هذه الغاية سوى أن ترد لبلدهما حريته المسلوبة ليتبوأ المنزلة الخليقة بتاريخه المجيد بين أمم الأرض الناهضة .

ويجيء الدستور فيبشر هذه الرعية الملتاعة ، باسترداد حريتها المسلوبة وبالعدل ينشر ألويته فوق ربوع البلاد وبالأمن من كل أسباب الخوف والفزع وليس فى حاجة إلى الإيضاح أن شاعر الحرية سيطرب لهذه النغمة، وسيستهويه الطرب ، وتستخفه البشرى فيهلل مع الأحرار ، لانبثاق نور الأمل الذى أبى الوصال زمنا غير قصير وقد عشى ناظراه فى ترقبه .

لقد كان إعلان الدستور العثمانى فى شهر تموز (يوليه سنة ١٩٠٨) فترى الرصافى يشيد بهذا الشهر إشادة يستعيد فيها ما وقع فيه من الخير لبلده ولسائر البلاد وتقرأ التفاؤل فى كل لفظ تخطه يمينه بهذا الشهر الجدير بالتخليد والذكر :

أكرم بتموز شهراً إن عاشره　　قد كان للشرق تكريما وتعزيزا
شهراً به الناس قد أضحت محررة　　من رق من كان يقفو إثر جنكيزا

وليس يسع الرصافى الوقوف عند ما منيت به أمته من كرام الأمانى فى هذا الشهر بل يذكر أن لهذا التاريخ فضلا مذكوراً فى نهضة الشعوب وتحطيم الاستعباد فتراه يذكر أهل باريس ويشير إلى تحطيم سجن الباستيل :

سل أهل باريس عن تموز تلق لهم　　يوما به كان مشهوداً لباريزا
كانت لهم فيه لما ثار ثائرهم　　بسالة هدت الباستيل مبزوزا

ثم يعود إلى حيث بدأ فيقول :

وإن تموز شهر قام فيه لنا　　على اليفاع لواء العز مركوزا
فى شهر تموز صادفنا لما وعدت　　بيض الصوارم بالدستور تنجيزا
هى المساواة عمتنا فما تركت　　فضلا لبعض على بعض وتمييزا

أمست لنا قسمة بالملك عادلة ... حكماً وكانت على علاتها ضيزى
كنا من الجور غميانا وليس لنا ... من قائدين ولم نملك عكا كيزا
حتى نهضنا إلى العلياء تقدمنا ... عصابة برزت في المجد تبريزا

ويقول في الشورى التي كانت من آثار الحرية التي أفاءها الدستور على البلاد وحطم بها قيود الاستبداد :

دارت بهاشمس عز الملك حيث لها ... حرية العيش برج والنهى فلك
قد أصبح الأمر شورى بيننا لهبه ... على الرعيـــة لا يستأثر الملك
هذا به نهض الإسلام نهضته ... من قبل إذ قام يستولى ويمتلك
ياقوم قد حان حين تسخرون به ... ممن بكم سخروا من قبل أو ضحكوا

وتحدث الحركة الرجعية في ٣١ آذار (مارس سنة ١٩٠٩) أى بعد إعلان الدستور بنحو تسعة أشهر ويحاول الرجعيون العودة إلى الخنوع والاستسلام لذوى الطغيان المستأثرين بالخلافة ومن استخلصوهم من رجال الدولة الذين ينشرون المظالم ويعيثون في الأرض فساداً :

فقد هاجوا على الدستور شراً ... بدار الملك كي يستعبدونا
همو الأشرار باسم الدين قاموا ... فعاثوا في المواطن مفسدينا
فما تركوا من الدستور شورى ... ولا أبقوا لنغمته طنينا

وكان الرصافي إذ ذاك في سلانيك عقب رحيله إليها من القسطنطينية فصادف أن نهض جيش سلانيك وزحف بقيادة (محمود شوكت باشا) لقمع هذه الحركة الرجعية ، فوصف الرصافي هذا الزحف :

ولما جد جدهم استقلوا ... على ظهر القطار مسافرينا
فطاروا في مراكبه سراعا ... بأجنحة البخار مرفرفينا
وظل الجيش صبحاً أومساء ... تسير جموعه متتابعينا
فلم يتصرم الأسبوع إلا ... وهم بربا فروق مخيمونا

ثم يصف باخرة استقلها إلى القسطنطينية ليرى بعينه معركة الحياة والموت ويصف البحر رهواً ويتأمل جمال الطبيعة ويستوحيها إلى أن يصل إلى دار الخلافة ومقر الحركة الرجعية :

أتينا دار قسطنطين صبحا ... وقد فتحت لهم فتحا مبينا
وظل الجيش جيش الله يشفي ... بحد سيوفه الداء الدفينا
فأزهق أنفس الطاغين حتى ... سقاهم من عدالته منونا
ورد الخائنين إلى جزاء ... أحلهم المقابر والسجونا
وحطوا قصر يلدز عن سماء ... له فانحط أسفل سافلينا
وأصبح خاشع البنيان يغضي ... عيوناً عن تطاوله عمينا
خلا من ساكنيه وحارسيه ... فلم ترفيه من أحـــد قطينا

ويجد هؤلاء الأحرار القاضون على فتنة الرجعية أن هذا الفساد والانحلال الذى أصاب الدولة لاصلاح له ما بقي السلطان عبد الحميد متربعا فى دست الحكم ، فهو رمز القوة الغاشمة ، ولقد تلقى الأحرار درسا ، فإن إعلان الدستور لم يقو على القضاء على الرجعية والرجعيين ، فلا بد من البحث عن أصل الداء واستئصاله من جذوره . وليس أصل الداء سوى إبقاء السلطان عبد الحميد وإن كان هو الذى أعلن الدستور مضطرا فلا بد من خلع هذا الرمز البغيض للاستبداد البغيض ، فخلعوه فى ٢٧ نيسان (ابريل) سنة ١٩٠٩ ، وأجلسوا على العرش أخاه (محمد رشاد) ونفوا (عبدالحميد) إلى سلانيك وتنفس الصباح وتقوض صرح الرجعية وبانت معالم الحرية وبات العراقيون وغيرهم يرقبون إشراق شمسها على بلادهم بعد هذا الظلام الدامس الذى غشاها ماغشى، ولكن ترى هل حظى العراق بأمله الموموق ، وهنائه المرموق ؟

لا ، فان الأتراك مايزالون فى غيهم يعمهون. ولا يزالون فى طغيانهم سادرين وإذا الآمال هباء، واذا المورد سراب خادع .

ترى هل يسكت الرصافى وقد هلل ما شاء له التهليل وكبر ملء صحه التكبير وطالما ناجى الدستور مناجاة العاشق الذى تيمته الصبابة لحظى بالوصال بعد طول الإعراض ؟ ولكن الاتراك يتخبطون فى سياستهم يعدون بالعدل ويظلمون، ويتظاهرون بالإصلاح ويفسدون وعادت النغمة التى شنفت آذان الناس لحنا ثقيلا ، وولى (كامل باشا) الوزارة فى العهد الجديد فأساء التصرف فطالب أعضاء مجلس الأمة بتبرير أعماله فراوغ ويطلب الإمهال، حتى يستطيع ذلك فلا يمهله الأعضاء فيضطر إلى الاستعفاء وينشىء الرصافى قصيدته (بعد الدستور) وفى مطلعها يشرح كيف طرب الناس له :

سقتنا المعالى من سلافتها صرفا　　وغنت لنـــا الدنيا تهنئنا عزفا
وزفت لنا الدستور أحرار جيشنا　　فأهلا بما زفت وشكراً لمن زفا

ثم يقول إن الناس حمدوا القوة فقد نجتهم من الطغيان وانتشلتهم من الحضيض وما كانوا ليحمدوها وهى تبطش بهم وتذيقهم الهوان .

فأصبح هذا الشعب للسيف شاكرا　　وقد كان قبل اليوم لا يشكر السيفا
ولاحت لنا حرية العيش عندما　　أماطت لنا الأحرار عن وجهها السجفا

ثم يصف كيف استقبل الناس الحرية استقبال المشوق المتيم :

نشرنا لها منا لفيف اشتياقنا　　ونحن أناس نحسن النشر واللفا
حللنا الحبا لمـــا أتتنا كرامة　　وقمنا على الأقدام صفا لها صفا
عقدنا لها عقد الولاء تعشقا　　فكنا لها إلفا وكانت لنا إلفا
رفعنا لواء النصر يهفو أمامها　　ورحنا على صرف الزمان لها حلفا
فلم تر غير الرفق فينا سجية　　وإن كان بعض القوم أبدى لها عنفا

ثم يصف ما آل إليه أمر كامل باشا من اضطراره إلى الاستعفاء، ويوجه نداء حاراً إلى خلفه الصدر الجديد (حسين حلمى باشا) وإلى مجلس النواب أن يرعى الأمانة حق رعايتها ويلفت نظره إلى ناحية خاصة عنى الرصافى فيها

بعناه طول حياته ، ورددها فى أكثر أغاريده وتلك الناحية الخاصة إنما هى العلم وأرجاء البلاد مقفرةٍ من هذا العماد الذى لاحياة للأمم إلا به ، ويرجع السبب فى عدم استتباب الأمن إلى إهمال هذه الناحية التى جرت البلاد وأهلها إلى الفوضى والانحلال .

ألم تر أرجاء البـــلاد محولة   من العلم فاستمطر لها الديم الوطفا
بلاد جفاها الأمن فهى مريضة   فحقق لها من طب رأيك أن تشفى
فإن لأهليها عليـــك لذمة   ومثلك من راعى الذمام ومن وفى

هذه أمنية الرصافى ، وطلبته من مجلس النواب ، والصدر الجديد ، وهى أمنية عامة ، وطلبة شاملة لسائر البـلاد ، المشمولة بالسلطان التركى ، والتى تظلها الراية العثمانية .

وجدير بالرصافى فى هـــذا المقـام أن يذكر بلده (العراق) فهو مبعث ما فيه من حرارة ، وسبب ما يعمر قلبه من وطنية ، وهو القائل :

أأمنع عينى أن تجود بدمعها   على وطنى ؟ إنى إذن لبخيل!

إذن فلا بد من التخصيص بعـد التعميم ، بعـد أن طلب العلم للجميع ، والأمن فى سائر أرجاء المملكة ، فالعراق فى حاجة خاصة إلى العناية بتربته الخصبة ، والسهر على تنظيم الرى ، فإنه مقفر إقفاراً لاسبب له إلا الإهمال الشائن :

ولا تنس مغبر العراق وأهله   فإن البلاء الجم من حوله احتفا
فدجلة أمست كالدجيل شحيحة   فلا أنبتت زرعا، ولا أشبعت ظلفا
وإن الفرات العذب أمسى مرنقا   به الماء يجفو ، أوبه الماء قد جفا
سل الحلة الفيحاء عنه ، فإنها   حكت شهداء الطف إذ نزلوا الطفا

وهو لا ينسى مع هذا التوجيه أن ينحى باللائمة عـلى أهل العراق الذين توانوا وكسلوا ، فضيعوا مجدهم التليد ، وتراثهم الخالد ، فانطبعت قلوبهم على

الذلة والمسكنة ، بعد الدولة والصولة ، والعزة والكرامة ، وقد هوت حالهم وانحطت عقليتهم . فأخذوا يلتمسون المجد من غير أسبابه ؛ ويلجون البيت من غير بابه ، فهم صرعى أوهام ، وعبيد خرافات ، لا يربطون الأسباب بالمسببات :

فياويل قوم فى العراق قد انطووا على الذل إذ أمست قلوبهم غلفا
ولم يذكروا مجدا لهم كان ضاربا رواقا على هام الكواكب قد أوفى
وكانوا به شم العرانين فاغتدوا يقاسون أهوالا به تجدع الأنفا
يرجون من أهل القبور رجاءهم ومن يحمل الدبوس أو يضرب الدفا

وهكذا نجد الرصافى فى جميع (تركياته) يثنى ما وجد فى الثناء قائدا ، إلى جلائل الأعمال ، ومشجعا على تحقيق الآمال ، وينقد ما وجد فى النقد توجيها ، أو التمس به إصلاحاً .

وهو لا ينسى أن يبدى ويعيد ، ويكرر تنبيهه إلى حاجة البلد إلى الإصلاح وأهم وجوهه فى نظره نشر التعليم ، والعناية بمرافق البلاد التى توفر لها السعادة والرغادة . وكأنه اعتنق قول القائل :

(أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا)

فلا يزال يردد هذا النداء ، دون ما سآمة ولا ملل .

* * *

لقد ولى الاتحاديون الأمر وأسلمت إليهم مقاليد السياسة فى تركيا ، وكانت خطتهم عقب إعلان الدستور أن يؤلفوا الوزارات من غير رجالهم ، ويجعلوها تابعة فى أعمالها لما يصدره مركزهم العمومى ، من الأوامر والنواهى فرجال الوزارة يحتملون أعباء المسئولية أمام الأمة ، ومجلس نوابها ، وهم يأتمرون فيما يفعلون بأمر الاتحاديين ، الذين وعدوا وأخلفوا الوعد . هذه وزارات ثلاث تعاقبت الحكم تحت نفوذ الاتحاديين ، وزارة كامل باشا

فوزارة حلمى باشا : ثم وزارة حقى باشا ، ولـكنها تجرى جميعا على نهج واحد وتسلك جميعا سبيلا واحـداً فى سياستها الداخلية وفى سياستها الخـارجية . والرصافى الذى فتح ذراعيه للدستور وأشاد بذكر الاتحاديين إذ كان يتوقع الخير على أيديهم للبلاد ، ماذا يفعل وقد أخلفوا الآمال ؟ استمع إليه فى قصيدته (شكوى الى الدستور) :

شـكاية قلب بالأسى نابض العرق ... إلى قائم الدستور والعـدل والحق
ملوك على كل الملوك ثلاثة ... لها الحـكم دون الناس فى الفتق والرتق
وأقسم أنى لا أكـون لغيرها ... مطيعا ولو من أجلها ضربت عنقى

ثم يوضح شكاته فيقول إنه كان يرجو أن يرى بالدستور نهضة الشرق ، وأنه صادف أمة أطربتها البشرى وأخذ بلبها التفاؤل فلم يكن عنف فى استقباله كما حدث فى بعض أطراف السلطنة العثمانية :

بك اليوم أشقانا الألى أنت مسعد ... لديهم فيالله للمسعد المشقى !
قد استأثروا بالحـكم وارتزقوا به ... وسدوا على من حولهم منبع الرزق
كأنا لهم شاء فهم يحلبوننا ... وكم مخضوا أوطاننا مخضة الزق
وهم يأخذون الزبد من بعد مخضها ... ولم يتركوا للساكنيها سوى المذق

وإنك لتسمع فى البيتين الأخيرين لحناً جديداً . هو كما ترى لحن صريح كل الصراحة ، وقد كنت نرى التلميح فيما مر بنا من الشعر فيما يخص العراق وقد تجـد الصراحة والنقد اللاذع ولـكن ذلك كان فى معرض ذكر الوطن العام ، ونعنى بالوطن العام البلاد المستظلة بلواء العثمانيين، وكأنه تركى لا يطمع فى غير إصلاح ما أفسـد الدهر من الأوضاع المختلة والنظم الفاسدة .

ولـكنه هنا يشير إلى ما قاست بلاده وكأنها شاء تحلب ، وغيرها يطعم وهى تشرب الـكدر وغيرها يسقى الصفو ، وان أهل البلاد مرت بهم فترة الاستبداد وهم لايدرون إن كانوا فى بلادهم أحراراً أم هم فيها أرقاء وعبيد

شملتهم الذلة ولا نصيب لهم من كفاح فى سبيل المجد الذى هم أصحابه والعلم الذى هم أربابه .

هذه وزارة مكان وزارة فماذا أجدى التغيير وماذا أفاد التبديل، مادامت السيادة واحدة ومادام الدستور (حبراً على ورق) ؟:

ولم نستفد إلا سقوط وزارة وتأليف أخرى مثل تلك بلافرق
وماذا عسى يجدى سقوط وزارة إذا لم تقم أخرى على العدل والصدق ؟

ويشير إلى الحقيقة الراهنة وهى أن الاتحاديين يحكمون من وراء ستار ، فيحتمل غيرهم تبعة الحكم وهم براء من كل عيب أو تقصير فلا ينالهم لوم ولا تصيبهم مؤاخذة :

وما الهم عندى بالذى قد ذكرته وإن كان يشجينى ويدعو إلى الزعق
ولكن وراء الستر أيد خفية تزحزح من شاءت عن الأمر أو تبقى

ولولا الغدر والبطش لباح بالسر الذى حرص على إخفائه بين حناياه :

ولولا يد شدت لسانى بنسعة لبحت بسر كالشجا هو فى حلقى
فيأيها الدستور فاقض بما ترى وأبرق ولكنى لا تكن خلب البرق
ولسنا نريد اليوم حكماً عليهم ولكن نناديهم وندعو الى الحق
تعالوا إلى أمر نساويه بيننا وبينكم فى الجل منه وفى الدق

ثم يترك اللين إلى الإنذار ، والإنذار الى الوعيد والتهديد ، فهذا الحق فى المساواة إن لم يوهب عن طواعية واختيار ، فلابد من الحصول عليه بالقسر والإجبار . فبنو العرب الذين يأبون الضيم قد اختبروا الحرب وخبروها وقد زبنتهم وزبنوها فعرفوها وألفوها وهم الذين لا يعرفون المجد إلا على صهوات الجياد، وفى أيديهم بيض رقاق المضارب .

فإن يفعلوا هذا فيا مرحبا بهم وإلا فيا سحق المعاند من سحق
سنطلب هذا الحق بالسيف والقنا وشيب وشبان على ضمر بلق

بكل ابن حرب كلما شد هزها   بعزم من السيف المهند مشتق
تراه إذا ما عبس الموت وجهه   بوجه يلاقى الموت مبتسم طلق
من العرب مطبوع الطباع على العلا   بديع معانى الحسن فى الخلق والخلق

وما كان الرصافى فى حاجة إلى هذا الوعيد وذاك التهديد لو أن الاتحاديين صدقوا الوعد فى إفاضة الخير ، وإرسال شعاع النور على البلاد العربية .

ولكن هؤلاء الاتحاديين الذين سموا أنفسهم (جمعية الاتحاد والترقى) أخلفوا الظنون، ودعوا إلى فكرة طائشة ومبدأ فاسد، استمد فساده من منافاته لطبائع الأشياء وما جرت به العادة ، إذ اتخذوا مبدأ (التوسع الطورانى) شعارا لهم ، واستلزم هذا المبدأ المناداة بتتريك الشعوب غير التركية. وأكثرهم عددا العرب والأكراد ، ومعنى ذلك القضاء المبرم على هذه الشعوب وسلبها أخص خصائصها ، فلا حكم لهذه البلاد بأيدى أبنائها ، ولا دخل لها فى رياسة أو سياسة ، ومن اليسير حينئذ أن تدع هذه الأمم لغتها الأصلية فتصبح العربية أثرا بعد عين .

وهكذا صرح الشر وأضحى غير مكنون ، وتكشفت النفوس عن حقيقة ما تنطوى عليه من إذلال العرب ، والقضاء عليهم قضاء لا نهوض بعده لهم .

ويشتد النزاع لا بين العرب والأتراك فحسب ، بل بين الأتراك أنفسهم ولا نزاع بين القوم ولا اختلاف على شىء سوى الاستئثار بالحكم لما يجر من مغانم وما يتبعه من الجاه والثراء ، لا للمبادىء القويمة يتنافسون على إقامتها فى خدمة الدستور والحق والعدالة .

وينتهى الخلاف موقتاً بسقوط وزارة الاتحاديين وهم الطرف الأول للنزاع، وتولى خصومهم السياسيون (الائتلافيون) الوزارة ورئيسهم الغازى (أحمد مختار باشا) فيسجل الرصافى فى قصيدته (الوطن والأحزاب) هذا التطور والتبدل فى الأشخاص ، لا فى أساليب الحكم ، قال فى مستهلها :

متى نرجو لغمتنا انكشافا ... وقد أمسى الشقاق لنا مطافا
ملأنا الجو بالجدل اصطخابا ... وكنا قبل نملؤه هتافا

ثم يذكر ما أصاب الناس من الاضطراب والبلبلة ، وسريان الشائعات بينهم ، حتى غم الأمر عليهم ، والتبس عليهم الاهتداء إلى وجه الحق والصواب فأصبح اللوم موجها إلى الحكومة ، وأصبحت تتهم بالعسف ولا فرق بين الراعى والرعية فكلهم أشد ظلما واعتسافا .

وليس البكاء على الوطن من فرط حب له ، فلم يكن إلا مخادعة للوصول إلى الأمل المنشود وهو التمتع بالحكم واقتطاف ثمراته اللذيذة :

تباكينا على الوطن اختداعا ... فأنبتنا بأدمعنا (الخلافا)
أجاعتنا المطامع فاختلفنا ... لنملأ فى موائدنا الصحافا

والاختلاف للمطامع ولكنه يغطى بغشاء من حب الوطن ، تمويهاً وسترا للمطامع .

ولكنا من الوطن المفدى ... نخيط على مطامعنا غلافا

والرصافى يتنبأ بما سيفضى إليه الأمر من استفحال الخطب ، ونشوب الثورات . وشيوع الفتن فى أطراف البلاد . ويتساءل فى تشكك عن اقتدار الخلف على ما عجز عنه السلف :

أرى أنف الحوادث مشمخراً ... غدا يتشمم الحدث الجرافا
ويوشك أن يمزق منخريه ... عطاس يملأ الدنيا رعافا
فهل لوزارة (الغازى) اقتدار ... ترد به الهزاهز والنقافا ؟

ثم يجاوز هذا إلى الحقيقة الواقعة ، ولوساء ذكرها القوم وهى أن الناس فى كل الأقطار وسائر الأمصار معرضون للفرقة والخلاف فى الرأى ، ولكن هذا الخلاف بين الأتراك هو أسوأ ما عرف من خلاف ، وأقبح ما عهد من شقاق ، لأنه قذف بالتهم ورمى بالقول :

فلا تغررك أحزاب شداد ... بأن لهم أقاويلا لطافا
فإن بواطن القوم احتراص ... وإن أبدت ظواهرهم عفافا
وما اختلفوا لمصلحة ولكن ... ليأكل أقوياؤهم الضعافا
هو الدينار منية كل راج ... وبغية كل من دأب احترافا
نحج لأجله بيت المخازى ... ونكثر حول كعبته الطوافا
ترى كل الأنام به سكارى ... وغيرهم هواه ما ارتشفوا اسلافا
يحب سواه فى الأفواه جار ... ولكن حبه بلغ الشغافا
هو الحرب التى زحفت إليها ... كتائب كل من طلبوا الزحافا

هذا هو الأمل الوحيد للقوم : جمع للمال واحتجان للثروة ، والتماس للغنى من أفواه الذين لا يكادون يجدون القوت ، وإن تظاهر القوم بغير ذلك ، فلإخفاء هذه الغاية وسترها عن عيون الناس ، وهكذا يخادعون الأوطان ويخادعون الناس وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، فقد تنبهت الأوطان ، واستيقظ الغافلون ، فما تفيد المخادعة وما يجدى الستر والتمويه ، وأخيرا وليس آخرا هم فى الطمع سواء .

لئن خطأت من راموا (اتحادا) ... فما صوبت من راموا (ائتلافا)
فان مشارب العدوان منها ... كلا الحزبين يرتشف ارتشافا
وهم كأولى الديانة كل حزب ... يراه أحق بالحق اتصافا
وماذا نفع أقوال سمان ... إذا أفعالهم كانت عجافا ؟

وكان أن وقع ما توقعه الرصافى من نشوب الثورات ، وانتشار الفتن ، فقد أخذت حكومات البلقان توقد الفتن السياسية فى مقدونيا وبلاد الألبان ، وخرج الخليفة الجديد إلى البلاد المذكورة فى زيارة كانت كفيلة باخماد نار الفتنة التى نشبت فيها فامتدحه الرصافى بقصيدة عنوانها (عند سياحة السلطان) وقد أعجب بها السلطان ، فأجاز الرصافى بساعة ذهبية ذات سلسلة ذهبية أيضاً

وفى هذه القصيدة يذكر ما قامت به حكومات البلقان ، ولكن الحكومة كانت غير غافلة عما أعدوه من أسباب الفتنة ، وأنها مستوفزة لهم ، آخذة حذرها منهم، وكانت زيارة واحدة للخليفة كفيلة بالقضاء المبرم على أسباب الشغب وعناصر الفوضى وانتقل من ذلك إلى سوق المديح والإطراء فقال :

يأيها الملك السامى بحكمته والمبدل الناس من ذل بإعزاز
قدعى فى وصف ماأوتيت من حكم كلا كلامى إطنابى وإيجازى
غزوت غزو سلام دون غايته غزو الحروب فأنت الفاتح الغازى

وأنه استطاع بحكمته وقدر بحنكته أن يفعل بعفوه مالا تستطيع أن تفعل الجيوش الجرارة، ولو شاء شهر السيوف وحمل الرماح لما أعجزه ذلك:

ملكت بالعفو والإحسان أفئدة كانت إلى السيف فيها بعض أعواز
وأنت لو شئت إرهابا لجئتهم بصارم لنواصى القوم جزاز
لكنما جئتهم بالعفو تأخذهم والعفو أفضل ما يجزى به الجازى
فاغمد سيوفك ان العفو منصلت واهنأ بشعب محب غير منحاز
بالترك بالروم بالألبـان قاطبة بالأرمنيين بالبلغار باللاز

ويشير عليه فى براعة ظاهرة أنه إن أراد الاستنصار فلا نصير له غير العرب الأوفياء الذين يسمون على سائر رعاياه بالوفاء والإخلاص ويفضلونهم بالنجدة والبسالة ، ويسأله أن يروض بهم كل صعب ويقتحم بهم كل هول فهم أهل الصدور ، وهم النسور وغيرهم البغاث :

أما بنو العرب فالإخلاص يرفعهم إلى مقام على الأقوام ممتاز
إذ هم عماد لعرش أنت ماسكه فاضرب بغاث العدى منهم بأبواز
ورض بهم كل صعب إنهم فئة تبغى الصدور ولا ترضى بأعجاز
وهم ركاز العلا لو زرت أرضهم يوماً لأركزت فيها أى إركاز
إن يعجز الأمر عن شىء فهم سند لو كنت مسنده منهم بعكاز

وان خشيت على البلدان جنتها فنط بها من نهاهم بعض أحراز
وسيف ملكك إن رثت حمائله أغنوك فى رأبها عن كل خراز

ثم يتقدم اليه أن يتفضل بزيارة هذه البلاد المخلصة الوفية ليرى بعينه ماطبع عليه القوم من صدق الولاء وليرى كذلك ما انتهت إليه حال أهلها من الجهل والفاقة نتيجة الإهمال ، وهو يتوسل اليه أن يستجيب لهذه الدعوة ولو كانت الزيارة سريعة خاطفة .

زر أيها الملك المحبوب موطنهم ولو زيارة عجلان ومجتاز
وانظر إليه بعين منك شافية مانا به اليوم من جهل وإعواز
أشئم وأعرق ورح من بعد محتجزاً وأيمن بعزم غير هزهاز
ماذا على ملك الدستور من وطن لوجال منه بأطراف وأجواز ؟

* * *

ولابد لنا هنا من الإشارة إلى شيء جدير بالإشارة ، ذلك أن هذه التطورات التى اعتورت الحكم فى تركيا لم يسهم العراق فيها بنصيب فهو يقف منها جميعا موقف المتفرج الذى لا يعنيه الأمر فى قليل ولا كثير ، وكأنه رضى بالتبعية الأبدية لسلاطين آل عثمان .

حقيقة إن حركات قام بها بعض الأحرار العراقيين بين حين وحين ، ولكن أصدق ما توصف به هذه الحركات ، أنها كانت حركات فردية لم يشترك فيها الشعب العراقى أو بعبارة أخرى لم تكن تصدر عن الرأى العام، ومصير حركات من هذا اللون من الحركات إنما هو الخيبة والفشل الذريع .

وإنا لنتساءل أين كان الشعب العراقى الذى عرف بالبسالة فى تلك الحقبة الطويلة التى كانت البلاد تئن فيها أنينا متواصلا تحت نير الحكم العثمانى الغاشم؟ وما حقيقة موقفه إزاء هذه التطورات ؟ وما بالنا لانسمع إلا أصواتا خافتة، ن جهرت فبطلب الإصلاح ؟ وأبعد الأشياء عن جهرها المناداة بالحرية

والاستقلال ؟ وكأن السنين بتطاولها قد أماتت الشعور الوطني وقضت على النخوة العربية المتأصلة في نفوس العراقيين .

أو بالأحرى نستطيع أن نقول إن العقيدة التي اعتورها الوهن هي العلة الكامنة في هذا الصمت العميق ، الذي أنسى القوم عظمتهم ومجدهم إبان حكم العباسيين ، فخليفة من بني عثمان مكان خليفة من بني العباس وحاضرة للخلافة في بلاد الروم مكان حاضرتها في بلاد الرافدين ، والدين هو الإسلام في العهدين. وفي هذه المظاهر والقشور الكفاية والغناء لمن أراد الكفاية والغناء ، وكفى الله المؤمنين القتال !

ولم يكن العراق فيما ارتضاه لنفسه بين البلاد الخاضعة للدولة العثمانية فريداً بل كلهم في الهم شرق .

وكان حريا بهذه البلاد أن تتحين هذه الفرص المتاحة لتحقيق ما تصبو إليه من أحلام الحرية والاستقلال ، ونستطيع أن نقول : إن هذه البلاد لو حاولت ذلك ، لنجحت محاولتها وتحققت أحلامها .

ولكن أطراف المملكة العربية وأعني بذلك دول البلقان ، التي لم تكن الحالة فيها أسوأ منها في بلاد العروبة كانت كالمرجل في غليانه ، فهي في ثورة دائمة ، وفي فتن مشتعلة ، لا يخبو أوارها ، وقد تستطيع الدولة أن ترسل جيشاً تجهز به على العصاة والمتمردين ، وتسكن الثورة ، وتقضي على الفتنة، ولكن ذلك كله إنما هو علاج مؤقت لا يستطيع أن يستأصل الداء من جذوره ، وليس الداء سوى الوطنية المتأججة بين حنايا الضلوع . وفي قرارة الأفئدة .

حتى هؤلاء الشعراء لم يرسلوها كلمة صريحة تصم الآذان ، ولم يحركوا في أمتهم ساكناً ، وإن حاولوا فأين آثارهم ، وأين الوثبة المضرية ؟

وذلك موقف عجيب لا يعلل إلا بالعلة التي أوجزناها سابقاً. حقيقة كان هنالك نقدات للدولة وسياستها أرسلها الأحرار من أبناء الأمة ولاسيما الشاوي

والشاعرين الفحلين جميل صدقى الزهاوى ، ومعروف الرصافى ولكن هذه الثورات والأنفاس والنفثات لم تكن ترمى بحال إلى الانفصال عن جسم الدولة العثمانية فى هرمها وفى شيخوختها .

هذا الدستور يعلن فى قلب الخلافة فتهيج الخواطر ، وتثور النفوس فى البلاد الغربية التى يخفق فوقها علم العثمانيين وهو هياج الخلاص، وثورة النجاة المرتقبة فى هذه الأطراف ، أما الأطراف الشرقية فلا هياج ولا ثورة وإنما الرضى والاطمئنان والاستبشار فهل أفاد هذا الهدوء ؟ وهل أجدت هذه الوداعة ؟

لقد سجل الرصافى هذا الهدوء وهذه الوداعة فى كثير من قصائده فى ذلك العهد . وفى قصيدته (بعد الدستور) بيت يتيم يشير إلى الحقيقة السابقة بعد وصف البشرى والتفاؤل بالدستور ونعته بأجل النعوت . قال :

فلم تر غير الرفق فينا سجية وإن كان بعض القوم أبدى لها عنفا

وكنا نرغب إلى الرصافى لو أسهب بعض الأسهاب، وأفاض بعض الإفاضة لنتبين منه ما يريد صريحاً لا لبس فيه ولا محاولة إخفاء ، وهو فى معرض الاستيعاب والتقصى .

وثمة بيت آخر من قصيدة عنوانها (شكوى إلى الدستور) يذكر هذا المعنى أيضا فيقول مخاطبا الدستور :

فصادفت منا أمة قد تعشقت لقاءك حتى جاوزت مبلغ العشق
ولم نبد عنفا حين جئت وإنما هتفنا جميعا بالوفاق وبالرفق

وفى هذه الإشارات مع ما سبق من ثنائه على خلفاء بنى عثمان ونقد سياستهم ما يؤيد ماذهبنا إليه من أن هذه الدعوة التى أرسلها الرصافى فى شعره كانت دعوة إصلاح شامل، داخل حدود تركيا وخارجها دون تفكير فى

الانفصال عن جسم الدولة العثمانيـة أو الدعوة إلى استقلال العراق عن التبعية لها [١]

(١) اطلع على هذا الفصل معالى السيد محمد رضا الشبيبى ، وعلق عليه هذا التعليق النفيس وقد آثرنا إثباته كاملا فى هذا الكتاب ، لما يحوى من تحقيق تاريخى ، إذ كان من أهم غاياتنا التعريف بالبيئة التى عاش فيها الرصافى ، تعريفا شاملا جهد الطاقة . كتب حفظه الله .

(يقظة قومية فى العراق فى عهد الحكم التركى)

تشير كثير من الأحداث والاضطرابات التى وقعت فى بغداد والحلة وكربلاء والنجف وغـيرها من جهات العراق شرقا وغربا ، وذلك فى منتصف القرن الثالث عشر للهجرة ، وفى عصور بعض المماليك ، وفى طليعتهم داود باشا وهى حوادث واضطرابات معروفة فى تاريخ العراق ، لا يجهلها العراقيون ولا الأتراك ، تشير هـذه الأحداث والاضطرابات إلى وجود ضرب من الوعى القومى فى العراق ، فهى ترمى غالبا إلى التخلص من الادارة المركزية أو من الحـكم التركى كيفما كان .

فقد قامت فى جنوب العراق وفى البصرة قاعدة الجنوب ، وذلك فى صدر القرن العشرين حركة قوميـة خطيرة ، معروفة فى تاريخ العراق الحديث ، اتجه أقطابها ، والقائمون بها إلى فصـل العراق أو اقتطاع البصرة وما يتبعها على الأقل عن إدارة الدولة العثمانية ، ومن ثم تكوين دولة عربيـة حرة ، فى هذا الجزء من البلاد على أن ترتبط هـذه الدولة ، برابطة الحلف مع الدول والامارات العربية ، المتاخمة للعراق من الجنوب برا وبحرا ، وغربا ، وشرقا ، ومن ذلك إمارة (الكويت) وإمارة (المحمرة) وإمارة (السعود) فى شبه الجزيرة ، وإمارة (البحرين) وغيرها من الامارات الواقعـة على الخليج الفارسى . وكان السيد (طالب النقيب) السياسى العربى المشهور عميد هذه الحركة القومية ، وقطبها الذى تدور عليه .

لقد أتيح للرصافى أن يسافر إلى تركيا غير مرة وأن يقيم فى ربوعها ، فقد سافر اليها لتلبية دعوة صاحب جريدة (إقدام) التركية ليشرف على إصدار

كان للسيد طالب النقيب المذكور جهود فذة فى هذا السبيل ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه سياسى لا يجارى فى جرأته ، أعلن خصومته للأتراك ، وأذاع مقاصده ، وهى التخلص من سيطرتهم وتحرير كل ما يمكن تحريره من بلاد العرب لانشاء دولة عربية فيها . على أن تسعى هذه الدولة إلى تعزيز كيان العرب القومى . وقد انقسمت جهود السيد طالب قسمين فقد كان يعمل فى جنوب العراق على تنسيق الأعمال ، وتوحيد الجهود ، وإثارة عرب الجنوب فى الحواضر وفى الأرياف على طغيان الأتراك ، وخصوصا فى الأقاليم القريبة من البصرة ،ومنها المنتفق والعمارة والكوت والديوانية والحلة وما إلى ذلك

كان للسيد طالب أيضا اتصال وثيق بكثير من ضباط العرب المستخدمين فى الجيش التركى ، كما اتصل بكثير من زعماء القبائل المعروفين فى دجلة والفرات وأخذ منهم عهوداً على معاضدته وشد أزره ، نعرف من بينهم مثلا صديقنا المرحوم الشيخ (مبدر آل فرعون) شيخ مشايخ قبيلة (الفتلة) وغير واحد من زعماء قبائل العماره والكوت ، ووجهاء المدن هناك وقد قوبلت دعوته بالترحاب والحماس فى هذه الأقاليم .

وقد طارد الأتراك بعض أنصار هذه الدعوة ووضعوا خطة للانتقام منهم حيثما وجدوا ، ونحن نعرف أسرة كريمة فى الكوت قضى الأتراك على أفرادها جميعا ، بعد استيلائهم على البلدة المذكورة فى الحرب العامة ، ولا سبب للانتقام منها إلا جهودها السابقة فى سبيل القضية القومية .

وقد أنشأ السيد طالب فى البصرة إذ ذاك حزبا عربيا دعاه (حزب الاصلاح) وصدرت عدة جرائد عربية كانت كلها بمثابة لسان حال للحزب المذكور ، وهى تتنكر بجرأة نادرة لسياسة الأتراك العنصرية ، ومنها جريدة تدعى (جريدة الدستور) وفى وسعنا أن نقول : إنه قد وضعت الأسس لبعث حركة أدبية وصحفية فى البصرة ، وقد استطاع السيد طالب أن يجتذب إلى

أخت لماعربية، وقد عرفت أن صاحب الجريدة عدل عن فكرته، إذ لم يكن فيها مخلصا أو صادق الرغبة فى محاولة التقريب بين الأمة العربية المحكومة والدولة العثمانية الحاكمة فاضطر إلى ترك العاصمة والسفر إلى سلانيك للنزهة ثم صحب حملة الأحرار للقضاء على الحركة الرجعية الشهيرة بحركة ٣١ مارت. وقد سافر إليها للمرة الثانية بعد برقية تنبيء بتعيينه مدرسا للغة العربية فى المدرسة الملكية العالية وللتحرير فى جريدة (سبيل الرشاد) العربية، وقد عهد إليه فى هذه الأثناء بالإضافة إلى هذين العملين الخطيرين تدريس الآداب العربية فى مدرسة الواعظين التابعة لوزارة الأوقاف ثم انتخابه سنة ١٩١٢ مبعوثا عن لواء المنتفق فى المجلس النيابى العثمانى وظل بتركيا حتى انتهت الحرب العظمى

عاصمة الجنوب كثيرا من الشعراء والأدباء، الذين كانوا يشيدون فى قصائدهم وينوهون بهذه الحركة القومية، وينشرون الدعوة إلى عضدها وتأييدها، وكان فى طليعتهم (السيد عبد المطلب) الشاعر الحلى المشهور، فقد نظم قصائد عديدة مشهورة فى هذا الشأن، جلبت عليه نقمة رجال الدولة العثمانية، فكانوا يضايقونه ويلاحقونه أينما سار فى الأقاليم الجنوبية، وخصوصا فى الحلة وما إليها مدة غير قصيرة.

هذا من جهة، وكانت للسيد (طالب النقيب) من جهة ثانية صلة وثيقة بأمراء الجزيرة المستقلين استقلالا تاما أو شبيها بذلك مثل أمراء (الصباح) فى الكويت، وأمراء (السعود) فى الرياض، وأمير المحمرة (الشيخ خزعل) وغير هؤلاء من أمراء العرب فى الخليج الفارسى وقد شرع فى عقد حلف عربى بينه وبين بعض هؤلاء الأمراء، ومن مرامى هذا الحلف تحرير العراق، وجزيرة العرب كلها من حكم الاتراك. هذه حقائق تاريخية تتضح منها مساعى أبناء العراق وجهودهم القومية. ومع أننا لا ننكر فى هذا الباب فضل الشعراء الذين أشار إليهم المؤلف فى بعث الشعور القومى فى العراق فى مستهل القرن العشرين إلا أن عدهم على سبيل الحصر قول لا يخلو من تجاوز.

(محمد رضا الشبيبى)

وقد اتصل الرصافى مدة إقامته بأحرار الأتراك وأبطال الانقلاب وكان يرمى إلى خير بلاده من وراء هذا الاتصال، فيبثهم آلام أمته وآمالها ويتحدث إليهم عما تعانيه من جور وانحطاط ولكننا لا نعرف شيئا عن مواقفه البرلمانية فى مجلس المبعوثان ولم يصل إلينا حديث عن هذه الفترة من حياة الرصافى التى تعد أزهر حياته من حيث الجاه والأخذ بأسباب التمدن .

غير أنه مما لاشك فيه أن الشاعر أخذت لبه المدنية البراقة التى وجدها فى (إسطنبول) و(سلانيك) وغيرهما وما كان ليجد شيئا من ذلك فى (دار السلام). ولعل ما رأى أكسبه شيئا من الهدوء فى تركيا وهو رجل الثورة ، فقد حظى بصداقة كثير من ذوى الجاه والنفوذ الذين أعجبوا به لحسن عشرته وصراحته وقد حداهم هذا الإعجاب إلى أن يهيئوا له من أسباب الأنس والمسرة ما يستطيعون .

ولاشك أيضا أن هذا الاتصال عن كثب قد أفاد الشاعر فائدة جلى . فقد درس البلاد وأهلها ، وألم بأخلاقهم ، ووقف على ميولهم ، وعرف بنفسه حقيقة شعورهم نحو العرب ، وما يرمون إليه فى سياسة العرب ومعاملتهم ، ويبيتون لهم من الأمر فكان من أثر ذلك ما مر من أمثلة لنظمه السياسى وشعره الحماسى .

وأملنا بعد هذه الإفاضة أن نكون قد انتقلنا بك أيها القارىء الكريم مع الشاعر فصحبته خطوة خطوة وسرت معه فى تنقلاته وعرفت خلجات فكره، وحقيقة شعوره ، ويقيننا أننا قدمنا ما فيه الكفاية فى شرح اتجاهات الرصافى وموقفه من الأتراك فى النصف الأول من حياته.

« ٭ »

انتهت الحرب العامة الأولى وقضى القضاء الأخير على هذه الدولة المترامية الأطراف، ففقدت ممتلكاتها وتقلصت أطرافها ، واقتطعت حواشيها. وقبعت فى هذا الجزء المحدود الذى لا تزال تشغله حتى الآن . وزال كل أثر للعثمانيين

وقضى مصطفى كمال (أتاتورك) على معالم الخلافة ، وصيرها شعبية جمهورية ، بعد الوراثة الاستبدادية .

ولقد كان القضاء على الدولة والتخلص من سيادتها من أثر عاملين : أحدهما خارجي وذلك اجتماع انكلترا وحليفاتها التى ظلت تحارب العثمانيين بشتى الوسائل ، وتثير عليهم الحفائظ ، وتهيج عليهم شعور البلدان المحكومة لهم حقداً وحسدا ، وواتتها الفرصة المشروعة، إذ انضمت تركيا إلى ألمانيا فى تلك الحرب ، فأصبحت العداوة سافرة ، بعد أن كانت تجرى فى طى الخفاء دسائس ومؤامرات .

والعامل الثانى داخلى أو عربى ، وهى الثورة العربية التى قام بها فى وجه الترك الملك حسين بن على ملك العرب وأبناؤه البواسل .

ولقد اتحد العاملان وكل عامل يساعد الآخر ويشد أزره ويعاضده ، ونجح الاتحاد وزال الظل العثمانى عن البلاد العربية إلى غير رجعة . وكان أن سقطت بغداد فى يد الإنكليز مدعين أنهم فعلوا ذلك لتخليص البلاد مما تعانى من استبداد الأتراك العثمانيين .

وهنا يظهر معروف على حقيقته، ويبدو شعوره نحو العثمانيين واضحا جليا ، وهو شعور الحزن والأسى على زوال هذه السيادة وحلول غيرها مكانها ، ولقدعبر الشاعر فى اثنين وثلاثين بيتا عما يخالجه من الأسى والأسف لما انتهى اليه أمر بغداد فى قصيدة طويلة عنوانها (نواح دجلة) قال فى مستهلها :

هى عينى ودمعها نضاح　　كل حزن لمائها يمتاح
كيف لا أذرف الدموع وعزى　　بيد الذل هالك مجتاح؟
قد رمتنى يد الزمان بخطب　　جلل ما لليله إصباح

ولقد كان سقوط بغداد فى نظر الرصافى قاضياً على الشرف الوضاح الذى أسبغه العثمانيون على وادى الرافدين ويتساءل فى لذعة وألم عن حماة

الوادى ، وكيف أمسوا لا يذودون الضيم عنه ، وكيف أصبحت البلاد جيشاً بلا قائد وسفينة تجرى بغير شراع ولا ملاح ويصور نهر دجلة نائحا حزيناً منتحبا يقول :

ليس ذا الموج فى موجا ولـكن هو منى تنهد وصياح
إن وجدى هو الجحيم ولولا أدمعى أحرقتنى الأتراح
لو درى منبعى بما أنا فيه من أسى جف ماؤه الضحضاح
علـه قـد درى بذاك فهذا هو باك ودمعه سفاح

ومنها ما يدل على أن العثمانيين لاذوا بالفرار ، وتركوا وراءهم أرض العراق دون دفاع وذلك ما يعز على العراق وساكنيه، فإن هـذا الفرار الفجائى والبعاد الذى مابعده من تلاق يحز فى نفوس العراقيين ويعرض أرواحهم للتلف ويبيح للاعداء استباحة ما يحرص عليه العراقيون :

أين أهل الحفاظ هل تركونى نهبة فى يد العدو وراحوا
برحوا وادى السلام عجالا أجد براحهم أم مزاح
مالهم يبعدون عنى انتزاحا وعزيز منهم على انـــتزاح ؟
أو ما يعلـمون حريمى للمعـادين بعدهم مستباح ؟
فلئن يبعدوا فإن فؤادى لإليهم بوده طماح
تركونى من الفراق أقاسى ألما ما تطيقه الأرواح
لو رأونى سبيا بأيدى الأعادى لبكوا مثلما بكيت وناحوا
لامسائى بعد البعاد مساء يوم بانوا ولاالصباح صباح

ثم يمنى الشاعر نفسه أو يمنى العراقيون أنفسهم بأن الأتراك لم يغمض لهم جفن منذ غادروا العراق مضطرين وأنهم لا بد سيعيدون الـكرة لاستخلاصه لأنفسهم ، وإنقاذه من أيدى أعدائهم

أنا أدرى بأنهم بعد هجرى لم يذوقوا غمضا ولم يرتاحوا

بل هم اليوم عازمون على الزحـ   ـف بجيش به تغص ، البطاح
إن تأنوا فربضة الليث تأتى   بعدها وثبة له وكفاح

وإنا لنعجب العجب كله من هذه العواطف الثرة والشعور الفياض من معروف الرصافى . اللهم إلا أن يكون حقده على الحركة الجديدة والانقلاب الجديد ورجاله هو الذى دعاه الى الإشادة بذكر الذين أذلوا العراق واستنزفوا ثروته وأعملوا فيه الجور والفساد وقضوا على مافيه من آثار المجد الطارف والتليد .

وكيف يحن الرصافى إليهم ؟ وكيف يصف عهدهم بأنه زان وادى الرافدين بما أسبغ عليه من الحب والوداد ، وأنه قد توج بتاج من فخر بنى عثمان ولئنه اتخذ هلالهم له وشاحاً ورمزاً ؟ :

كيف يغضون عن إغاثة واد   زانه من ودادهم أوضاح؟
فعليه من فخر عثمان تاج   وله راية الهلال وشاح

ومع هذا الأنين والحنين ليس يسع الرصافى أخيراً إلا أن يعترف بالحقيقة وبأن هؤلاء الأتراك قد أدموا فؤاده . وما كان له أن يجحد ذلك وهو الذى سجل بيراعه ماقاسى العراق من ويلات الأتراك ونكباتهم:

أنا باق على الوفاء وإن كا   نت بقلبى بمن أحب جراح
فإليهم ومنهم اليوم أشكو   بلغيهم شكايتى يارياح

٢

فى عهد الانتداب – فى عهد الحكم الوطنى – فى عهد الاستقلال

يا مَوْطِنًا لستُ منه فى مُوادعةٍ ... عِشْ بعد مَوْتى عيشَ الوادعِ الهانى
هل كلٌّ من فيك تعنينى سعادتُهمْ ... وكلُّ أبناءِكَ الأعْداءِ إخوانى
إنْ سرّكَ الدهرُ يومًا سرّنى، وإذا ... آذاكَ بالمزعجاتِ الدهرُ آذانى

(الرصافى)

***

ولفظ هذا العهد الطويل المظلم آخر أنفاسه ، وطويت آخر صفحاته ، وجاء الإنكليز يمنون بالحياة بعد الموت ، والعلم بعد الجهل ، والغنى بعد الفقر ، والصحة بعد المرض ، ويستقبل الرصافى هذا العهد بما ودع به عهد الأتراك آنفا ، يبتدئه بالتشاؤم ولا يزال متشائما طوال مدة الانتداب ، بل يتمادى فى تشاؤمه فى عهد الحكومة الوطنية ، وفى عهد الدستور ، وفى عهد التمثيل النيابى ، وفى عهد المعاهدة ، وفى عهد العلم وعهد النور ، !

وهكذا يقف الرصافى موقفا سلبيا لم يكن له من مبرر . فأساء بالناس الظنون وأساء الناس به الظنون ، فبقى هذه المدة حتى وفاته يحيا حياة العزلة ، وإن شئت فقل إنها حياة المنبوذين :

وما كان أغنى الرصافى عن هذا التطرف فى التشاؤم الذى أسخطه على الحياة وأسخط عليه الحياة .

لقد دنت الآمال ، وتدلت قطوفها وصار الأمر بيد أبناء البلاد ، وابتعد العدو عن الميدان قليلا قليلا ! فما باله لم يمد يده ليضعها فى أيدى من يتوسم فيهم الخير وصدق الوطنية ، ليمدهم فى هدوء بما يستطيع من أسباب النصح الذى يقود سفينة البلاد إلى ساحل النجاة ؟ ! وكان حسب الرصافى أن يتسنم ذروة الشعر ينفح به أمته الفينة بعد الفينة، وهو فى هذا الميدان حاكم وأمير له شأنه، والجماهير تهتف باسمه وتردد نفحاته ، وتبث نفثاته ، قبل أن يخط منها حرفا بيمينه ؟ !

الواقع أن الرصافى بارتضائه هذا المسلك لم يكن التوفيق رائده ، ولم يكن يحدوه الرشد ، وقد كان له العذر كل العذر أيام الانتداب ، وليس له شىء من العذر أيام الحكم الوطنى ! فيعيش بعيداً عن الميدان الذى يتطلب من كل ذى موهبة أن يكون جنديا من جنود الوطن، يذود عنه ضربات المعتدين، ويردعنه كيد الكائدين .

استمع إليه فى قصيدته التى دعاها (ولسون بين القول والعمل) وهو صاحب المبادىء المشهورة ، مبادىء الحرية تر الرصافى يبدى تشاؤمه وفزعه من عدم موافقة العمل الجدى القول البهرج الخداع وآية التشاؤم قوله :

أيها المسلمون لستم من الغر ... ب بحال تستوجبون احتراما
إنما أنتم لدى الغرب قوم ... خلقوا عن سوى الشرور نياما
فإذا ما وسعتم الناس حلما ... عده الغرب شرة وعراما
وإذا ما ملأتم الأرض عدلا ... عد جوراً ، أو مفخراً عد ذاما
وإذا ما فعلتم الخير يوما ... حسبوه جناية وأثاما
وإذا زلة لكم دفن الده ... ر أملوا بنبشها الأقلاما
واذا ما افترى عليكم عدو ... أيدوه ، وصدقوا الأوهاما
وإذا ما جنى عليكم أناس ... سكتوا عنهم ، ومروا كراما

وقبل هذا التشاؤم الواضح يبدى حنينه إلى الدولة البائدة وحنقه على الذين صدعوا بنيانها، وشجعوا الثورات فى البلقان عليها رامياً إياهم بالتعصب الدينى إذ استباحوا حمى أزمير نهباً وسلباً واستحلوا سفك دماء بريئة .

مد (ولسون) فى السياسة حبلا   جمع النقض فيه والإبراما
فلبعض الأنام كان عصاماً   ولبعض الأنام كان خصاما
ملأ الدهر فى (فيومة) فخراً   وبازمير أخجل الأياما
إن إزمير صيرت (مالولسو   ن)من الفخرفى (فيومة) ذاما

ويندد بتفرقتهم بين الغرب والشرق فى المعاملة، فالمساواة والعدل والحرية حقوق ولكنها للغربيين دون الشرقيين :

فهل الحق عنده فى سوى الغر   ب حقير أقل من أن يحامى ؟
أو هل الشرق وحده فى الأقالـ   ـيم مباح أن يستبي ويضاما ؟
أو هل القوم عاهدوا الله فى أن   لا يراعوا للسلمين ذماما ؟
ما لهم أرهقوا بنى الشرق ظلما   وعلى الترك أشعلوا الآراما ؟
فاستباحوا حريم ازمير نهباً   واستحلوا من الدماء حراما
حيث جاسوا خلالها بجنود   ركبت فى عتوها الآثاما

واستمع إليه مرة ثانية فى قصيدته (غادة الانتداب) تر شاعرية فذة وروحا قوية ، فقد كسا الشاعر هذه الغادة أجمل الكسا وألبسها تاجا من الدرو الياقوت ، وجعلها تسير بخالقوهى فى هذا الزى البارق الأخاذ خضراء الدمن، تبدى تلطفا وجمالا وتخفى لؤما وشناراً وتستر جبناً وعارا .

فالغش فى لحتها والسدى   وكل ما يدعو إلى الارتياب
قال جليسى يوم مرت بنا   من هذه الغادة ذات الحجاب؟
قلت له : تلك لأوطاننا   حكومة جادبها الانتداب
نصيبها حسناء من زيها   ومانسوى (جنبول) تحت الثياب

ظاهرها فيه لنا رحمة والويل فى باطنها والعذاب
مصابنا أمسى فظيعا بها يارب ما أفظع هذا المصاب!
تالله قد حق لنا أننا نحثو على الأرؤس كل التراب

وفى قصيدة أخرى سماها (كيف نحن فى العراق) يحمل على الحكومة حملة شعواء ويقول إنها ليس لها من الحكم إلا اسمه، ومن السلطان إلا رسمه، فهذه أعلام ترفرف فى الفضاء، والبلد يئن من الفقر والإملاق والغريب فى العراق سيد، وكل أهله مسود حتى للهنود، وأبناء البلاد فى ظاهر أمرهم سادة وإن كانوا فى حقيقتهم عبيداً للأجانب وهو بعد كل هذه الحملات عديم الثقة بهؤلاء الإنكليز وبهذه الوعود التى يرسلونها، وليست هذه الوعود فى نظره إلا قيوداً يقيدون بها الأحرار من أبناء البلاد، ومن العبث أن تلتمس من الذئب الجائر شفقة على الحمل الوديع الضعيف، والعراقيون فى أيديهم أسارى، ويصب جام غضبه على المخدوعين بهذه الوعود حتى لتنفر القرود من قرابة هؤلاء السادة على أبناء جلدتهم، العبيد لغيرهم ممن يوجهونهم الوجهة التى يرضونها

وقصيدته (حكومة الانتداب) يعنف بها أقصى العنف وليس يبالى بعد ذلك أن يرمى بالتطرف:

أنا بالحكومة والسياسة أعرف أألام فى تفنيدها وأعنف؟
سأقول فيها ما أقول ولم أخف من أن يقولوا: شاعر متطرف

ثم يتابع خطته السابقة من تناول أبناء البلاد الذين يتربعون فى دست الحكم بالنقد اللاذع فيصفهم بأنهم يتظاهرون بالسطوة والصولة، وليس ذلك عن حقيقة ولكنه تصنع وتكلف، فقصدهم التمويه والغش ليوهموا أبناء البلاد أنهم القادة والسادة، لحقيقتهم حقيقتان: أولاهما ظاهرة خداعة ذات بطش وثانيتهما باطنة خفية مستكينة، وبين المظهر والمخبر بعد سحيق وبون شاسع. هذا رأيه فيهم يكرره ويؤكده.

علم ودستور ومجلس أمة   كل عن المعنى الصحيح محرف
أسماء ليس لنا سوى ألفاظها   أما معانيها فليست تعرف
من يقرأ الدستور يعلم أنه   وفقاً لصك الانتداب مصنف
من ينظر العلم المرفرف يلقه   فى عز غير بنى البلاد مرفرف
من يأت مطرد الوزارة يلفها   بقيود أهل الاستشارة ترسف

وهى طويلة تبلغ ثلاثة وأربعين بيتاً كلها على هذا المنوال من العنف والتطرف ، بما لم يسبق للرصافى مثله فى عصر الاستبداد أيام الحكم العثمانى .

وعندنا أن الرصافى بذلك كان حراً فى قول مايريد وفيه دلالة على أن الحكومة كانت تنهج نهجاً ديموقراطيا وهذه هى الحرية التى يستطيع المستظل بظلها أن ينقدها دون خوف ولا رهبة . ولو كان هنالك طغيان حقيق لما استطاع الرصافى أن يقول ما يشاء وأن تصدر عنه هذه الحملات الجريئة .

ويذكر المعاهدة التى ربطت العراق بحلف انكلترا فلا يراها محددة الحقوق والواجبات بين الدولتين المتعاهدتين ولكنه يراها بمنظاره الأسود ، وبما عرف عنه من التطرف فى التشاؤم ، قيداً من قيود الذل والاستعباد ، وصكا من صكوك الأسر والعذاب للعراق وساكنيه .

نشروا المعاهدة التى فى طيها   قيد يعض بأرجل الآمال
والعهد بين الإنكليز وبيننا   كالعهد بين الشاة والرئبال
من ذا رأى ذئب الذئاب مصالحا   بتودد حملا من الأحمال ؟
لكنهم خافوا انفكاك قيودنا   فاستوثقوا منهن بالأقفال
كتبوا لنا تلك العهود وإنما   وضعوا بها قفلا من الأغلال
شلت أكف موقعيها إنهم   حلت عليهم لعنة الأجيال
هب أنهم أمنوا انفكاك قيودنا   أفيأمنون تقلب الأحوال ؟

وقد عرفت أنه كان عضواً فى البرلمان العراقى الذى أمضى هذه المعاهدة

وكان أول معارض لها ـ ومن ثمرات هذا التطرف فى الرأى الذى منى به الرصافى أن أصبح يرى الوزارة لا تقوم إلا إذا رضى عنها الانكليز .

إن الوزارة لا أبالك عندنا ثوب يفصل فى معامل لندنا
لايرتديه سوى امرىء أضحى له طبعا وداد الانكليز وديدنا

عجيب هذا والله من الرصافى أن يصف قادة البلد بهذه الأوصاف التى لا تلتئم مع ما عرفوا به من صدق الوطنية ، وإنك لتعجب أكثر من ذلك إذا رأيت تقربه إلى هؤلاء ومدحه الرنانة لهم . وهو فى هذه المدائح يضفى عليهم ثياب الوطنية السابغة والإباء الذى لايرقى إليه الشك ، مدح منهم عبد المحسن السعدون ومدح نورى السعيد وغيرهما بغرر شعره ، وفرائد نظمه ، وحسبك أن تقرأ هذه القصيدة يهنىء بها نورى السعيد حينما أنعم عليه مليك البلاد بوسام الرافدين فى يوم ٢٦ من أذار سنة ١٩٣٢ :

ته يا وسام الرافدين بصدر من هو فى العلا للرافدين وسام
نورى السعيد أبو صباح من به سعد العراق فثغره بسام
قد أنعم الملك المطاع به لكى يزدان فيه وزيره الضرغام
ياحبذا ذاك الوزير وحبذا المـلك المطاع وحبذا الإنعام
زهى الوسام بصدره فكأنه تاج المليك يحفه الإعظام
صدر إذا الخطب ادلهم تلألأت فيه السجايا الغر والأحلام
وإذا تنهدت الصدور لحادث بدت الشجاعة منه والإقدام
ليس التفاخر بالوسام بهمه ولو انه افتخرت به الأقوام
بل همه أن تستقل حكومة ويتم فى أمر البلاد نظام
فعلى البلاد من الرئيس تحية وعلى الرئيس تحية وسلام

وقد نستطيع أن نلمح علة العلل فى الحملات التى أشرنا إليها مع هذا الثناء الزاخر الذى رأيت نموذجا منه ، وذلك أن الشاعر كان يرى نفسه من أقطاب

بلاده ، وأنه خدم هذه البلاد بروحه ، وبقلمه ، وبشاعريته ، وانه قد أتيح له في العهد التركي الوصول إلى ذروة ما يصبو اليه أمثاله إذ ذاك ، وهو تمثيل بلاده في المجلس النيابي التركي ، وذلك أمل من أعذب الآمال لمن يريد أن يسهم في الخدمة العامة لبلاده .

كان الرصافي يتوقع في العهد الجديد عهد الحكم الوطني أن يكون من ذوي المراكز الممتازة والمناصب العالية ، وكان يرى أن الأدباء في العصر العباسي قد وصلوا بأدبهم وحده إلى منصب الوزارة كالحسن وسليمان ابني وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات والحسن بن سهل ، وغيرهم كثير ممن أصبحوا في منصبهم وسطوتهم وسلطتهم يلون الخليفة في منصبه وسطوته وسلطته . فما باله وهو من ذكرنا وفي ديار العباسيين نفسها يضن عليه بما لم يضن به على نظرائه ممن لم يكافحوا كفاحه ولم يبلوا بلاءه ولم يجاهدوا جهاده في سبيل الوطن وحريته ؟

وعنده أن هذا التقدير للأدب والأدباء وإحلالهم هذه المنزلة الكريمة إنما هو خاصة من خصائص العروبة الحية ، وظاهرة من أدل الظواهر على التفوق ، فإذا انعدمت هذه الظاهرة فمعنى ذلك أن العروبة قد زالت آثارها ، أو فقدت أخص خصائصها . وفي الأبيات التالية ما يؤيد ما ذهبنا اليه من أن حرمانه من الجاه والنفوذ الذي كان يصبو إليه ويرى نفسه جديرا به كان من أهم الأسباب في هذه الثورة العادله أو الجائرة :

قد كان للعرب الأكارم دولة من بأسها الدول العظيمة ترجف
عاش الأديب منعماً في ظلها والعالم النحرير والمتفلسف
أيام كان المسلمون من الورى في ظلها لهم المحل الأشرف
ثم انقضى عهد العروبة مذ غدا عنها الزمان بسعده يتحرف
حتى تقلص بعد من سلطانها ظل بأقصى المشرقين مورف

وغدت ممالكها الكبيرة كلها لسهام كل دويلة تستهدف
فبنو العروبة أصبحوا فى حالة منها العروبة لا أبالك تأنف
والمسلمون بحالة من أجلها تالله ضج بما حواه المصحف

ويؤكد ما ذكرناه قصيدة أخرى عنوانها (بعد النزوح) قالها فى بيروت سنة ١٩٢٢ وكان قد غادر بغداد ساخطا على ألا يعود إلى العراق ، وفى هذه القصيدة تستشف أن سوء المعاملة التى عومل بها الشاعر الحر هو سبب هذه الثورة الجامحة فهو متعلق ببلده تعلق الطائر بعشه ، والعصفور بوكره ، ولكنه لا يسعده فيضطر اضطراراً إلى الهجرة عنه تربصا لما تأتى به الأيام ، ومطلع هذه القصيدة :

هى المواطن أدنيها وتقصينى مثل الحوادث أبلوها وتبلينى

وهى قصيده أليمة تفيض أسى ولوعة وتلوح منها أمارات الحزن العميق على ما أصابه من فشل فى الحياة وخيبة فى الآمال فى وطنه الذى رواه بدموعه وأسى جراحه بألحانه :

حتى متى أنا فى البلدان مغترب نوائب الدهر بالأنياب تدمينى ؟
فتارة فى الموامى فوق موقرة وتارة فى الطوامى فوق مشحون
كم أغرقتنى الليالى فى مصائبها فعمت فيهن من صبرى بدلفين
أنا ابن دجلة معروفا بها أدبى وإن يك الماء منها ليس يروينى
قد كنت بلبلها الغريد أنشدها أشجى الأناشيد فى أشجى التلاحين

إلى أن يقول فى هذه الأبيات العاطفية التى تثير الأسى وتهيج الشجون :

ويل لبغداد مما سوف تذكره عنى وعنها الليالى فى الدواوين
لقد سقيت بفيض الدمع أربعها على جوانب واد ليس يسقينى
ما كنت أحسب أنى مذ بكيت بها قومى بكيت على من سوف يبكينى

إلى أن يقول وهنا بيت القصيد :

أفي المروءة أن يعتز جاهلها ... وأن أكون بها في قبضة الهون
وأن يعيش بها الطرطور ذاشمم ... وأنه أسام بعيشى جدع عرنين
تالله ما كان هذا قط من شيمي ... ولا الحياة على النكراء من ديني
ولست أبذل عرضي كي أعيش به ... ولو تأدمت زقوما بغسلين

وبعد شيء من الفخر والحكمة يقول :

ما كنت أحسب بغداداً تحلئني ... عن ماء دجلتها يوما وتظميني
تالله ما ضاع حق هكذا أبدا ... لو كنت من عجم صهب العثانين
علام أمكث في بغداد مصطبراً ... على الضراعة في بحبوحة الهون؟
لأجعلن إلى بيروت منتسبي ... لعل بيروت بعد اليوم تؤويني
خابت ببغداد آمال أؤملها ... فهل تخيب إذا استذرت بصنين ؟

وفي هذا القدر الذي أوردناه الكفاية للتعريف بالرصافي في عهد الحكم الوطني لتتبين منه شعره السياسي في هذه الفترة وتعرف نوازعه ودوافعه .

إن الإباء الذي عرف عن الرصافي هو الذي أورده موارد الحرمان الذي قاساه فترة طويلة من حياته ، وجعله يحيا حياة الغريب ، في بلده الحبيب ومن عادة الأحرار قلة الشكوى ، والصبر على ما يصيبهم ، احتسابا لمبادئهم التي اعتنقوها ، وتضحية في سبيل أوطانهم التي هاموا بها ، ولكنك تجد الرصافي شاكيا حينا ، بل أحيانا ، ولقد عرفت سبب أناته ، ومبعث شكاته ، وهو شعوره بهضم حقه ، وعدم إحلاله ما هو أهل له من المنزله والمنصب .

وها هو ذا يردد الشكاة ، وينشدها فيلسوف الفريكة ، وكاتب العروبة الحر (أمين الريحاني) وليست شكوى الحر إلى الحر غريبة عند أهل النظر :

(شكوت وما الشكوى لمثلي عادة ... ولكن تفيض الكأس عند امتلائها)

يقول :

فديتك ! هل تصيخ فإن عندي ... شكاة لا تصيخ لها الخطوب ؟

إلى كم أستغيث ، ولا مغيث وأدعو من أراه فـــلا يجيب ؟

ثم يصور حياته بين قوم ملأت قلوبهم الأحقاد ، وتسرب إلى نفوسهم الفساد حتى أصبح لا يطمئن لصديق لطول ماقاسى من شرورهم ، فهم ينـكرونه إذا رأوه ، وهو ينـكر منهم نفوسهم التى انضمت على الإحن ، وقلوبهم التى تـكاد تميز من الغيظ :

أقمت ببلدة ملئت حقوداً علىّ فـكل ما فيها مريب
أمر فتنظر الأبصار شزراً إلىّ كأنما قـد مر ذيب
وكم من أوجه تبدى ابتساما وفى طى ابتسامتها قطوب

وقد انتهى به المطاف إلى حياة أصح ما توصف به أنها حياة الشريد ، الذى لا يجد مأوى يأوى إليه ، ولا إلفا يحنو عليه :

سكنت الخان فى بلدى كأنى أخو سفر تقاذفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيه لأنى اليوم فى وطنى غريب

ثم يبرر شكواه ، وهو الذى لم يعرف الشـكوى !

وإن أك قد شـكوت فما شكاتى إلى ذى خـــلة شىء معيب

فى الحفلة الترحيبية التى أقامتها وزارة معارف العراق لفيلسوف الفريكة أمين الريحانى[١] عند قدومه بغداد وقد جمعت حشدا من رجال العلم والأدب يتوسطهم سماحة الشهرستانى يجلس إلى يساره السادة مع حفظ الألقاب: الريحانى فالزهاوى فالحصرى فالجلبي فالرصافى، وفى الجالسين إلى يمينه السادة مع حفظ الالقاب: إبراهيم صالح شكر فيوسف عزالدين فطه الراوى فمنير القاضى

(من مجموعة معالى السيد هبة الدين . صورت فى أيلول سنة ١٩٢٢)

٣

فى سبيل العروبة

لننتقل بك أيها القارىء الكريم إلى لون آخر من شعره السياسى الذى تناول به وطنه الأكبر بلاد العروبة ، ولقد بان لك مما سبق من سياسياته فى العهد التركى تغنى الشاعر بالعروبة وتفاخره بها ، وإشادته بأمجادها ، ووعيده بغضبتها المضرية ، مما لم يبق معه متسع لتحليل قصائده العامة التى تتصل بهذه الناحية .

كان الرصافى من أول العاملين بما أرسله من الشعر الحى على بعث الأمة العربية من رقادها ، ونهضتها من الهوة التى تردت فيها ، وطرح أسباب المنافسة ، ونبذ أسباب الشقاق بينها ، وسد أبواب الخلاف التى يفتحها الأجنبى للحيلولة دون اتحادها . واجتماع كلمتها ، ذلك الأجنبى الذى اتخذ لنفسه المبدأ المعروف فرق تسد) ، وجعل منه تفرع سياسته ليصل بها إلى ما يبغى من غرس الأحقاد ، وحين ذلك يستطيع أن يغرس جذور الاستعمار ، ليحلوله الاستغلال مادام قد استطاع أن يصرف الناس من حوله إلى حرب النفوس ، ويصدق عليهم حينذاك قول الله تعالى « يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين » .

وأول من تنبه لذلك ونبه إليه معروف الرصافى الذى شعر بما لم يشعر به غيره . وصرح بأن الاتحاد قوة ، بل هو ضرورة من أهم ضرورات البقاء لمن يطمح فى البقاء .

كان الاتحاد بين شعوب الأمة العربية حلما من أحلام المخلصين ، ولكن ما كان أحد يظن أن تحقيق هذا الحلم اللذيذ ممكن فى عالم الحقيقة ، وتسرب إلى النفوس كثير من اليأس من تحقيق هذه الغاية المثلى ، فأدى ذلك إلى التكسل

وأسلم العرب الى التراخي ، وأصبح العراقي يظن أن لقاءه أخاه المصرى أو الحجازى أو الشامى أمل بعيد الوقوع أو على الأقل . . . ولكن دون ذلك أهوال ! ومن هذا اليأس فى الداخل ، ودسائس الأعداء نشأت هذه الفرقة واتسعت الهوة بين الإخوة ، ونشأ تبعا لذلك الإهمال الذى أدى إلى الجهل أو التجاهل بكل شيء مما يجب أن يعرفه العربى عن أخيه العربى ، وإلى عهد غير بعيد كان المصريون فى عزلتهم عن إخوانهم لا يعرفون من أحوال العراق شيئا فى عصره الراهن . لقد قرءوا عنه كثيراً ! ولكن أين ؟ فى كتب السابقين الغابرين .

وتلك حالة تدعو إلى العجب ، بل إلى الدهش ، فتاريخ الأمة العربية فى عصور الجاهلية البعيدة يدرسونه ويفقهونه ، وتاريخ السيرة النبوية وعهد الخلفاء يعرفونه معرفة مؤرخيه ، وتاريخ الأمويين ، وتاريخ العباسيين ، كل ذلك درسوه دراسة فاحصة، تتعدى الإجمال الى التفصيل، والمتعلمين الى العامة .

أما تاريخ إخوانهم المعاصرين الذين أصبح اتصالهم بهم سهلا ميسورا ، فما أجهلهم به ، وما أقلهم معرفة بما قطع العراق وغيره من أشواط فى نهضته الحاضرة .السبب فى ذلك هو هذه الهوة العميقة التى احتفرها العدو المشترك بينهم وبين من يحبون ، وأدى هذا إلى عدم إلمامهم بأحوالهم فى عصر توثبهم ، والناس أعداء ما جهلوا !

كان لهذه الحالة الأليمة أثرها فى نفس الشاعر ، فعرف هذا الجفاء وتبين أسبابه ، وعرف أنه خلاف غير طبيعى بين الأخ وأخيه ، وأن هذه النفوس المتفرقة أيدى سبأ لابد أن تعود لها وحدتها الطبيعية كاملة غير منقوصة .

ولا نعرف شاعرا فى هذا العصر آمن بهذه الوحدة . إيمان شاعرنا الخالد الرصافى ، ولا نعرف شاعرا تغنى بها وما مل الغناء ، والناس عنه فى شغل حتى أصغت الآذان إليه وأصاخت القلوب لألحانه مثل الرصافى .

ففى قصيدته (بين تونس وبغداد) التى أنشدها فى حفلة التأهيل والترحيب

بالزعيم التونسى (عبد العزيز الثعالبي) عند قدومه بغداد سنة ١٩٢٥ يعبر عن عواطف الحب التى تفيض بها قلوب البغداديين نحو إخوانهم أهل تونس :

أتونس إن فى بغداد قوماً ترف قلوبهم لك بالوداد
ويجمعهم وإياك انتساب إلى من خص منطقهم بضاد
ودين أوضحت للناس قبلا نواصع آيه سبل الرشاد
فنحن على الحقيقة أهل قربى وإن قضت السياسة بالبعاد
وماضر البعاد إذا تدانت أواصر من لسان واعتقاد ؟
وإن المسلمين على التآخى وإن أغرى الأجانب بالتعادى
أتونس إن بجدك ذو انتماء إلى عليا نزار أو إياد

وفى هذه القصيدة ترى الشاعر جمع بين رابطتين وربط بين جامعتين ، أولاهما جامعة اللغة التى تميز القوم عن القوم والجنس عن الجنس ، وتلك جامعة العروبة ، وثانيتهما جامعة الدين ، أى الجامعة الإسلامية ، وهى وشيجة تصل المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها مصداق قول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » .

وقد كان لكلتا الجامعتين مقام ، وانقسم الناس أحزاباً ، منهم من يريدها جامعة العروبة الشاملة كل من ينطق بلسان عربى دون نظر إلى دين أو طائفة أو مذهب . وإنما تتكون هذه الجامعة من مجموعة الأمم التى تضمها وحدة اللسان والجنس والعادات والتقاليد وهى بهذا المعنى أعم من الجامعة الإسلامية التى تضم كل من شهد أن (لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) فيدخل فى الجامعة العربية المسلمون والنصارى دون نظر إلى تعدد النحل وتشعب المذاهب واختلاف الطوائف ، وهى أخص من الجامعة الإسلامية من ناحية أخرى لأنها تنفى عدداً غير قليل من الأمم التى تدين بالإسلام وليست عربية الأصل واللسان كإيران وأفغانستان والهند وكردستان وتركية ومعتنق الإسلام عامة فى أوربا وفى غيرها .

وفى زمن الرصافى كان للمذهبين أنصار. ويتمثل أنصار الجامعة الإسلامية فيمن يفضلون بقاء الاستظلال بالراية التركية والسيادة العثمانية ولأن الجالس على عرشها خليفة المسلمين وأمير المؤمنين .

وأنصار الجامعة العربية يتمثلون فى جماعة العرب الثائرين على الحكم التركى الذى اعتوره فى بعض فتراته شىء من التعصب الدينى .

وإنك لتقرأ الوحدة العربية فى أكثر قصائد الرصافى فترى دعوته إلى طرح الخلافات الدينية والنعرات الطائفية ، لأن كل أبناء الوطن سواء فى التمتع بخيراته والنهوض بواجباته وتبعاته ، كما تجده لبعض ما قدمنا من الأسباب من دعاة الوحدة الإسلامية أحيانا ، اقرأ له فى قصيدة « فى سبيل الوطن » وكلها نداء لإخواننا المسيحيين لينسوا الأضغان ولتبنى الأوطان على أساس من الأخوة والتعاطف .

علام التعادى لاختلاف ديانة   وإن التعادى فى الديانة عدوان ؟
وما ضر لو كان التعاون ديننا   فتعمر بلدان وتأمن قطان ؟
إذا جمعتنا وحدة وطنية   فماذا علينا أن تعدد أديان ؟

والإنجيل والقرآن كتابا الله نزلا لإسعاد البشر فكل من حدثته نفسه بدعوة إلى التفرقة متعصباً لدينه ، فدعوته باطلة ، لا يقره عليها شرع ولا يشد أزره سند من دين، وإذا كان هذا الدين سبب الشقاء بسبب حماقة بعض الجهال والمتكسبين به فاتباع الدين عند الرصافى خسران !

الوطن هو الأم الرءوم الذى غذى أبناءه بدره ، وهو المستقر والمستودع وفى قلبه العطف والحنان لسكانه أجمعين . ولذلك ترى الرصافى يعتب على بعض بنى العروبة من غير المسلمين ، هذا التصابر والتوانى فى سبيل الوطن وواجبهم النهوض لافتدائه وذود الطامعين فيه .

مواطنكم يا قوم أم كريمة   تدر لكم منها مدى العمر ألبان

فى حضنها مهد لكم ومباءة ... وفى قلبها عطف عليكم وتحنان
فما بالكم لا تحسنون وواجب ... على الابن للأم الكريمة إحسان؟
أصبراً وقد أمسى العدو يهينها ؟ ... أما فيكم شهم على الأم غيران ؟
أجل إنكم تأبى الحياة نفوسكم ... إذا لم يكن فيها على المجد عنوان
ألستم من القوم الذين علاؤهم ... تقاعس عنه الدهر وانحط كيوان؟
نمتكم إلى المجد المؤثل (تغلب) ... كما قد نمتكم للمكارم (غسان)
فلا تنكروا عهد الإخاء وقد أتت ... تصالحكم فيه (نزار) و (عدنان)
أجب أيها الندب المسيحى مسلماً ... صفا لك منه اليوم سر وإعلان

فإذا ما تمت هذه المؤاخاة واستجاب الأخ لأخيه فلا ضير على الوطن ولا خشية من عدو كان يعمل جاهداً لإحداث ثلمة فى الصفوف ، وتفريق الأهواء وعادت البلاد عرينا لا تستطيع الدنو منها الثعالب التى همها العمل على الفرقة والقضاء على الألفة .

وتملك الحماسة العربيــة على الشاعر حسة فينطلق فى فخر فاخر ، وشجاعة مضرية يهدد بالضراغم الشداد تهديداً يثير النقع ويعبث بالبعض الهندوانية والمشرفية اليمانية ، ووراء كل ذلك النهضة التى يرقبها لهذه الأمة الآتية .

سننهض للمجد المخلد نهضة ... يقربها (حوران) عينا و(لبنان)
وتعتزمن أرض الشام (دمشقها) ... وتهتز من أرض العراقين (بغدان)
وتطرب فى(البيت المقدس)صخرة ... وترتاح فى (البيت المحرم) أركان
وتحسن للعرب الكرام عواقب ... فيحمدها (مفت) ويشكر (مطران)

هذه هى العاطفة العربية المشبوبة فى نفثات الرصافى ، وهو يرحب بكل حركة تحريرية ، وفكرة إصلاحية يصيب الوطن العربى منها خيراً أو يزيل عنه بها حيفا .

فلقد قام (الإصلاحيون) فى بيروت، يطالبون الدولة العثمانية بالإصلاح

فقام الرصافي يؤيدهم ويدعو العرب جميعا إلى الانضمام إليهم فصاغ قصيدته (في معرض السيف) وفيها يذكر حاجة هذه الأمة إلى القوة التي تجعل حقها مشهورا ، بعد أن ثبت في مرات كثيرة أن هذه الأمة لقيت الدستور باللين والرفق ، فلم يجدها اللين ولم يفدها الرفق، فلا حق بعد ذلك إلا ما تؤيده القوة :

فالعلم ما قارنته البيض مفخرة　　والحق ما وازرته السمر محترم
وإنما العيش للأقوى فمن ضعفت　　أركانه فهو في الثاوين مخترم
والعجز كالجهل في الأزمان قاطبة　　داء تموت به أو تمسخ الأمم
والمجد يأثل حيث البأس يدعمه　　حتى إذا زال زال المجد والكرم

هذه أبيات من القصيدة التي استقبل بها الرصافي حركة هؤلاء (الإصلاحيين) وهي طويلة فارجع إليها في ديوانه[1] .

ولكنه لا يلبث أن يطلع على لائحة هؤلاء الإصلاحيين فيرى فيها ما يبدد أحلامه ويقض مضجعه وهي الدعوة إلى النعرة الطائفية والعصبية الدينية فتأخذه اللوعة لخيبة آماله فيهم ، ويوجه إليهم قصيدته التي عنوانها (ماهكذا ؟) وفيها يندد بهم ويعيب عليهم ماذهبوا إليه من الدعوة إلى الفرقة وهم في أول طريق الوحدة ، وأصبح يوسعهم لوما وتقريعا على هذه الدعوى الباطلة ، وقد كان يعهدهم لا يعرفون غير العروبة دينا .

راموا الصلاح وقد جاءوا بلائحة　　خرقاء تترك شمل الشعب مشعوبا
قد كلفوا شططا فيها حكومتهم　　وخالفوا الحزم فيها والتجاريبا
عدوا النصارى وعدوا المسلمين بها　　ونحن نعهدهم طرا أعاريبا
قد حكموا الدين فيها فهي معربة　　عما يكون لدعوى القوم تكذيبا

إلى أن يقول :

---

(١) ديوان الرصافي صفحة ٣٠٧ .

أفى مصالح دنياهم وهم عرب ... جاموا على حسب الأديان ترتيبا؟
ما ضرهم لو نحوا فى الأمر جامعة ... تنفى الكنائس عنها والمحاريبا؟
لكنهم أمة تأبى مشاربهم ... إلا التعصب للأديان مشروبا

ثم تأخذه الشفقة عليهم فانهم لم يلتمسوا للنجح أسبابه، ولم يلجوا للفوز أبوابه، وإنما اشتطوا، فما يغنى عنهم طيشهم واشتطاطهم:

قد حاولوا الحق واشتطوا بمطلبه ... حتى بدا وجهه كالليل غربيبا
قد يطلب الحق طياش فيبطله ... ما كل طالب حق نال مطلوبا

ويعود فيذكر القوم بما رحب بهم حين عرف أنهم يريدون إصلاحا، وقد طلب لهم فوزاً وتوفيقا، وكيف شجعهم بشعره الذى غازل فيه الأمانى حتى بدا الشر فى لائحتهم التى إن دلت على شىء فإنما تدل على فساد رأيهم، وكأنهم بهذا الشطط أفسدوا مطالبهم، وقضوا على حقهم بأيديهم، والحق لا يحين إلا إذا تهيأت له النفوس يداً واحدة وقلبا واحداً.

وأعجب الأعاجيب أن أحد زعمائهم (حقى العظم) وكان إذ ذاك فى مصر يبرق برقية إلى جريدة (الطان) الفرنسية يطلب فيها إلى حكومة فرنسا أن تنقذ سوريا بالتدخل فى أمرها، وهنا يحمل الرصافى عليه حملة شعواء فيقول:

وهل تعمد (حقى العظم) فعلته ... لما نمى خبراً (للطان) مكذوبا؟
إذ راح يستنجد الأفرنج منتصفا ... كأنه حمل يستنجد الذيبا

أرأيت أيها القارىء هذه الثورة العنيفة يرسلها الرصافى شواظا من نار على هؤلاء الذين أفسدوا الوحدة الجامعة بهذه الأوهام التى خلقوها والنعرات الطائفية التى ابتدعوها فشوهت حقهم البين الواضح فى الحرية والاستقلال،

وأظنك تجده هذ الثورة العنيفة لم يقصد بها الشاعر مدينته بغداد ولا وطنه العراق، وإنما أرسلها صيحة مدوية فى الآفاق فى سبيل هذه العروبة التى يتكلمها

أن يتفرق أشياعها وأن يتيهوا فى بيداء التعصب والضلال ،فكانوا كمن سعت إلى حتفها بظلفها ، وما يجديهم التقرب إلى الفرنسيين الذين أخذوا يعيثون بين البلاد السورية اعتساس الذئب فى أودية الفرائس يبحث عن ضحية يتلهى بها وفريسة يشبع نهمه من دمائها وأشلائها .

لـكن باريز مازالت مطامعها ترنو إلى الشام تصعيداً وتصويبا
ولم تزل كل يوم من سياستها تلقى العراقيل فيها والعراقيبا
هل يأمن القوم أن يحتل ساحتهم جيش يدك من الشام الأهاضيبا؟

وبعد هذا العتب الممض واللوم الجارح ثار على الرصافى قوم منهم وأخذت صحفهم تشنع عليه وترميه بما هو منه براء . وذلك بأن اتهموه ظلما بأنه يعمل على إبقائهم مصفدين فى أغلال الاستعباد حرصاً منه على إرضاء الدولة الحاكمة التى كان يقيم فى حاضرتها (الآستانة) إذ ذاك .

قلق الرصافى لأن القوم فهموا نصحه على غير وجهه ولـكنه لم يكن بهم فى هذه المرة رفيقاً فصب عليهم جام غضبه ، ورماهم بطرفى الفضيلة وكلاهما رذيلة ولم يعمل الرصافى لباقته فى خطابهم فكان أيضا مسرفا كما كانوا مسرفين لجانب النصح والإرشاد إلى الهجاء والإقذاع ولم يكن يجدر به أن ينحو هذا المنحى وهو الذى نصب نفسه مرشداً ومعلما فى مدرسة الوطنية التى يترفع فيها الزعيم عما يصيب شخصه أو يناله من كيد الكائدين ، ومن ذلك قوله فيهم :

قل للألى نطقوا بالضاد مدغما لم يدغم الضاد آباء لـكم فرطوا
أيحسن اللحن إذ آباؤكم فصحوا ؟ أم يحسن العجز إذ آباؤكم نصحوا؟
فيكم غلو وتقصير وبينهما ضاع المراد ألستم أمة وسط ؟

ويدع هذا إلى الهجو المقذع الذى يذكرنا بمناقضات جرير والفرزدق حين احتدم بينهما الخصام [1].

---

(١) فى القصيدة التى هجا بها أهل الشام هجو مقذع للعرب لا يقدم عليه

إنى ابتليت بقوم يعرون على ... أعقابهم واذا عنفتهم ثلطـــوا
شطوا بأقوالهم حتى لقد غضبوا ... إذ قلت : ياقوم فى أقوالكم شطط
فبدلوا القول إن صحت عزائمكم ... فعلا وإلا فإنى يائس قنط
قد حرت فى الأمر : إنى حين أسخطهم ... يرضون عنى وإن أرضيتهم سخطوا

وعند الرصافى أن قوما يسرفون فى الاتهام ويختطون لأنفسهم هذه الخطة التى عابهم عليها ، وهى الانحياز للهوى والتعصب ، غير جديرين بنسبتهم للعروبة ، التى تتناسى فى سبيلها الغايات الشخصية ، والنزعات الطائفية :

قل للأعاريب قد هانت مكارمكم ... حتى ادعاها أناس : كلهم نبط
رثت للعرب العرباء من فئة ... ينمون للعرب إلا أنهم سقط
أين المكارم إن هم أصبحوا عربا ... فإنها فى طباع العرب تشترط ؟
إن يغمطونى لأنى جئت أنهضهم ... فأى مستنهض ذى نجدة غمطوا ؟

ويعود الرصافى مرة أخرى إلى الهجو المقذع والتشبيهات القبيحة والعيوب يلصقها بهم مما يأبى القلم أن يسطره فارجع فى ذلك إلى ديوانه إن شئت .

من يجرى فى عروقه دم عربى ولو كان ناقما من قومه ، وكان موقف الرصافى من الحركة القومية الاصلاحية التى بعثها شباب العرب فى بيروت وغيرها من الديار السورية ، وقد ساهم فيها فريق من الجالية العربية فى مصر وقد طولب فيها الأتراك على لسان إخوانهم العرب بالكف عن الاستبداد فى الحكم ، وبخس حقوقهم فى إدارة شئون بلادهم خصوصا فى عهد الدستور . كان موقف الرصافى من هذه الحركة موقف الخصم الشديد ، وهو لا يقل عن موقف أى تركى معتز بنعرته القومية ، والدليل على ذلك أنه أقذع فى الهجاء ونسب إلى العرب مانسبه من المساوى والمعايب التى نسبها إليهم الشعوبيون ، بل أعاد ماقاله الشعوبيون فى هذا الباب ، وله فى هذا الموضوع عدة قصائد أثارت عليه شباب الأمة العربية العاملين فى أكثر بلاد الدولة .

(العلامة الشبيبى)

وكم للرصافي من قصائد يزخر بها ديوانه ، تناول فيها بلاد العربية جميعا وكأنه سليل هذه البلاد جميعا ، فلم يقف شاعريته على العراق ، ففي قصيدة (إلى هربر صموئيل) تراه يشيد بموقف هذا المندوب السامي في فلسطين، وما وعد به العرب من مواعد سياسية طرب لها العرب ، وطرب لها الرصافي ، وستعجل هذه الوعود ، وحث على تحقيقها ، قال:

وعدت فأمسى القوم بين مشكك ومنتظر الإنجاز منشرح الصدر
فكذب ، وأنت الحر من ساء ظنه فقد قيل : إن الوعد دين على الحر
ولسنا كما قال الألى يتهموننا نعادي (بني إسرال) في السر والجهر
وكيف وهم أعمامنا وإليهم يمت بإسماعيل قدما بنو فهر ؟
وإني أرى العربي للعرب تنتمي قريبا من العبري ينمى إلى العبر
هما من ذوي القربى ، وفي لغتيهما دليل على صدق القرابة في النجر

وتليها قصيدة رائعة عنوانها (مظاهر التعصب في عصر المدينة) قالها بعد ما ألقى الجنرال (غورو) على المسلمين خطابه المشهور في بيروت ، بعد الهدنة وقد فخر (غورو) بأجداده الذين أثاروا الحروب الصليبية ، فنكأ جرحا كان قد التم . وأعاد إلى نفوس المسلمين ذكريات بطولة أسلافهم :

وقلت عن الإفرنج قومك : إنهم لأبطال هاتيك المعارك أنسال
فحركت حزنا كان في الشرق ساكنا وجددت عهدا منه في الشرق أوجال
أسأت إلينا بالذي قد ذكرته من الأمر فاستاءت عصور وأجيال
ذكرت لنا الحرب الصليبية التي بها اليوم قد تمت لقومك آمال
وتلك لعمري قرحة قد نكأتها بما قلته فاهتاج بالشرق بلبال

ولا يدع الرصافي هذا الموقف يفلت من يديه ، قبل أن يناجي قبر البطل (صلاح الدين) الذي رد الصليبيين على أعقابهم مدبرين . ويود لو انشق هذا القبر ليبعث منه حامي الذمار ، ليرد على (غورو) قولته :

خليلى قومانى نطأطىء رءوسنا ... لدى جدث تعنو لمن ضم أجبال
لدى الجدث الفرد الذى فيه قد ثوى ... من الملك الفرد (ابن أيوب) رئبال
فنبكى على الأوطان حول رجامه ... كما قد بكت من فقدها الأم أطفال
ونستترف الدمع الغزير لتربه ... كما استترفت دمع المحبين أطلال
حنانيك ياقبر ابن أيوب فانصدع ... لينهض ثاو فى مطاويك مفضال
إليك صلاح الدين نشكو مصيبة ... أصيب بها قلب العلا فهو مغتال

واقرأ له قصيدة (يا محب الشرق[1]) التى أنشدها فى حفلة أقامها الحزب الوطنى فى بغداد لتكريم المستر كراين المثرى الأمريكى المعروف بمناسبة مجيئه إلى بغداد سنة ١٩٢٩ لترى ترحيب الرصافى بهذا الأمريكى حينما رأى فيه ادعاء محبة الشرق ، وأنه لا يقل شأنا عن (ولسون) صاحب المبادىء المشهورة ويرجو أن يكون (كراين) داعية خير للعروبة والشرق .

ومما يدل على يقظة الرصافى وانتباهه إلى أحداث البلاد العربية ، وجزعه لما ينزل بها من خطوب قصائده الكثيرة التى ترى فيها هذا التتبع الكريم للوطن العربى .

فمن ذلك قصيدته (دمشق تندب أهلها) ينشدها أهل بغداد لحثهم على التبرع السخى ، والبذل الكريم فى سبيل إخوانهم أهل الشام ، استمع إليه فى وصف مؤلم :

بكت فى ظلام الليل تندب أهلها ... بصوت له الصخر الأصم يلين
وباتت وقد جل المصاب حزينة ... بها فى ضواحى الغوطتين أنين
تئن وقد مد الظلام رواقه ... وخيم صمت فى الدجى وسكون
إذا هى مدت فى الدجنة صوتها ... تميد له فى الغوطتين غصون
وتلهب منه فى الفضاء شرارة ... فتبصرها فى الرافدين عيون

---

(١) ديوان الرصافى ص ٤١٤ .

وتهيو له فى ساحل النيل هبوة   أبو الهول منها واجد وحزين

وهكذا يرى الرصافى خطب أهل الشام بحريقهم خطب بلاد العروبة جميعاً يتجاوب صداه فى وادى الرافدين ، وفى وادى النيل ، وإنك لتلحظ هذا المعنى فى كثير من قصائد الرصافى ، وأعنى بذلك أسى أرجاء العروبة جميعاً إن ألمت بإحداها ملمة ، كما رأيت ذلك فى قصيدته (واشيخاه) التى رثى بها أستاذه (محمود شكرى الألوسى) وغيرها من القصائد .

وتقرأ تحيته للمليك الشاب (فاروق الأول) فلا يساورك شك فى أنه واحد من أبناء الكنانة يحس ما يحسون .

وفى قصيدة «فى حفلة شوقى» تراه بعد أن يثنى على شاعرية شوقى بما هى أهل له ، يعرض لما كان فى مصر من ثورة على بعض أصحاب الأقلام ، الذين أحدثت كتاباتهم ضجة ودويا ، فيعجب لتكريم شوقى ، وقذف غيره من المفكرين بالزندقة والإلحاد :

إذا احتفلت مصر بشوقى فمالها   تقيم على الأحرار فى العلم حاجرا ؟
فقد أسمعتنا ضجة أمطرت بها   عليا[1] وطه[2] حاصبا متطايرا
فما بال هذا عد فى مصر مارقا ؟   وما بال هذا عد فى مصر كافرا
إذا لم تك الأفكار فى مصر حرة   فليس لمصر أن تكرم شاعرا

وهكذا تجد الرصافى لا يقف شاعريته الملهمة عند هذا الوادى، بل يطلق عنانها تطوف فى هذه الآفاق البعيدة التى هام بها الرصافى هياما لم يقع لكثير من شعراء العربية فى العصر الحديث .

هذه أمثلة سقناها لنبين أن الشاعر الحر فى شعره السياسى قد وهب نفسه لهذه العروبة التى ولع بها ولوعاً ظاهراً وعنف فى سبيلها من يرجو منهم النصرة

---

(١) هو الأستاذ على عبد الرازق بك .

(٢) هو الدكتور طه حسين بك .

على تحقيق آماله فى رفعة العروبة والسمو بها إلى الغاية التى يرجو هالها[١] ، ولهذا الشعر السياسى أمثال كثيرة ، فهو لا يختص به قوما دون قوم، ولا بلداً دون بلد فهو يشيد بما يراه فى أرجاء البلاد العربية المترامية الأطراف من ممادح ومآثر يرى فيها سببا من أسباب النهوض بالوطن العربى والقومية العربية وينتقد ما يرى فيها مما يحط من شأن العروبة ، أو يقف عثرة فى سبيل حريتها المسلوبة ، أو أملها المرتقب من التمتع بالكرامة بين أمم الأرض قاطبة . استمع إليه مرة أخرى يستنهض الأمة العربية ويدعوها إلى غايته التى جهد فى الدعوة إليها وهى الوحدة التى تجمع الشمل وترد العدو على أعقابه :

لهفى على العرب أمست من جمودهم … حتى الجمادات تشكو وهى فى ضجر
أين الجحاجح ممن ينتمون إلى … ذؤابة الشرف الوضاح من (مضر)
قوم هم الشمس كانوا والورى قمر … ولا كرامة لولا الشمس للقمر
راحوا وقد أعقبوا من بعدهم عقباً … ناموا عن الأمر تفويضا عن القدر
أقول والبرق يسرى فى مراقدهم … ياساهر البرق أيقظ راقد السمر

---

(١) وللرصافى فى هذه الناحية صفات متباينة فهو أبى الضيم ككل شاعر مرهف الحس رقيق الشعور يميز أقوى تمييز بين محاسن الاخلاق ومساويها ، ومن شأنه أن يدعو فى شعره إلى الترغيب فى السجايا الخيرة الجميلة والترهيب فى الصفات البشعة الذميمة كل ذلك من شأن الشاعر المجيد وفى شعر الرصافى شواهد عديدة من هذا القبيل غير أنه قد سف فى كثير من الأحايين إلى مستوى شعراء المناسبات فمدح وهجا بل أغرق فى المدح وأقذع فى الهجاء وهذا فى رأينا مما لا يأتلف مع تلك الأخلاق الرفيعة وكان الرصافى على الأغلب مدفوعا فى كثير من قصائده ومقطعاته التى نظمها فى الهجاء بدافع الحقد والضغينة ممن يعتقد أنهم لم يقدروا أدبه ونبوغه حق قدرها ولم يكافئوه على ذلك :

(العلامة الشبيبى)

ياأيها العرب هبوا من رقادكم فقد بدا الصبح وانجابت دجى الخطر

ثم يأخذه الأسى لو عورة المسلك والعرب منقسمون :

كيف النجاح وأنتم لا اتفاق لكم يا أكثر الناس عداً غير منحصر

ويتجاوز الرصافي هذه الدائرة الواسعة التي شملت البلاد العربية إلى دائرة أوسع ، وكأن هذا الرجل يعنيه ما يعنى كل مظلوم فأصبح يبكي لكل ملبة وإن نزلت بغيره فتراه ينظر إلى ماحاق بالهند نظرة الوله المتحير فى العدد الكثير الذى أصبح مستعبداً لفئة قليلة من المستعمرين وفى قصيدته (الفيل والحمل) التى خاطب بها الزعيم الهندى (مولاى محمد على) عندمروزره ببغداد سنة ١٩٢٩ ترى الرصافى يستبدل بتحية هذا الزعيم الضيف عتابا فيه التهكم المر والألم الممض على ما انتهى إليه أمر الهند التى تزخر بالناس والخيرات، وتقاسى من مصائب الاستعمار ما تقاسى وفى هذا دلالة على أن الشاعر عدو للإستعمار ولاستعباد الشعوب حيثما وجد :

إليك زعيم الهند أورد هاهنا سؤالا له أرجو الجواب تفضلا
فنحن هنا فى مجلس ذى أمانة فلم يخش فيه الحر أن يتقولا
إذا ما سمعت الهند فى قول قائل تخيلت فيلا بالحديد مكبلا
تزجيه كف الأجنبى مسخراً فيمشى بأعباء الأجانب مثقلا
ويبرك أحياناً على الأرض رازحا له أنة من ثقل ما قد تحملا
وينخس أحيانا فتعلوه رجفة فيمضى على رغم القيود مهرولا
وإنى أظن الفيل صاحب قوة تكون له لوشاء من ذاك موئلا

ثم يستحث الهنود على الثورة واستجماع القوى وجمع الكلمة وليس يعجزهم بعد ذلك الوصول إلى حقهم فى الحياة :

فلو قام هذا الفيل واستجمع القوى لهز بها شم الجبال وقلقلا

وكم جرت هذه الجرأة والصراحة من الجرائر على الشاعر بقدر ما بثها فى

كل بيت من أبياته وفى كل نفثة من نفثاته، فقد أغضب إخوانه واتهم أصدقاءه، وتعداهم بسخطه إلى من بيدهم الأمر، فكان ذلك للشاعر نكالا وعليه وبالا ولم يصن شعره عن هجو الأمراء، وذم الوزراء، ولو كانوا فى غير بلده مما أحفظ عليه قلوب أكثرهم وجعلهم ينأون عنه .



فى الحفلة التكريمية التى أقامها المغفور له حمد الباسل باشا ترحيبا بالرصافى وصحبه حين زار مصر فى ربيع سنة ١٩٣٦ ، وقد جمعت هذه الصورة بعض زعماء مصر وقادتها وأدبائها وقد توسط الجالسين المغفور له أحمد ماهر باشا وإلى يمينه معالي مكرم عبيد باشا فالأستاذ محمد بهجت الأثرى وإلى يساره معروف الرصافى (بالزى العربى) وقد وقف الباسل باشا يحيى ضيوفه .

٢

فى سبيل المجتمع

مَنْ لَيْسَ يُبْكيهِ مِنْ أبناءِ جلدَتِهِ بُكاؤُهُمْ فهو مِنْ جنسِ التماسيحِ
(الرصافى)

نقل ابن خلدون فى مقدمته عن الحكماء قولهم « الإنسان مدنى بالطبع » ويأخذ فى شرح هذه العبارة ، وبيان المقصود منها ،وخلاصة ما ذهب اليه أنه مدنى بالنسبة إلى المدينة ، التى هى أصل المجتمع الإنسانى ، ومن فى هذه المدينة أو من فى هذا المجتمع ، لا يسعه بحال من الأحوال ، أن يستغنى عن غيره، أو يحيا فى منأى عن حياة الجماعة ،

وهذا المعنى الذى قرره الحكماء فيما سلف من الأزمنة حبراً على ورق من حيث السعى لتحقيق هذا الهدف الأسمى ، والغاية المثلى ، التى رمى إليها العلماء أصبحت الحوادث فى عصرنا توثقه ، وأخذت الأيام تحققه ، فلم تبق المنفعة هى الرابطة التى تربط الأخ بأخيه فى الإنسانية ، وتصدر عنها صلات الأخوة وصفات الإنسانية ، بل تجاوز ذلك المعنى هذه الغايات النفعية التى كانت تسيطر على الإنسان فى عصور الهمجية والظلام ، ولقد أصبح من سمات هذا العصر ألا يسمى إنسانا من كان يعيش لنفسه فقط . وإنما الانسان فرد فى هذه الجماعة يحس ماتحس ويشعر بما تجد ، وهذه هى الإنسانية التى أصبحت الوشيجة المثلى ، والعروة الوثقى ، بين بنى الإنسان .

ولا نكاد نجد شاعراً من شعراء العربية فى سائر عصورها أهمه المجتمع الذى

يحيا بين ظهرانيه ما أهمه الرصافى الذى هتف بأسباب علائه ، وشاد بعوامل ارتقائه ، وبكى ما يجد من تعاسته وشقائه !

١

نشأ الرصافى فى البيئة التى وصفنا ، وهى بيئة سادها التأخر والانحلال نتيجة الإهمال الذى كانت تعانيه من حكامها وولاتها ، الذين لم يفكر واحد منهم فى النهوض بها من هذه الهوة التى تردت فيها لأنه قد يجد فى إنهاضها عاملا من عوامل كسر شوكته ، والثورة على سلطانه ، إذا فهم الناس حقوقهم فى الحياة وعرفوا واجباتهم تجاهها .

أما الواجبات فإنهم يعرفونها فى إذعان ، ويؤدونها فى سخرة . واستعباد فى ضرائب يؤدونها راضين أو كارهين ، وفى جندية ينتظمون فى سلكها ، وفى حرب يخوضون غمارها ، ويصلون نارها ، وليس لهم فى هذا الخوض نفع كثير أو قليل .

إنهم يعرفون هذا الواجب جيداً ، وان لم يعرفوه طائعين ، فسيعرفونه قسراً وإرغاما ، ولكنهم لم يعرفوا الواجبات المتطلبة منهم نحو إخوانهم فى الوطنية والشعور . وأعنى بهم أبناء العراق ، من مقتضيات الأخوة كالتعاطف والتراحم ، والبر والتنافس فيه ، وإقامة صروح العدالة بين الرعية المشتركة فى الغرم والغنم .

وكذلك لم يعرفوا حقوقهم فى الحياة ، حقوق التعلم ، ومحاربة الفقر ، ومكافحة المرض ، والتطلع لحياة سعيدة ، يستوون فيها مع بنى البشر الآخذين بأسباب النهضة والحضارة فى مشارق الأرض ومغاربها .

وليس من سبيل يسرى بهم إلى هذه الغاية من المعرفة التى تبصرهم بما يتوقون إليه إلا التعلم . الذى يهذب نفوسهم ، ويلطف من غلوائهم ويخفف من حدة عواطفهم ، ويشعر الناس أنهم سواسية فى كل شىء .

لقد هام الرصافي بالعلم وبثه هياما عجيبا ترى أثره في أكثر قصائده الاجتماعية وفي أكثر قصائده السياسية أيضاً ، قبل الدستور العثماني وبعده ، وفي عهد الانتداب . وفي ظلال الحكم الوطني في العراق .

ويقض مضجع الرصافي أن يحيا قومه في مهاوى الظلمات ، وقد أقيمت للعلم صروح في أرجاء العالم ، ووجد العلماء المبرزون في أودية العلم المختلفة ، فكانت المبتكرات والمستكشفات والمخترعات التي أدنت القاصي وسهلت الصعب ، وذللت الوعر ، وأصبحت الأمم لا تقاس بجيوشها الجرارة ، ولا بسيوفها البتارة ، بقدر ما تقاس بعلمائها المبرزين ، وأعلامها المفكرين :

أيها الناس إن هذا العصر عصر الـ ... ـعلم والجد في العلا والجهاد
عصر حكم البخار والكهر ... بائية والماكينات والمنطاد
بنيت للعلوم فيه المباني ... وأقيمت للبحث فيها النوادي
فاض فيض العلوم بالرغم ممن ... ضربوا دونهن بالأسداد
إن للعلم دولة خضعت دو ... ن علاها عوالم الأضداد
ما استفاد الفتى وإن ملك الأر ... ض بأعلى من علمه المستفاد

وعنده أن العالم الأصيل ، هو الفارس المجلي في حلبة الزمان ، ولن يبلغ شأوه الهجين الجهول ، وأن العلم وحده هو الذي يفيض على الخاملين ويسبغ على الضعفاء ثياب القوة والحياة :

لا تسابق في حلبة العز ذا العلـ ... ـم فما للهجين شأو الجواد
إن أموات أمة العلم أحيا ... ء ، حياة الأرواح والأجساد
وكأين في الناس من ذي خمول ... صار بالعلم كعبة القصاد!

والعلم هو الذي هتك الحجب ، ورفع الستور عن العيون التي غشى عليها الجهل ، ولا سبيل إلى استبانة الطريق السوي ، سوى هذا النور الذي بدد الظلمات :

والعلم قد أنكر منها جنا ولم يبن أين هو المهيع ؟
خرقت ياعلم رداء لنا كنا ارتديناه ، فهل ترقع ؟

ثم يعرض للشك الذى أغلق على النفوس أمرها ، وسلبها هداها :

لقد طغت حيرة أهل النهى هل فيك ياعلم لها مردع ؟
كم نشرب الظن فلا نرتوى ونأكل الحدس ،فلا نشبع !

وفى هذه التشبيه الجميل الذى تراه من إلحاق المعنويات بالماديات من الحسن الأدبى الفائق ، والجمال البيانى الرائق مالايخفى ! كما أن فى هذه الفكرة المنعمة والبصيرة الممثلة ، مالا يجحد قدره عند أهل الفكر والنظر !

وإذا ما خيم الجهل على قوم ، فلا تغررك مظاهرهم ، ولا تبهرك ثيابهم ، فإنما هى براقة خداعة ، ولا تسحرنك قصورهم بما حوت من زخرف وزينة فليست ثيابهم مع جهالتهم إلا كالكفن يلف فيه الموتى لاغناء فى رونقه وبهائه لميت لاحراك به ، وليست هذه القصور بما حوت بأحسن من القبور ،وحياة هؤلاء الخاوين الوفاض من المعرفة ليست إلا حياة العوز والإملاق . ولقد جعل الرصافى تهاون الناس فى كسب العلم . وإقامة المدارس عقوقا للوطن أى عقوق :

إذا ما عق موطنهم أناس ولم يبنوا به للعلم دورا
فإن ثيابهم أكفان موتى وليس بيوتهم إلا قبورا
وحق لمثلهم فى العيش ضنك وأن يدعوا بدنياهم ثبورا

والرصافى يكرر هذا المعنى فى أكثر من موضع ، فله من قصيدة دعاها « إلى الشبان » يحثهم فيها إلى عدم الهوادة فى طلب العلم الذى به حياتهم كالعود لا حياة له بغير التربة والسقيا :

أنت ياجاهل من قبل الممات ميت يمرح مابين البيوت
أو ماتعلم فى هذى الحياة أن رب العلم حى لايموت ؟

وهذا العلم لا ينال بالقول ، ولا يدرك بالأمل ، بل إن بثه فى ربوع البلاد فى حاجة ماسة إلى تعاون الأفراد والجماعات ، ومعاضدة الحكومات لإنشاء المدارس فى المدن والقرى ، وهذا ما دعا الرصافى إلى أن يصلت سيف شعره على أعناق المتقاعسين عن أداء هذا الواجب الوطنى ، وإلى أن يشيد بكل من وضع لبنة فى أساس صرح العلم بإنشاء المدارس . ولهذا كثرت قصائده فى افتتاح المدارس ، تحية للقائمين بها ، وتشجيعا لطلابها ، الذين يردون حياض العلم ، وينهلون من موارده فيها ، ويحثهم على التزود والاستزادة من فيض العلم ، وعدم الوقوف عند حد يصلون إليه ، فليس لهذا العلم من غاية ينتهى إليها .

ومعهد علم أسسته عصابة ... من القوم تسعى للنجاح وتجهد
شباب مشوا للمكرمات بعزمة ... تقاعس عنها الكوكب المتوقد
سأستودع الأيام كل قصيدة ... يطيب لهم فيها الثناء المخلد
أقول لهم قولا به أستزيدهم ... وأشكرهم شكرا جزيلا وأحمد
أما ، وخلال فيكم عربية ... وذا قسم لو تعلمون مؤكد
يسر العلا أن ينهض القوم للعلا ... وأن يجمع الشبان للعلم معهد

٢

ويلى هذه الغاية عند الرصافى ، غاية سامية ، دعا لها ، وهى نبذ التعصب الذميم ، وطرح الخلافات التى قسمت الدولة فرقا وأحزابا كل حزب بما لديهم فرحون ، وهو لا يرضى للوطن هذا الانقسام بين أبنائه المسلمين ولا الفرقة بينهم وبين غيرهم من معتنق الديانات الأخرى ، فما دعا إلى هذه النعرة القاتلة غير الساسة الدخلاء الذين لا يطيب لهم الصيد إلا فى الماء العكر (وقد وضحنا ذلك فى بحث شعره السياسى) وغير الجهلة الذين لا يفهمون ـ فى نظره ـ إلا القشور وكثيراً ماجروا على بلادهم الويل والحرب من وراء استغلالهم لسذاجة الجماهير ، فيزجون بهم فى هذا المضيق الوعر الذى تأباه

الأديان . (اقرأ قصيدته « فى سبيل الوطن : إلى إخواننا المسيحيين ») (١)

وعدا هذه النعرات ، يوجد تعصب من لون آخر أنحى عليه الرصافى باللوم اللاذع ، وهو العصبية القومية بين أبناء الوطن الواحد ، كما حدث فى فتنة الأرمن ، وما أدت إليه من المذابح البشرية ، وإن الرصافى ليأسى على ماجرته هذه الفتن أشد الأسى ، وأكثره إيلاماً لنفسه الحساسة ، وشعوره المرهف.

وفى قصيدته (أم اليتيم) يشير إلى مقته وسخطه سخطا لا حدله :

مشى أرمنيا فى المعاهد فارتمت ... به فى مهاوى الموت ضربة مسلم
على حين ثارت للنوائب ثورة ... أتت عن حزازات إلى الدين تنتمى
فقامت بها بين الديار مذابح ... تخوض منها الأرمنيون بالدم

إلى أن يعلن أنهم اجترحوا هذه الجرائر باسم الدين ، والدين منها براء ، وإنما دعاهم إلى ذلك الجهل ، وسوء الفهم ، فباتوا فى غيهم يعمهون ، وفى ضلالتهم سادرين ، وما لهم معالم يلتمسون بها سبيل الهدى .

فليس بدين كل ما يفعلونه ... ولكنه جهل وسوء تفهم !
لئن ملئوا الأرض الفضاء جرائما ... فهم أجرموا ، والدين ليس بمجرم !
ولكنهم فى جنح ليل من العمى ... تمشوا بمطموس العلائم مبهم
وقد سلكو تيهاء من أمر دينهم ... فكم منجد فى المخزيات ومتهم

٣

ولقد عنى الرصافى فيما عناه الأخلاق وانحلالها ، فيقض ذلك مضجعه ، ويأخذه الإشفاق على مصير أمته من هذا اللين فى الخلق ، والضعف فى الطبائع والعادات ، فيخشى انهيارها وراء هذه المفاسد التى تودى بها .

---

(١) استشهدنا ببعض أبياتها فى شعره السياسى ، وهى قصيدة طويلة تجدها كاملة فى ديوانه صفحة ١٥١ .

وكما نجد الرصافي صريحا كل الصراحـة ، في نقد الساسة ، ولوم أولى الأمر نجده كذلك صريحا كل الصراحة في نقد نواحي الانحلال الخلقي . وفي مطلع قصيدته (التربية والأمهات) تراه يشيد بقيم الفضائل ، وضرورة تربيتها في أحضان كريمة ، كالنبت لا يكون ناضراً ريعان إلا في تربة خصبة :

هي الأخلاق تنبت كالنبات إذا سقيت بماء المكرمات
تقوم إذا تعهدها المربي على ساق الفضيلة مثمرات
وتسمو للمكارم باتساق كما اتسقت أنابيب القناة
وتنعش من صميم المجد روحا بأزهار لها متضوعات

وتراه إلى جانب العناية التي سلفت بالعلم ، والإشارة إلى احتلاله المقام الأول في نهضة الشعوب يذكر أن هذا العلم وحده لاغناء فيه ، مالم يكن إلى جانبه خلق يعاضده ، ويشد أزره ويساعده :

وما العلم إلا النور يجلو دجى العمى ولكن تزوغ العين عند انكساره
فما فاسد الأخلاق بالعلم مفلحاً وإن كان بحراً زاخراً من بحاره

وشر الخلق عنده الكذب ، وكما يتخذ الكذب مظهره في الأقوال ، ومظهرا في الأعمال ، تراه يجرى على أقلام الكتاب ، الذين لا يتحرون الحقيقة فيما يسطرون ، فيخلد كذبهم في السطور على مر الأيام وكر العصور ، وتبقى ضلالتهم تضلل الباحثين والمؤرخين :

وما كان كذب القوم في القول وحده ولكنه في كتبهم والمهارق
وأقبح مين في الزمان خرافة تخط بها طرساً يراعة نامق
ضلال على مر الجديدين لم تزل مغاربنا من أمره كالمشارق

ويلحق بالكذب النفاق الذى يطمس معالم الحقيقة ، ويجعل دونها حجابا كثيفاً ، وهذا داء قد فشا في القوم فآدهم حمله ، وأثقلهم عبئه ، فلا تكاد تتبين قولا صريحا ، ولا تجد رأيا صحيحا يعتد به ويعتمد عليه ، فمنافق من يرى

الحق ظاهرا فيحاول أن يستره ومن يرى القبح باديا فيحاول أن يغطيه بستر من الكذب ، والنفاق عند الرصافي أقبح الكفر بل هو الضلال الصراح :

هل الكفر إلا أن ترى الحق ظاهراً فتضرب للأنظار من دونه سترا؟
وأن تبصر الأشياء بيضا نواصعا فتظهرها للناس قانية حمرا ؟
إذا كان فى عرى الجسوم قباحة فأحسن شيء في الحقيقة أن تعرى
فيلمسها من مارست عينه عمى ويبصرها من كابدت أذنه وقرا

وقد حمل الرصافى على المرائين الذين يظهرون للناس على غير حقيقتهم ويلبسون مسوح الزهاد ، وقادة الإصلاح الاجتماعى ، وهم دعاة الفساد فإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون !

وشر المتصفين بهذه الصفة الذين يقفون من الناس موقف الناصح الأمين ، والمجرب الشفيق، ولكنهم لا يعملون بما يقولون ويأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، وقد عموا على الناس بمظاهر الزهد والتقشف . استمع إليه يهجو بعض المرائين :

سود الله منك يا شيخ وجها غش حتى باللحيـة السوداء
لو نتفنا من شعرها وغزلنا لنسجنا خمسين ثوباً رياء !

٤

وقد هال الرصافى ما عليه العراق من التأخر والفقر نتيجة إهمال شئونه وعدم رعايه مصالحه من قبل الولاة الذين وصفناهم ، والذين تخذوه بقرة حلوبا ، عليها أن تدر ، ولهم العلل والنهل ، وليس يضيرهم بعد ذلك أن تجدب الأرض ، وأن يجف الضرع ، فكان من أكبر دعاة الإصلاح ، فى شتى نواحى الإصلاح .

يغار على هذه المياه التى يفيض بها الرافدان ، ولكنها تذهب بدداً مخلفة وراءها القور والقيعان والجدب والأقفار ، فأصاب رياض العراق الذبول

وهجرتها البلابل الغردة ، التي كانت تصدح فوق أفنانها وتطير بين أدواحها ، وترفرف فوق أوديتها المعشبة المخضرة في الشمال وفي الجنوب .

ويغضب لثورة الفراتين ثورة ماتذر من شيء أتت عليه إلا غمره طوفانها فأودى بمحلات العراق ، وأتى على قراها ، وأهلك الحرث والنسل .

وهكذا يكون الفيضان الذي هو سبب الخصب والرغد مدعاة للكوارث والبلاء ، وليس ذلك لشيء إلا لتقاعس الهمم وإهمال الولاة ، فجر الفقر على البلاد بدل النماء والثراء . وتلك حال تشغل الذين وهبوا أنفسهم لبلادهم ، فما بالك بالرصافي وهو من عرفت حدة عاطفة ورقة إحساس ، وصدق وطنية ؟ ! صوب سمعك تجاه هذه الأنات ، واستمع إلى هذه المناجاة ، يناجي بها الشاعر مياه دجلة حين ورده ورود المتأمل المتعبد :

رب يوم وردت دجلة فيه ... موردا خاليا عن الوراد
حيث ينصب في سكون عميق ... ماؤها لاثما ضفاف الوادي
وهبوب النسيم يكتب في الما ... ء سطورا مهتزة في اطراد
يتمحى بعضها ويظهر بعض ... فهي تنساب بين خاف وباد

ويقول يصور النهر ، يبثه ما به من اللوعة والأسى :

وتئن المياه لي بخرير ... كأنين السقيم للعواد
قمت في وجهها أردد طرفي ... ساكتا والضمير مني ينادي
واقفا تحت سرحة ناح فيها ... طائر فوق غصنها المياد
منشدا في النواح شعرا غريزيا ... حزينا كأنه إنشادي
جاوبته أفنانها بأنين ... من حفيف الأوراق والأعواد
ياميا ها جرت بدجلة تجتا ... ز مرورا بجانبي بغداد
إن نفسي إلى الحقيقة عطشى ... أفتشفين غلة من صاد ؟

ويعود بذهنه إلى أيام الإيراق والإيناع ، أيام كان دجلة الخالد يجري

بالحياة حين كانت سامراء متنزهاً من متنزهات بغداد ، وقد أودى بهذه المظاهر الجهل ، فغدت حوله البوادى قاحلة ، وهى أرض تنبت الذهب ، ولكن جر إهمالها الفقر والسغب ، فمتى يفيق أبناء الرافدين ، فيغنون بعد الخصاصة ويحصدون بعد الإجداب ؟

أيها الماء أين تجرى ضياعا　　وحواليك قاحلات البوادى ؟
فمتى تفطن النفوس فيحيا　　بك سقيا موات هذى البلاد ؟
لو زرعنا بك البقاع حبوبا　　لحصدنا النضار يوم الحصاد
أفيدرى خليج فارس ماذا　　فمه منك بالع بازدراد ؟
أنت والله عسجد ولجين　　لو أتينا الأمور باستعداد
فاجر ياماء إن جريت رويدا　　بأناة ومهلة واتئاد
علنا نستفيق من رقدة الفق　　ر فنغنى بفيضك المزداد

٥

ويعيب الرصافى على أبناء العروبة أن يتغنوا بمفاخر الماضى ، تاركين الأخذ بأسباب المجد اعتماداً على هذا المجد الموروث ، فى عصر فخر فيه الناس بما حصلوا لأنفسهم بأنفسهم وشقوا لأممهم طريق المجد فسلكته وقطعت فيه أشواطا ، ولكنا لا نزال نغنى بأمجاد أسلافنا ، ولا نتخذ منهم القدوة ، فنتم ما بنوه من رفيع البنيان :

ولكن أيها العربى إنى　　أراك لغير ما يجدى مريدا
وما يجدى افتخارك بالأوالى　　إذا لم تفتخر فخرا جديدا ؟

وعنده أن الذى يحاول أن يسود هو ذلك الذى يجد فى حاضره ويعمل لغده ومستقبله ، لا الفاخرين بالعظام والأشلاء :

أرى مستقبل الأيام أولى　　بمطمح من يحاول أن يسودا
فما بلغ المقاصد غير ساع　　يردد فى غد نظرا سديدا

فوجه وجه عزمك نحو آت ولا تلفت إلى الماضين جيدا
وهل إن كان حاضرنا شقيا نسود بكون ماضينا سعيدا؟

فالشرف الحقيقى هو الشرف الموروث ، يؤيده شرف مكسوب ، فإذا ساق العربى الفخر بالقول ، أيده بالعمل ، فلا يكذب حاضره ماضيه :

فشر العالمين ذوو خمول إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
وخير الناس ذو حسب قديم أقام لنفسه حسبا جديداً

٦

كان من نتيجة الفقر الذى يعانيه سواد الأمة والذى أشار إليه الرصافى فيما سبق، وكذلك مالاقى هو من صنوف الحرمان أحيانا ، أن رأيناه يحمل على طبقة الأغنياء ، وجماعة المترفين الذين ينعمون بخيرات البلاد ومحصولاتها وهم طبقة محدودة منعمة مترفة ، وأكثر أبناء البلاد يعانى آلام الفاقة وعذاب الخصاصة ، وكان من نتيجة ذلك كله أن رأينا الرصافى أحيانا ينتصر لمبدأ الاشتراكية ، وهو من المبادىء التى أحدثت ثورة فى العالم، وجرت إلى الحرب الأهلية وإلى التدابر والتحاسد بين طبقات الأمة.

وعنده أن الغنى إنما كسب الغنى وحصل الثروة من تعب الفقير الكادح الذى يشقى ليسعد غيره ، ويجنى غيره ثمرة نصبه وجهاده ، ولقد انتشر هذا المبدأ فى بعض بلاد أوربا ، وتسرب إلى بعض البلاد العربية ، فلقى هوى فى نفوس الفقراء والمستضعفين، إذ أصبحت هذه المبادىء تمنيهم بالجاه والمنصب والطفرة من حضيض الفقر والهوان إلى ذروة السعادة وقد ساعد على رواج هذه المبادىء أن الأغنياء لم يسدوا فى الغالب للفقراء شيئا مما كسبوا، ولم يعملوا على انتشال هؤلاء الفقراء من موبقات الفقر والجهل والمرض استمع إلى الرصافى يقول :

أرى كل ذى فقر لدى كل ذى غنى أجيراً له مستخدما فى عقاره

ولم يعطه إلا اليسير ، وإنما على كده قامت صروح يساره
ويلبس من تذليله العز صافيا وينظره شزرا بعين احتقاره

وليس الرصافى من يرضى للفقير أن يكون ضعيفا مستجديا ، ولا من يرضى له التجرد من الكرامة وعزة النفس ، يلتمس من الغنى العطاء إن شاء منحه ، وإن أراد منعه ، ولكنه يرى الجد والدأب صفة من يريد الحياة عزيزا ، ولا مقام للفقير العاجز فى حياة لا يسود فيها إلا الغنى القوى .

نعم ! هو يريد الغنى للأمة فى مجموعها ، وللأفراد جميعا ، لأنه يرى هذا الغنى والجد من أهم أسباب التخلص من سيادة الأجنبي ، وتحكمه فى تجارة البلاد واقتصادياتها ، فالاستقلال الاقتصادي يتقدم استقلال الدولة السياسى ، إذ به يغنى الوطنى عن الأجنبى فى البيع والشراء ، ويحتفظ بأمواله ينتفع بها بنو جلدته ، وينجون من الأسر الاقتصادى .

تغنى البلاد بسعيها عن غيرها وتعيد عهد ثرائها المفقود
وتقوم بالعمل المفيد لأهلها من نسج أردية لها وبرود
حتى تكون عن الأجانب فى غنى وتعيش غير أسيرة التقليد
أو ما ترى أهل البلاد تقيدوا للغرب من حاجاتهم بقيود
الغرب يكسوهم ملابس هم بها يعرون من مال لهم ونقود
وتراه يسلخهم بمصنوعاته سلخ الشياه فهم بغير جلود

ويشير إلى المواخر تغدو بالبضائع الأجنبية ، وتروح وقد حملت دماء القوم التى امتصتها أثمانا لهذه البضائع والسلع :

هذى سفائنهم تروح وتغتدى ببضائع لم تحص بالتعديد
فكأنما هى لامتصاص دمائنا بعض المحاجم أو كبعض الدود

وتراه ينحى باللوم والتقريع على بني وطنه الذين أغرموا بكل ما هو أجنبي واحتقروا كل ما هو وطنى ، ولو كان هذا الوطنى يفوق الأجنبي جودة وينقص

عنه سعرا ،وذلك من آثار العبودية ، وكأنهم لا يرجون مزايلتها، ولا التخلص من قيودها :

حتى متى نشقى ليسعد غيرنا ونذلل القربى لعز بعيد ؟
ونجانب الوطنى من أشيائنا ولوانه من أحسن الموجود؟
إن البلاد لتشتكى من أهلها وتقول قول الزازح المجهود
ياسادة الأوطان لستم سادة ماعشتم من فقركم كعبيد !

وهذا مظهر سام من مظاهر شعوره بالحاجة إلى تمجيد الصناعات الوطنية والإشادة بها ، والثناء على أصحاب دور العمل من الوطنيين ، وحث أبناء الأمة على تأييدهم ومعاضدتهم ، ومن تغاليه فى هذه الناحية مادعا به العراقيين إلى تدخين (سيجارة) من نوع خاص ، إذ صاغ لكل طبقة من طبقات الأمة بيتين من الشعر فى مزايا هذه (السيجارة) !

٧

كان من مظاهر النهضة الحاضرة فى الديار الشرقية إحساس الفرد أنه لا يعيش لنفسه وانما هو عضو فى هذا المجتمع عليه أن يشعر بما يشعر به غيره وكان لهذا المعنى أثره فى نفوس الشعراء فى هذه النهضة ، ولكن شاعرين من هؤلاء الشعراء أجادا كل الإجادة فى تصوير آلام الفقراء ، إذ أحسا هذه الآلام ، وقاسيا مرارتها .

أحدهما فى حاضرة العروبة الشرقية وهو شاعرنا الخالد معروف الرصافى وثانيهما فى حاضرتها الغربية شاعر النيل حافظ إبراهيم ، فلكلا الشاعرين جولات موفقة فى هذا الميدان !

والرصافى خير من صور آلام الفقراء ، وما يجدون من شظف العيش وقسوة الحياة ، وديوانه يزخر بقصائد كثيرة رائعة فى وصف هذه الآلام ، بل إن شاعريته بدأت ظواهرها ، وانبعثت أسرارها ، وفاضت بحارها فى

هذا اللون من الشعر، الذى ينبعث منه الأنين ، وتتصعد الزفرات ، حتى إنك لتحس أنه يحس بما يجد هؤلاء جميعا من عنت وإرهاق وإن ينابيع شعر الرصافى قد تفجرت أول ما تفجرت فى وصف ما يكابد هؤلاء المحرومون .

ولعل من الخير أن نسجل هنا ما يروى الرصافى عن نفسه حين يقول «كانت مشاهد البؤس من أشد الدواعى عندى إلى نظم الشعر وكان لنا جار فقير مبتلى بداء المفاصل ، وكانت له أخت تمرضه ، وكنا فى فصل الصيف الذى يكون فيه الناس فى لياليه فى بلادنا على سطوح الدور وكان هذا المريض إذا جن عليه الليل والى أنينه ، وكان أنينه يزعجنى طول الليل ، فهذه الحادثة أوحت إلى قصيدة (الفقر والسقام) [١]

واطلعت فى ليلة عيد الأضحى على حالة أرملة بائسة لها يتامى صغار ، ولا حاجة إلى ذكر قصتها هنا ، فحالة هذه الأرملة هى التى أوحت إلى قصيدة (اليتيم فى العيد) [٢]

وكان لى صاحب وكان أبوه صاحب الشرطة إذ ذاك فى بغداد فأخذنى يوما إلى السجن الكائن فى بغداد فشهدت فيه مشهد البؤس والشقاء حتى أوحى إلى قصيدة (السجن فى بغداد) [٣]

وهكذا بقيت أنسج على هذا المنوال ، حتى أعلن الدستور العثمانى ، فذهبت إلى الاستانه ، وهى مركز سياسة الدولة إذ ذاك ، فاجترفتنى أمواجها المتلاطمة ، وحالت فى الأكثر بينى وبين تلك المواضيع السابقة ، ويا قاتل الله السياسة ! إنها ما دخلت فى أمر إلا أفسدته » [٤]

---

(١) ديوان الرصافى صفحة (١١٣)

(٢) « « « (٧٤) (٣) ديوان الرصافى صفحة (٥٦)

(٤) مجلة الحرية : المجلد الاول الجزء الاول السنة الثانية ،صفحة ١٧-١٦ (أول تموز سنة ١٩٢٥)

وإنك لتجد فى الكلمات الأخيرة دواعى الحسرة ، إذ حيل بين الشاعر وبين هذا اللون من الشعر الذى هام به هياما سببه الرحمة التى طبع عليها قلب الرصافى . أما الحادثة التى لم يرد الرصافى بأن يصرح بها فى هذا المقام حياء منه أن يذكر منة من بها على إنسان ، فقد صرح بها لأحد خلصائه ، وهو هنا يرويها : (١)

«ذكر لى أنه كان يجلس الى أحد بائعى الدخان ، لجاءت امرأة بيدها إناء من نحاس ، قال : فأسر إلى صاحب الدكان حديثاً لم أفهمه ، فأخذ منها الإناء ، وأعطاها بضعة قروش بغدادية (والقرش البغدادى إذ ذاك يعادل فلسين ونصف الفلس اليوم) . قال : فسألته عن جلية الأمر فأخبرنى أن هذه المرأة ، وهى أم يتيم ـ لا تملك شيئاً من المال ، فجاءت بهذا الإناء ارتهنه عندى بهذا المبلغ الزهيد ، لكى تنفقه على ابنها يوم العيد غداً . قال : فتأججت فى نفسى نار الألم ، فأدخلت يدى فى جيبى وأخرجت ما فيه وكان إذ ذاك لا يتجاوز بضعة عشر قرشاً ، فأعطيتها لصاحبى ليعطيها إياها ، وقمت على الفور وذهبت إلى البيت ، والألم يحز فى نفسى فلم يغمض لى جفن فى تلك الليلة ، حتى نظمت القصيدة التى عنوانها اليتيم فى ليلة العيد» .

ورأى الرصافى أن العيد أيام لا تغاير غيرها من الأيام ، ولكن الناس اصطلحوا على المغايرة ، فهى عندهم أيام السرور ، والتحلل من المآسى والآلام ، بما يعدون لهذه الأيام من مظاهر الأنس ، وعلائم السرور من جدة الثياب ، والخروج إلى المتنزهات ، والتلاقى زرافات ووحدانا ، ليقتنصوا ما استطاعوا من أسباب المرح ، ويجتنوا قطاف اللهو والأنس الدانية .

---

(١) المرحوم العلامة الأستاذ طه الراوى فى مجلة عالم الغد البغدادية ص ٨ من العدد ٩ = ٢٦٤ من السنة الأولى .

وليس كل الناس يستطيع هذه الأسباب ، فليس فى مقدور كل إنسان أن يشترى ثوبا قشيبا ، أو يدفع درهما فى سبيل التسرية عن نفسه ، وإزالة ماران على قلبه من الأسى والكدر ، فتعود عليه هذه الأيام آلاما إلى آلامه، وعذابا إلى عذابه ، حين يشعر بالحرمان ، ويحتاج إلى البذل ، ولكنه لا يجد ما يبذل وهنا تعتريه الحسرة والألم .

هذا هو رأى الرصافى فى العيد أو فلسفة العيد عنده ، وهى لعمرى فلسفة لاتعدو الحقيقة الأليمة . لأن منتزعها الحياة الواقعية :

أطل هلال العيد فى الشرق يسمع ضجيجا به الأفراح تأتى وترجع
صباح به تبدى المسرة شمسها وليس لها إلا التوهم مطلع
صباح به يختال بالوشى ذو الغنى ويعوز ذا الإعدام طمر مرقع
صباح به يكسو الغنى وليده ثيابا لها يبكى اليتيم المضيع
صباح به تغدو الحلائل بالحلى وترفض من عين الأرامل أدمع

ثم ينصرف إلى معانيه الخالدة، وفلسفته الأليمة فى هذه الموازنات الباكية ويخرج إلى أن مسرات العيد إنما هى أوهام، وأن آلام العيد هى وحدها الحقائق :

ألا ليت يوم العيد لا كان ، إنه يجدد للمحزون حزنا فيجزع
يرينا سرورا بين حزن وإنما به الحزن جد ، والسرور تصنع
فمن بؤساء الناس فى يوم عيدهم نحوس ، بها وجه المسرة أسفع
فقد ابيض وجه العيد، لكن بؤسهم رمى نكتا سودا به فهو أبقع

ويدع الرصافى هذه الآلام النفسية التى يكابدها البائسون ، إلى آلام أخرى فيورد فى شعر قصصى رائع قصة خروجه فى هذا الصباح الذى وصفه فتبع الناس فى لهوهم . والصبيان فى مجتمعهم ، إلى أن تقع عينه بين هذه الوجوه الباسمة المستبشرة على وجه أكدر عابس ، لا يصل المرح إلى قلب صاحبه ، ولا ينفذ السرور إلى نفسه الحزينة المكتئبة ، فينحنى عليه الرصافى

انحناءة الشيخ العاطف ، يسأله عمابه ، فيصرح له الصبي ببعض مايخفى ، ويغافله الرصافي حتى يعود إلى بيته أو كوخه ، ويرى أمه ، فيسائلها فتوقفه على حقيقة أمرها ، وكيف شقيت بفقد من كان يسعدها ، فصارت إلى هذه التعاسة والكمد ، وينتهى به المطاف إلى صاحبه ، الذى كان قد فارقه ، ويجتمع حوله الصحب والخلان، فيقص عليهم ما رأى ، ويأهول ما رأى ويصف ذلك وصفا ينفطر له القلب ، وتذهب عليه النفس حسرات :

فعدت وقلبي جازع متوجع وقلت وعيني ثرة الدمع تهمع
ألا ليت يوم العيد لا كان إنه يجدد للمحزون حزنا فيجزع
وجئت إلى ميعادنا عند صاحبي وقد ضمه والصحب ناد ومجمع
فأطلعتهم طلع اليتيم فأففوا وخبرتهم حال السجين فرجعوا
فقلت دعوا التأفيف فالعار لاصق بكم واتركوا الترجيع فالأمر أفظع

وللرصافي فى هذا المجال قصائد كثيرة تتلظى نارا ، وتفيض أسى ، وينعكس فيها صدى مايحس الشاعر من لذعة الألم لهذه النفوس الملتاعة ، ومن بين هذه القصائد المؤثرة المثيرة قصيدته التى دعاها (الأرملة المرضعة) وصف فيها وصفا بارعا هذه المرأة فى ظاهر أمرها ، وباطن ألمها. وصفا يبعث الشجون ويستذرف الدموع :

لقيتها ، ليتنى ما كنت ألقاها تمشى ، وقد أثقل الإملاق ممشاها
أثوابها رثة ، والرجل حافية والدمع تذرفه فى الخد عيناها
بكت من الفقر فاحمرت مدامعها واصفر كالورس من جوع محياها
مات الذى كان يحميها ويسعدها فالدهر من بعده بالفقر أشقاها
الموت أفجعها ، والفقر أوجعها والهم أنحلها ، والغم أضناها
فمنظر الحزن مشهود بمنظرها والبؤس مرآه مقرون بمرآها
كر الجديدين قد أبلى عباءتها فانشق أسفلها ، وانشق أعلاها

ومزق الدهر ، ويل الدهر ، مئزرها حتى بدا من شقوق الثوب جنباها

ويأخذ فى هذا الوصف المر الحزين ، وصف تتبع واستقصاء ، ثم ينتقل من وصف هذه الأرملة المرضعة البائسة إلى وصف وليدتها ، وماتجد مع أمها من الشقاء ، بماجر عليهما الزمان من صروف ونكبات إذ اخترم حياة عائلهما الذى يضمن بقاؤه لهما بقاء السعادة ، ويحفظ لهما ماء وجهيا أن يراق ، وحياءهما أن يبتذل ويهان .

ويصور فى حسرة لاذعة ، ما كانت تنبس به شفتا الأم المسكينة من دعوات ضارعة ، وأنفاس ذليلة خاشعة ، إلى ربها أن يدرلهذه الوليدة اليتيمة اللبن الذى يغذوها ، ويكفل حياتها ، ويضمن نماءها ، ومالهاعنه من عوض .

ويفعل هنا أيضا ما فعله مع اليتيم ، فقد حنا عليها حين أحس بوجدها ، واستشعر آلامها ، فتبعها ليستبين حقيقة أمرها ، وقد أدمت فؤاده دعواتها التى كان لسان حالها ينطق بها ، وكان صمتها يترجم عنها، أوكأنه يسمع همسات الشفاه ، ونجوى القلوب ! ثم يمد يده إليها مصافحاً بما ملكت يداه مما كان يضن به ، ويحتفظ به ثمنا لبلغ من صبابة العيش :

هذا الذى فى طريقى كنت أسمعه منها ، فأثر فى قلبي وأشجاها
حتى دنوت إليها ، وهى ماشية وأدمعى أوسعت فى الخد مجراها
وقلت : يا أخت مهلا إننى رجل أشارك الناس طرافى بلاياها
سمعت يا أخت شكوى تهمسين بها فى قالة أوجعت قلبي بفحواها
هل تسمح الأخت لى أنى أشاطرها مافى يدى الآن أسترضى به الله
ثم اجتذبت لها ، من جيب ملحفتى دراهما ، كنت أستبقى بقاياها
وقلت يا أخت أرجو منك تكرمتى بأخذها دون مامن تغشاها

أرأيت كيف بلغت الرحمة منزلتها من قلب الشاعر ؟ وكيف ملكت عليه حسه وشعوره ؟ إن هذه الأبيات وحدها لتفصح غاية الإفصاح ، عما انطوى

عليه فؤاده الرحيم من الحدب على الفقير ، والبر بالبائس المسكين ، وحسبك قوله لها « إننى رجل أشارك الناس طرا فى بلاياها ! » .

وكان من حق الرصافى أن يوصف بالكرم ، بل بالإيثار ، بسبب هذا البذل ، لا بكثرة المبذول ، بل بقيمته ، لأنه صدر عمن هو فى أمس الحاجة إليه ، ثم هو يعرف تماما مايعتور العطاء من قبح المَنّ ؛ ورغبة المعطى فى حسن الأحدوثة ، وطيب الذكر ، فيحترس هذا الاحتراس النبيل « دون ما من تغشاها » . ثم هذا الشعور السامى بأن فى قبول المعطى هبة المعطى تكرمة له ، وتفضلا عليه « وقلت يا أخت أرجو منك تكرمتى بأخذها . . ؟ » .

٨

وإذ كان الرصافى من أعدى أعداء الفقر ، وأكثر الناس شعورا بعذابه ؛ وتذوقا لصابه ، وإحساساً بأثره فى إذلال النفوس الكريمة ، وجعل من نفسه أسوة فى تقديم ما يستطيع مما يأسو جراحات المكلومين به ، فليس من العجيب أن تراه يشحذ شاعريته ، ويستعمل فنه ومواهبه ، فى تحبيب البر إلى النفوس وتحبيذ الإحسان إلى ذوى القدرة على المحرومين من إخوانهم فى الوطنية ، وشركائهم فى الإنسانية ، فصور الإحسان فى أبهى حالاته ، وأسنى حلله ، وكسابه أهل المروءة ، وخلعه على المحسنين ، فصور المحسن جديراً بالعبادة بعد البارى جل وعلا ، وجعل غرسه أكرم غراس ، وأحلاه جنى ، فى مزرعة الخليقة ، وأوضح أثره فى استئصال أسباب الموجدة والبغضاء ، وإحلال المودة والصفاء بين المحسن والمحسن إليه .

وهاك قصيدة تحمل هذه المعانى السامية ، وقد أنشدها القوم فى حفلة افتتاح مدرسة الأيتام التى أسستها الجمعية الخيرية الإسلامية فى بغداد وأنفق على بنائها أحد أعيان الطائفة الإسرائيلية فى العراق سنة ١٩٢٨ .

لو كنت أعبد فانيا فى ذى الدنا ... لعبدت من دون الإله المحسنا
وجعلت قلبي مسجدا لتعبدى ... سرا، وفهت له بشكرى معلنا
كيلا أكون مرائيا بعبادتى ... ولكى أكون بشكره متفننا
فى مجتنى غرس الخليقة لم أجد ... غرساسوى الإحسان حلو المجتنى
هو فى الخليقة ذو عجائب، سرها ... أعيا اللبيب، وأعجز المتفطنا
بيناه يغدو للنفوس مقيداً ... بالحب يطلق بالثناء الألسنا
يستعبد الأحرار وهو صنيعهم ... ويرد بغض المبغضين تحننا
كم بل نائرة فأطفأ نارها ... من بين مشتبك الصوارم والقنا

ويبدى الرصافى عجبه من مظاهر الإحسان وآثاره التى كثرت فى بلاد الغرب فأسست بسببه ملاجىء ومستشفيات ومدارس سعد بها المحرومون، ويبدى أسفه لقلة هذه الآثار فى البلاد العربية، وديار الإسلام الذى أوصى بالإحسان بل أمر به أمراً. فى قوله تعالى: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى . . .»:

لم أدر والآثار منه كثيرة ... فى الغرب لم نزرت وقلت عندنا؟
أفنحن نجهله؟ وقد علم الورى ... فى الشرق نشأته ربيبا بيننا
أو ما أمرنا فى عظات كتابنا ... بالعدل والإحسان أن نتدينا؟

ويسر الرصافى أن يشاهد فى وطنه العزيز بواكير آلاء الإحسان، فيزول عنه شىء من تشاؤمه المعهود. وينتقل إلى الإشارة بهذا المحسن الكبير الذى أظهر بهذا السخاء الكريم، والبذل المشكور أن الإحسان له دين وطبيعة إذ لم يفرق فى إحسانه (وهو اليهودى) بين دين ودين. بل أشرك الكل فى خيره، وأسبغ عليهم سابغ بره، فاستوجب الحمد والثناء على مر العصور، وكر الدهور:

رجل علمنا اليوم من إحسانه ... أن ليس للإحسان دين فى الدنا
لا يحسن الإحسان إلا هكذا ... قد صار طبعا للنفوس وديدنا

أشرنا فى أكثر من موضع إلى تعليل هذه الظاهرة التى بدت واضحة المعالم فى شعر الرصافى ، وأقصد بها عنايته بالفقراء ، وحدبه على البائسين، فالرصافى هو الذى تقلبت به الأحوال وعبثت به تصاريف الأيام وخطوبها ، وتنقل من حلل العز التى كان يرفل فيها أزمانا لا تطول حتى يعقبها الإملاق ، فبينما تراه يحلق فى سماء الجاه والمنزلة ، إذا هو يهوى من شاهق إلى حضيض الفاقة والمسغبة مثل هذا الرجل لاينكر عليه هذه العناية الظاهرة بمن عضهم الدهر بنابه .

فقد طعم لذة الشبع ، كما ذاق مرارة الجوع ، يتجرعها على مضض ، فانبعثت عنه هذه العاطفة الحادة ، والأنة الحزينة ، فشدا بهذه الأنغام الشجية

وقد كان الرصافى يستطيع أن يستبقى من هذا العز لهذا الحرمان ، ومن غناه لفقره ، ومن شبابه لشيخوخته ؛ ولكنه نسى كل ذلك حتى صار الإتلاف له عادة وديدنا ، وقد كان عمق إحساسه بما يجد ذوو الإعسار أهم ماجر عليه هذه الأزمات المتلاحقة التى كان يكابدها أكثر أيام حياته ، ولقد رأيت أنه كان يتصدق فى غير مامن ، ويعد قبول الصدقة منه ، تكرمة له وتفضلا عليه وهو الذى « يشارك الناس طرافى بلاياها » .

وهذا الخلق يدلنا على إيمان الشاعر وحسن ثقته فى الله ، فقد كان دائما يعيش فى يومه ، ولا يحسب حسابا لغده فتحلل من قيود الحرص الذى يذل أعناق الرجال وكان يرى كما يرى الأثر الماثور أن البخيل سىء الظن بربه فيخشى الفقر إن تصدق ؛ وذلك أول علامات الجحود وعدم الإيمان والثقة بالخالق الرازق .

* * *

غادر الرصافى موطنه (العراق) عدة مرات زار فى خلالها كثيرا من البلاد فزار تركيا ولبنان وسورية وفلسطين ومصر . ومما لاشك فيه أن شاعرا

مثل الرصافى إرهاف حس ، والتهاب عاطفة ، وسعيا فى مجد قومه ، لابد أن يرسل نظرة فاحصة إلى دقائق الأشياء . وأسرار الحياة فى هذه المواطن التى انتجعها أوزارها ، وقد كان ذلك ، ففطن إلى عوامل النهضة فى كل بلد من هذه البلاد . ووقف على مقدار أخذها بأسباب الحياة ٠ وضربها فى مضمار المدنية التى انبعثت من بلاد الغرب وأشرقت على بلاد الشرق . حين وجد الاتصال بين هذه الآفاق بوسائله المعروفة ، التى أهمها انتجاع الأوربيين بلاد الشرق تجاراً وعلماء ومستعمرين ، فكانوا حلقة اتصال بين أقوام متباينين فى كل شىء من مظاهر الحياة . وحلقة اتصال كذلك بين هذه العقليات .

فأخذ الشرقى المغلوب على أمره يحاول جهده أن يقلد الأجنبى الغالب فى كل شىء من ظواهر الأشياء وحقائقها ، ولعل حقائق الأمور لا يجيد معرفتها إلا أصحابها الحقيقيون الذين زاولوها قرونا عدة فى بيئتها الأولى ، وحظ المقلد دائما العناية بالظواهر ، حتى يتعرف الحقائق فيما رسها بعد أن ترسخ أصولها ، وتتميز علائمها عنده وليس من الميسور أن يتحقق ذلك فى مدى يوم وليلة ، وإن كان ذلك مما يعد ممكنا بالنسبة للظواهر والقشور .

وكان من أثر ذلك احتكاك قوى بين العقليات فى ديار الشرق بين من يقولون بإمكان الطفرة وبين من يجذبهم ماضيهم إلى المحافظة على مقومات الأمة من تقاليدها وعاداتها .

٩

كانت المرأة الشرقية عامة ، والعربية خاصة ضحية إهمال شنيع وتقييد فظيع ، والرجل آخذ بأسباب النهوض ، فكان هناك بون شاسع وهوة سحيقة بين الرجل والمرأة ، طلب الرجل لنفسه الحرية وكبلها بقيود الاستعباد وطلب لنفسه العلم وأبقاها تتعثر فى دياجير الجهالة ، وهكذا بقيت المرأة فى الشرق ترسف فى هذه الأغلال ، وعطل بذلك نصف الأمة عن

العمل ، فبقيت رهينة بيتها ، وقعيدة خدرها ، منزوية فى كسر بيتها ، وحصر همها فى تدبير الطعام وتربيـة الأولاد ، فربتهم تربية مشوهة على ما ألفت وعرفت من الأساليب العتيقة البالية.

ولقد هب جماعة من دعاة الإصلاح يحاولون انتشال المرأة مما تكابد من آلام وما تعامل به من عنت داعين إلى السفور وطرح الحجاب ، وضرورة تزود المرأة من حياض العلم والمعرفة ، حتى تعالج أمورها على بصيرة من العلم والفهم فدعا جماعة منهم إلى إشراك المرأة فى سائر تكاليف الحيـاة تنهض مع الرجل جنبا إلى جنب ، ومما لاريب فيه أن هذه الدعوات جديدة على المجتمع الشرقى فتلقاها بكثير من الإنكار ، وارتفعت صيحـات مدوية ترمى هؤلاء الدعاة بالفسق والفجور والسفه والـكفر ، وهذا شأن كل جديد لاعهد للمجتمع به ، فكانت هذه المنابزة بين جماعة المجددين الذين دعوا إلى تحرير المرأة وجماعة المحافظين الذين يرون الإبقاء على ما هى عليه من التأخر والهوان .

رأى الرصافى وقرأ الحـالة فى غير بلده ، ورأى انبعاث النور الذى يبشر بإشراق شمس المرأة على المجتمعات ، فآلى على نفسه أن يعمل على إنهاض المرأة العراقية لتساير أختها فى بلاد الغرب والشرق ، فأرسلها صيحات مدوية فى سبيل خلاصها ، وانفرد ديوانه بباب خاص سماه (النسائيات) وفى هذا الباب دعا إلى رفع هذا الحيف الذى نزل بالمرأة.وندد بالعادات والتقاليد التى جرى عليها ما لـكورقها ، فأذاقوها ألوان العسف ، وصنوف العذاب فى الحجب والتضييق والحرمان .

وأولى قصائد هذا الباب قصيدة (المرأة فى الشرق) وفيها يرجع ما أصاب أهل الشرق من التدهور إلى إغفال شأن المرأة ، وسلبها حريتها مجاراة للعادات التى درج عليها الشرقيون،فأصبحت هذه العادات قيوداً وأغلالا لايستطيعون الانفكاك من إسارها :

ألا ما لأهل الشرق فى برحاء ... يعيشون فى ذل به وشقاء؟
لقد حكموا العادات حتى غدت لهم ... بمنزلة الأقياد للأسراء

ثم يشرح علة البرحاء، ويذكر سبب ما يقاسون من الشقاء.

لقد غمطوا حق النساء فشددوا ... عليهن فى حبس وطول ثواء
وقد ألزموهن الحجاب وأنكروا ... عليهن إلا خرجة بغطاء
أضاقوا عليهن الفضاء كأنهم ... يغارون من نوربه وهواء

ولقد شارك الرصافى فى هذه الدعوة التحريرية كثير من دعاة النهضة النسوية، نذكر منهم الشاعر الفيلسوف (جميل صدقى الزهاوى) وشاعر النيل (حافظ إبراهيم)، فإن هؤلاء الشعراء الثلاثة يصدرون عن شعور واحد، ويرمون إلى هدف واحد، وإنك لواجد هذه المعانى فى شعر شاعر النيل.

ولكن حافظا كان غير مشتط فى دعوته، لأنه يعرف البيئة التى درج فيها ولذلك تجده غير صريح فيما يدعو إليه، أودعا إليه آنذاك، وآية التردد فى ذلك قوله:

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا ... بين الرجال يجلن فى الأسواق
فى دورهن شئونهن كثيرة ... كشئون رب السيف والمزراق
كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا ... فى الحجب والتضييق والإرهاق
ليست نساؤكم حلى وجواهرا ... خوف الضياع تصان فى الأحقاق

وإنك لواجد هذه المعانى أكثر صراحة فى كثير من شعر الزهاوى فإذا قرأت قصيدة (أسفرى) انبعث منها صدى الرصافى. قال:

أسفرى فالحجاب يا ابنة فهر ... هو داء فى الاجتماع وخيم
كل شىء إلى التجدد ماض ... فلماذا يقر هذا القديم؟
أسفرى فالسفور فيه صلاح ... للفريقين ثم نفع عميم

ويقول :

لم يقل بالحجاب فى شكله هـ ـذا نبى ، ولا ارتضاه حكيم
هو فى الشرع والطبيعة والأذوا ق ، والعقل والضمير ذميم
هو سجن لهن من غير وزر وهو حرمان النور وهو الهموم
ولقد تطلب العذارى نسيما ثم ما إن يهب ذاك النسيم

ويخاطب المحافظين الذين يخافون على المرأة التردى إن هى أسفرت فيقول إن الحجاب ليس هو الذى يقى عفة الفتاة ، وإنما التعليم والتثقيف :

زعموا أن فى السفور انثلاما كذبوا ، فالسفور طهر سليم
لا يقى عفة الفتـاة حجاب بل يقيها تثقيفها والعـلوم

ونعود إلى الرصافى وإلى قصيدته التى يصور فيها الحـالة البائسة التى آل إليها أمر المرأة فى الشرق فصارت كسقط المتاع . فلم يعرفوها لغير الاستمتاع فألحقوا بالنساء العار :

وقد زعموا أن لسن يصلحن فى الدنا لغير قرار فى البيوت وباء
فما هن إلا متعـة من متاعهم وإن صن عن بيع لهم وشراء
أهانوا بهن الأمهات فأصبحوا بمـا فعلوا من ألأم اللؤماء

وينفرد الرصافى دون الدعاة إلى تحرير المرأة بمعنى من أسمى المعانى ، ولا نظن أحداً من دعاة حريتها ،ورسل نهضتها استطاع أن يقول فى حقها ما قال الرصافى.

أعلن الرصافى أن تقييد المرأة وأسرها حتى أصبحت فى البيت أمة من الإماء لا حرة من الحرائر ، فصارت مسلوبة الرأى حبيسة المنزل ، ولقد جر هذا الإسار إلى ضرر شنيع ، ووزر فظيع ، هو الذى جعل الرجال يرضون حياة الذل والاستعباد ، لأنهم ربوا فى حجور الإماء ، والولد بأبويه أشبه ، وبهما ألصق ، فأشربوا الذل والهوان ، لأنهم رضوا لأمهاتهم ، أو لزوجاتهم

هذا الذل وذلك الهوان ، فقد تعودت الأمة أن تستجيب لرغبة سيدها ، ومالك رقها ،فرضى هو لنفسه الخنوع والاستسلام لحكامه الظالمين ،وسادته المتعسفين

ولو أنهم أبقوا لهن كرامة   لكانوا بما أبقوا من الكرماء !
ألم تر هم أمسوا عبيداً لأنهم   على الذل شبوا فى حجور إماء ؟
وهان عليهم حين هانت نساؤهم   تحمل جور الساسة الغرباء

وكما طلب الرصافى العلم للرجل ، طلبه للمرأة ، وعد الجهل وحده الذى تسلط على الرجال هو الذى جعلهم يرون فى تعلم المرأة خروجا على الصيانة ، وثورة على العفاف ، وليس من الدين فى شىء أن تحرم المرأة الارتواء من حياض المعرفة ، فيقول :

عناكب الجهل كم ألقت بأدمغة   من الأنام نسيجاً من خرافات
فحرموا وأحلوا حسب عادتهم   وشوهوا وجه أحكام الديانات
حتى تراهم يرون العلم منقصة   عند النساء ولوكن العفيفات
وحجبوهن خوف العار ، ليتهم   خافوا عليهن من عار الجهالات

وانتقل إلى ظاهرة يشهدها أهل العراق ومنتجعوه ، فقد حرمت التقاليد أن تبرز المرأة فى المجتمعات العامة ، ومن جرؤت على الخروج على هذه التقاليد الموروثة . عدت من المستهترات العابثات ،ورمى أهلها بالتهاون والانحلال والحقيقة أن هذه الظاهرة لا توجد فى العراق فقط بل إن الشعور نفسه لا يزال فى أكثر بلاد العربية التى تدين بالإسلام الذى جعل المرأة واجبة الستر مخافة الفتنة ، ولقد جر هذا الاعتقاد إلى تأخر بعض الفنون التى هى مجال التفوق والبروز على يد المرأة ، ففن التمثيل مثلا ، وهو مدرسة الشعب كما يقولون ، وملقنه المعرفة ، ومزوده الخلق ، ووسيلة نشر الفضيلة ، ورسم المثل العليا ، ومحاربة الرذيلة .

هذا الفن الذى يهدف لأسمى الغايات لا يستغنى فى أشخاصه عن رجاله

يمثلون أدوار الرجال ، ونساء يقمن بتمثيل أدوار النساء ، وبغير هذا يكون هذا الفن مبتورا ، لا يصيب هدفا ، ولا يحقق غاية !

ولـكن ! أى فتاة ترضى لنفسها أن تعد عابثة مستهترة إذا رضيت لنفسها أن تعتلى خشبة المسرح ؟ وكيف يرضى أولياؤها أن يعدوا من المستهينين بشرفهم ؟

كان من أثر هذا الشعور أن انفرد الرجال بمزاولة هذا الفن ، ودور المرأة من يقوم به ؟ إنه رجل يتزيا زى النساء ، ويلحن لحنهن ، ويتكلف حركاتهن ففشل هذا الفن لهذا السبب وحده دون غيره !

رأى الرصافى هذه الظاهرة التى آلمته ، رأى رجلا يريد لنفسه أن يكون امرأة ، فتنحل شخصيته ، وتهوى رجولته ، ولم يجر هذا الخطب الوبيل إلا المبالغة فى حجب المرأة والتضييق عليها . وتلك نظرة الفطن الأريب الذى سجل بنفثاته نواحى الضعف فى المجتمع :

وما العار أن تبدو الفتاة بمسرح　　تمثل حالى عزة وإباء
ولـكن عاراً أن تزيا رجالـكم　　على مسرح التمثيل زى نساء

وإنه ليرسل شكاته إلى رب السماء بعد ما كاد يقنط من ترديدها على مسامع الناس وليست هذه الشكاة الضارعة لشىء سوى جهل النساء وتأخرهن !

وذلك أنا لا تزال نساؤنا　　تعيش بجهل وانفصال عن الجمع
وأكبر ما أشكو من القوم أنهم　　يعدون تشديد الحجاب من الشرع

وللرصافى نفحة شعرية ، أسبغ عليها فنه ، وأضفى عليها سابغ الخيال الرشيق وثوب الشعر الأنيق ، فيصور المرأة حمامة ، وفى حجبها وجهها نتف ريشها ، وليس يطيب لها دونه التغريد ، وقد حرمت أعز ما تحرص عليه وهو الذى به تطير وحريتها التى يطيب لها بها التغريد . وليس ذلك فى شرع ولا كتاب ولـكنه ادعاء المتعسفين الجائرين :

أفى الشرع إعدام الحمامة ريشها   وإسكاتها فوق الغصون عن السجع
وقد أطلق الخلاق منها جناحها   وعلمها كيف الوقوع على الزرع

ويعود الرصافى إلى أناته وإلى ترديد شكاته ، وسكب عبراته قائلا : إن هذه المظلومة هى سر شقائه وعلة بكائه ، ولكنه بكاء بغير دموع ، وهو أشد ألوان البكاء فقد يكون فى الدمع الشفاء مما يقاسى الكليم المعمود.

فتلك التى ما زلت أبكى لأجلها   بكاء إذا ما اشتد أدى الى الصرع
بكيت بلا دمع ومن كان حزنه   شديدا بكى من غير صوت ولا دمع

وله إلى جانب هذا الشعر الاجتماعى الوجدانى فى النساء فى بلاد الشرق عامة ، شعر خص به المرأة المسلمة ، لأنها أكثر مثيلاتها فى سائر البلاد عذابا استمع إليه يرثى لحالها .

لم أر بين الناس ذا مظلمه   أحق بالرحمة من مسلمه
منقوصة حتى بميراثها   محجوبة حتى عن المكرمه
قد جعلوا الجهل صوانا لها   من كل ما يدعو إلى المائمة
والعلم أعلى رتبة عندهم   من أن تلقاه وأن تعلمه

ويدع هذا التصوير لما تكابد من البؤس الأليم من الجهل والحجب إلى وجوب إشراكها فى العمل كالرجل ، ولكنه لا ينادى بهذا على أنه حق مسلم به للمرأة المسلمة ،ولكنه يرى هذا الرأى لها لكسب القوت حين تعدم الكاسب لها ، أو تحرم الولى الذى يقوم عنها بالكفاح فى سبيل العيش والحياة :

ما تصنع المرأة محبوسة   فى بيتها إن أصبحت معدمه ؟
ضاقت بها العيشة إذ دونها   سدت جميع الطرق المعلمه

وعلى عادة الرصافى من مشاركة كل ذى ألم فى ألمه يذرف هذه العبرات على بعض البائسات المقعدات عن طلب الرزق ، فعشن طاويات ساغبات :

كم فى بيوت القوم من حرة ... تبكى من البؤس بعينى أمه
قد لوحت نار الطوى وجهها ... وأعمل الفقر بها ميسمه
عاب عليها قومها ضلة ... أن تكسب القوت وأن تطعمه
من أى وجه تبتغى رزقها ... وطرقها بالجهل مستبهمه ؟
وكيف والقوم رأوا سعيها ... فى طلب الرزق من الملائمه ؟

تلك حال قعيدة الدار من الحرائر صيرها البؤس من الأماء وكان لها من سعيها إن يسر لها السعى مايضمن لها الإبقاء على عزتها وهناءتها .

وهناك أرملة فقدت زوجها ، ولم يخلف لها ما يصون ماء وجهها من أن يبتذل وأخذت تعانى ووليدها آلام الحرمان ، والشاعر هنا يردد أناته التى رجعها فى قصيدته الرائعة (الأرملة المرضعة) وقد أوردنا شيئا منها قبل، وذكرنا سبب إنشادها .

لقد شن الرصافى حربا شعواء ، لاهوادة فيها على التقاليد التى لاتعطى المرأة أى حق فى حرية اختيار الزوج الذى كتب عليها أن يكون شريك حياتها ، بل يبيعها وليها بيع السائمة لمن يغدق المهر ، ويغلى الثمن ،دون نظر إلى غير ذلك من المقدمات . وهذا البعل الذى استطاع أن يظفر بها مما أغلاه من المهر ، يبسط عليها ما وسعه من سلطان ، إن شاء ضربها ، وإن أراد حبسها فى كسر بيته وإن شاء طلقها ، وهذه هى المرأة بين دار أبيها ، وبيت بعلها محبوسة مظلومة وهذه المعانى يبسطها الشاعر فى خمسة أبيات صور فيها (هوان المرأة عندنا) :

ما أهون الأنثى على ذكراننا ... فلقد شجانى ذلها وخضوعها
ضعفت فحجتها البكاء لخصمها ... وسلاحها عند الدفاع دموعها
هى متعة المستمتعين وليتها ... كانت لزاما لا يجوز بيعها
فوليها عند الزواج يبيعها ... وخليلها عند الطلاق يضيعها

وكلاهما متحكم فى أمرها   هذا يعـــريها وذاك يجيعها

وللشاعر غير هذه النفثات معان أخرى سامية فى قصيدته (حرية الزواج عندنا) وفيها ينحى على الذين تعلقوا بالحجاب زاعمين بأن فيه الصون والرشاد للمرأة فكأنهم يهتمون بظواهر الأمور دون ألبابها فالحرة الكريمة عندهم من لزمت الحجاب وارتدت النقاب ؟ ولو أخفت هذه الظواهر والقشور تحتها شرا مستطيرا :

قل للألى ضربوا الحجاب على النسا   هل تعلمون بما جرى تحت العبا ؟
شرف المليحة أن تكن أديبة   وحجابها فى الناس أن تتهذبا
والوجـــه إن كان الحياء نقابه   أغنى فتاة الحى أن تتنقبا
واللؤم أجمع أن تكون نساؤنا   مثل النعاج وأن نكون الأذؤبا

ويعود بعد هذه المعانى الكريمة إلى ربطها بنهضة الشرق التى لن تكتمل إلا إذا ساهمت فيها المرأة بعلمها وأدبها لأنها نصف المجتمع وليس ينهض مجتمع عطل نصف جسمه :

هل يعلم الشرقى أن حياته   تعلو إذا ربى البنات وهذبا ؟
وقضى لها بالحق دون تحكم   فيها وعلمها العلوم وأدبا ؟
والشرق ليس بناهض إلا إذا   أدنى النساء من الرجال قربا
فإذا ادعيت تقدماً لرجاله   جاء التأخر فى النساء مكذبا
من أين ينهض قائماً من نصفه   يشكو السقام بفالج متوصبا؟
كيف البقاء له بغير تناسب ؟   والدهر خصص بالبقاء الأنسبا؟

والرصافى الذى تفتق لسانه بهذا الشعر العاطفى الذى حبا به المرأة وحنا عليها ، وعاب على الواقفين فى سبيل نهضتها ، ومنتزعيها حريتها ؛ هالته آفة من آفات المجتمع الإسلامى ، وهى الطلاق الذى أحله الإسلام لرفع الحرج إن تعسر الاتفاق بين الزوجين ، ولكنه جعله أبغض الحلال إلى الله .

ولكن الناس فى هذا العصر قد اتخذوه هزوا ولعبا ، فالمتكلم فى لغو الحديث يؤكد حديثه بالقسم بالطلاق ، وكثيرا ما جر هذا العبث إلى بينونة الحليلة عن حليلها وما يجر ذلك من تخريب بيوت كانت آهلة عامرة ، وتشريد الولدان والولائد أو تربيتهم على الذل والمهانة فى حجور ربائبهم ، ومن خوف هذا المصير لا تشعر المرأة بالأمن أو الاستقرار فى ظل الزوجية ، فتبقى حياتها مضطربة قلقة .

إن هذا القسم العابث يؤوله فقهاء الدين تأويلا بعيدا عن الإنصاف ، فيوقعون الطلاق دون نظر إلى سبب أو تقدير للحكمة فى إباحته .

وفى قصيدة (المطلقة) تجد وصفا مؤلما لهذه التى كانت ضحية بعل غشوم لا يعرف معنى للتآلف والتعاطف ، فيهون عليه أن تنهار هذه الدعائم التى أقامها الله على أساس متين ، وأن يتقوض صرح الزوجية الذى يستظل به الزوجان ، ومن ينسلان من بنين وبنات . يصف الرصافى حال هذه المطلقة التى ذوت نضرتها ، وذبلت بشاشتها . ولم تقترف ذنبا ، ولم ترتكب إثما :

حليلة طيب الأعراق زالت ... به عنها وعنه بها الكروب
رعى ورعت فلم ترقط منه ... ولم يرقط منها ما يريب
توثق حبل ودهما حضورا ... ولم ينكث توثقه المغيب

وزوجان على هذه الصلة الوثقى يفصمهما سبب تافه لا ذنب على الزوجة فيه :

فغاضب زوجها الخلطاء يوما ... بأمر للخلاف به نشوب
فأقسم بالطلاق لهم يمينا ... وتلك ألية خطأ وحوب
وطلقها على جهل ثلاثا ... كذلك يجهل الرجل الغضوب
وأفتى بالطلاق طلاق بت ... ذوو فتيا تعصبهم عصيب
فبانت عنه لم تأت الدنايا ... ولم يعلق بها الذام المعيب
فظلت وهى باكية تنادى ... بصوت منه ترتجف القلوب

وفى أسلوب قصصى بديع يسوق الشاعر محاورة تخيلها بين هذين الحبيبين اللذين فرق بينهما الطيش ، وطوح بسعادتهما الحمق : فهاهى ذى الزوجة تسق زوجها وطليقها كأس العتاب تفيض بالأسى والحسرة ، وهو لا يزال يظهر لها تعلقه بحبها ، وأنها كلمة شاردة جرت هذا الوبال .

لقد أباح الشرع الطلاق حين استحالة الحياة بين الزوجين وهو بهذا يزيل الضيق لأن هدفه ضمان السعادة للناس ، ومتى كان الزواج عقبة فى سبيل سعادة أحد الزوجين فلا ضير من إزالة هذه العقبة :

ألا قل فى الطلاق لموقعيه   بما فى الشرع ليس له وجوب
غلوتم فى ديانتكم غلوا   يضيق ببعضه الشرع الرحيب
أراد الله تيسيرا وأنتم   من التعسير عندكم ضروب
وقد حلت بأمتكم كروب   لكم فيهن لا لهم الذنوب

وقد أدى هذا الخطب إلى ضعف حبل الزوجية فلا ثقة بين الزوجين ولا طمأنينة بين الإلفين :

وهى حبل الزواج ورق حتى   يكاد إذا نفخت له يذوب
كخيط من لعاب الشمس أدلت   به فى الجو هاجرة حلوب
يمزقه من الأفواه نفث   ويقطعه من النسم الهبوب

نستطيع بعد كل هذا أن نقول إن الرصافى قد حبا النساء بما لم يحب به غيرهن ، وإنه نصب نفسه محاميا فى الذود عن حقوقهن فهو نصير المرأة غير منازع ، ومن رواد نهضتها الآخذين بيدها فى الشرق .

وبالرصافى ونظرائه فى العراق وفى غير العراق من شعراء العربية أخذت المرأة سبيلها إلى الحياة ، فا نتبهت وكافحت ، فتعلمت ، ولا تزال تناضل الرجل لتقتنص من بين يديه حقها موفورا ، وما وصلت إليه المرأة فى أيامنا يبشر بأن ستبلغ المرأة العربية ما بلغت أختها فى بلاد الغرب ، وبذلك تحقق آمالها التى

صبت إليها منذ زمن طويل (١)

---

(١) يرى بعض الأدباء أن مما يمتاز به أدب كل من الشاعرين الزهاوى والرصافى مايسمونه تحرير المرأة ويراد بذلك أن تحذو المرأة المسلمة حذو المرأة الغربية فى حياتها ووجوب تمتعها بالقسط الذى يتمتع به الرجل وقد سبقهم إلى ذلك الكاتب الاجتماعى المصرى المشهور قاسم أمين والذى نأخذه على هؤلاء الأدباء والكتاب انهم يترسمون فى ذلك خطا الغربيين فى استساغة سفور المرأة ومنحها ما يمنح الرجل من حرية تبيح لها الشخوص فى المجالس والخلوة بغير المحارم من الرجال واستقبال الأصدقاء أو من يسمونهم أصدقاء، ويقلدونهم تقليدا أعمى فى كثير من الأحيان ، كأن الغربيين أول من نادى بعتق الانسان المظلوم وتحريره من ربقة الاستعباد مع أن الشريعة الاسلامية أول شريعة أنصفت المرأة ومنحتها حقوقا لم تمنحها امرأة قبلها فى شريعة أخرى .

والواقع أن العوامل التى عملت على زوال مجد الأمة العربية أو الاسلامية واستقلالها وحضارتها هى نفس العوامل التى عملت فى سوء معاملة الرجل للمرأة فى هذا الجزء من العالم الاسلامى ولا معنى لنسبة التقصير فى هذ الشأن إلى الاسلام نفسه ولا بد لنا من القول إن للامم إذا أرادت مجاراة الشعوب الناهضة مراحل معينة لا بد أن تقطعها مرحلة مرحلة. ومن رأينا أن مثل هذه القضايا الاجتماعية المعضلة ومنها القضية التى يسمونها تحرير المرأة ومنحها مايمنح الرجل من حرية ورفع الحيف عنها فى الزواج والطلاق وغير ذلك من حقوقها ليست من القضايا السهلة التى تحل بقصيدة ينظمها شاعر أو مقالة ينشئها أديب . فقد مرت الشعوب الناهضة بأدوار عديدة إلى أن وصلت المرأة عندهم إلى ماهى عليه اليوم وليس من شأننا استحسان ذلك ولا استهجانه فى هذه الكلمة . غير أننا نرى أن قضية المرأة وتحررها من القضايا التى يحلها الزمن. ولا مناص لنا من القول إن الدعوة إلى سفور المرأة وتبرجها على لسان الشعراء والادباء هو آخر ماتحتاج إليه الشعوب الفتية الناهضة إذا وضعت حاجات الشعوب ومطالبها الكبرى فى قائمة يقدم فيها الأهم على المهم فى هذه الحياة .

(العلامة الشبيبى)

هذا الذى ذكرناه فى الفصول السابقة صورة مصغرة لكفاح الرصافى فى الحياة العامة ، ومظهر لحسن بلائه فيها ، وهو كما ترى كفاح امتد إلى سائر جهاتها وشمل كل مناحيها ، يستوى فى ذلك ما استوى فى قرارة النفوس من الملكات التى تصدر عنها الفضائل والرذائل ، وما شمل المجتمع من الظواهر الكثيرة ، ما تباين منها ، وما ائتلف .

ولقد رأيت كفاحه السياسى على الصورة التى فصلناها ، وقد يجد القارىء فى بعض جوانب هذه الصورة مالا يرضى من التناقض . ولكنه سيراها على كل حال كفاحا فى سبيل مثله الأعلى ، ونزعاته المتضاربة !

أما شعره الاجتماعى فقد رأيت أنه امتد فتطاول فشمل كل نواحى الحياة وإلى هنا نرى أن الشاعر قد أرضى مذهبه الذى يدين به فى الشعر وهى أنه لا انفصام بين الشاعر وبيئته وكما لاح من بعض كلمات الرصافى ميله إلى القول بمذهب وحدة الوجود دعا كذلك الى وحدة المجتمع ، بأن يكون كل من فيه ومافيه عاملا له ، ومجاهدا فى سبيله ماوسعه الجهاد فلا تعيش لبنة من لبناته فى منأى عن أخواتها ولا تتخاف شاة عن قطيعها ، بل الكل رائد نفسه ، ورائد مجتمعه .

ولقد دافع الرصافى عن هذا المبدأ دفاعا مجيداً ، فهو من الذين يدينون بما عرف فى عصرنا بمذهب (الفن للمجتمع) ينتصر له قولا ، ويظاهره عملا على النحو الذى رأيت فيما سبق ، فلا يريد لشعره إلا أن يكون صورة واضحة المعالم لمجتمعه الذى عاش فيه . وهذه الصورة ترى فيها قبائح المجتمع وعلله وآفاته فى نزاهة وإخلاص . كما ترى فيها مفاخر هذا المجتمع ومباهجه التى تأخذ بيدك من هذه الهوة القاتمة إلى شىء من الرضا .

ولم يقف الرصافى أمام هذا التصوير القاتم أحيانا المشرق حينا موقف المتفرج الذى لا يعنيه شىء مما يرى فى هذا المجتمع الصاخب ، بل أدلى بدلوه فى الدلاء ، ونبه النفوس الخامدة ، وحاول ما استطاع إنهاض عزائمها وإشعال

جذوتها ، وتوجيهها إلى مايرى فيه الخير والقوة وبناء مجد سامق ، يضاهى فى عظمته تاريخ أمته السابق الحافل بجلائل الأعمال ، وباهى المعال .

ولم يعجب الرصافى مذهب الذين يقولون (بالفن للفن) فى خروج على المجتمع أو موافقة له ، إذ أن الفنى فى هـذه الحالة الثانيـة لا يعنيه إلا خياله المشرق والمغرب ، وجمال تصوره لمـا وقر فى نفسه من المعانى والأخيلة أو خطر على قلبه من صورة رائعة أعجبته فصاغها بمـا أوتى من قدرة على إبراز هذه الصورة فى أبهى الحلل ، وأشكل الأساليب وذلك مالا يتفق مع ما طبع عليه الرصافى الذى وهب المجتمع ما وهب من فن وعبقرية .

وحسبه دفاعا عن رأيه ما أودعه كتابه الموسوم (دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية » تحت ما أسماه « غاية الأدب» وقد آثرنا نقل هذه العبارة ليراها القارىء ، قال الرصافى :

«سمعت بعض المتجددين من أدباء الترك فى الآستانة يقولون: إن الأدب لا غاية له ، ويتوسعون فى هذا القول حتى يعموا به ما يسمونه بالصناعات النفيسة أو الفنون الجميلة، وهى الشعر والموسيقى والرسم والنحت، فهذه الصناعات كلها لا غاية لها عندهم ، بل هى الغـاية وهى المغيا ، فالرسام إذا رسم صورة كانت غايته تلك الصورة ، والشاعر إذا قال قصيدة كانت غايته تلك القصيدة وهلم جرا .

ولقد تأملت هذا القول فلم أجد له محصلا ينطبق على المعقول إذ لا ريب أن الغاية هى ما يكون لأجله وجود الشىء ، فهى إذن علة الوجود ، وليس من المعقول أن يكون الشىء علة لنفسه ، فإذا قال الشاعر قصيـدة فليس من المعقول أن تكون القصيدة نفسها هى الباعث له على قولها .

سألت عن تحقيق معنى هذا القول بعض من يقولونه فلم يجيبوا بما يشفى الغلة ، ثم إنى اطلعت على كتاب فى علم النفس نقله من الإفرنسية إلى التركية

نعيم بك البابان مدرس علم النفس فى دار العلوم بالآستانة فقرأت فيـه بحث قولهم (الصنعة للصنعة) . وعلمت منه أن ليس معنى هـذا القول أن الفنون الجميلة لاغاية لها ، بل معناه أنها لاتحتاج فى وجودها إلى مادة خارجة عن غايتها، فإن الصناعات عندهم قسمان ممتهنة وعالية . فالممتهنة هى مايحتاج فيها الصانع إلى مادة خارجة عن غايتها كالنجارة مثلا فإن النجار يحتاج فيها إلى خشب يصنع منه كرسيا والخشب خارج عن غاية الكرسى بخلاف الصناعات العالية، التى هى الفنون الجميلة ، فإن الصانع فيها لايحتاج إلى مادة خارجة عن غايتها كالشعر مثلا ، فإن الشاعر إذا قال شعراً لايحتاج فيه إلا إلى استعمال الكلمات وهى غير خارجة عن الغاية المقصودة منه ،بل هى نفس تلك الغاية لأن غاية الشاعر من شعره إثارة العواطف والتأثير فى النفوس بوصف مشهد من مشاهد الطبيعة أو بتصوير منظر غرامى أو مدح أو هجاء أو غير ذلك، والكلمات التى يستعملها فى شعره ليست بخارجة عن هذه الغاية ،بل هى الغاية نفسها لأنه متى تكلم بتلك الكلمات ، وأنشدها السامعين فقد حصلت غايته المطلوبة التى ذكرناها .

هذا هو معنى قولهم (الصنعة للصنعة) وهو معنى صحيح لا غبار عليه ولا يلزم منه أن الأدب ليس له غاية كما يقولون[١]» اه .

ويخيل إلينا أن الرصافى فى هذا الشرح لنظرية (الصنعة للصنعة) مع كونه حقيقة لاشك فيها قد حاد عن معناها ، أوحاد مفهمه هذه النظرية عما عرف إلى الأثر والمؤثر ، والعلة والمعلول ، أوأنه فهمها الفهم الذى يتناسب هو وماطبع عليه ، وما عرف عنه .

---

(١) الرصافى : دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٩ ج ١ مطبعة دار السلام فى بغداد ١٩٢٨ .

٣

سائر أغراضه

ومع هيام الرصافي هذا الهيام الشديد بمجتمعه ومع هذه الثروة الاجتماعية التي خلقها في ديوانه المطبوع من الشعر الاجتماعي، نجده كذلك الشاعر العاطفي المبدع، الذي تعددت نواحي شاعريته، وتنوعت جوانب إبداعه، فلم يدع الرصافي بابا من أبواب الشعر طرقه الأقدمون، أو عالجه المحدثون، ولا فنا من فنونه، إلا وقد تصرف فيه وعالجه علاجا قويا فكانت له هذه الشاعرية المكتملة الناضجة الشاملة، فمدح وهجا، ووصف وتغزل، ورثى، ورضي وشكا ونخر.

الوصف

الطبيعة في شعر الرصافي:

ولكن أهم هذه النواحي جميعا هي وصفياته، فقد توسع الرصافي في الوصف توسعا عظيما، وأهم ماتناوله بالوصف الطبيعة بما فيها من جمال وإبداع في السماء ونجومها، والأرض وجبالها، ووهادها ووديانها، والبحار والأنهار وعظمتها.

لقد افتتن الرصافي بالطبيعة افتتانا ملك عليه لبه، واستولى على مشاعره فكان ترجمانا لهذه الطبيعة التي وقف حيالها موقف المصور البارع، المأخوذ بسحر جمالها، وهو أحد أولئك الشعراء الذين ألهمهم الكون. فقرءوا فيه سطور الإبداع، وصاغوا منها غرر شعرهم:

قرأت وما غير الطبيعة لي سفر　　　صحائف تحوي كل فن من الشعر

أرى غرر الأشعار تبدو نضيدة   على صفحات الكون سطرا على سطر

وهو فى هذه المواقف قد ينحرف عن غايته من الإشادة بهذه المناظر الباهرة، والتغنى بالصور الساحرة التى شحذت عبقريته. وألهمت شاعريته، فيقف موقف المفكر المتأمل الذى يجد فى استكناه أسرارها، والإحاطة بحركاتها ويحاول أن يتفلسف؛ فيتنكب به المسلك، وينبو عنه السبيل، وتغلب شاعريته الثرة على ما كان قد حاول من إنعام النظر، وإعمال الفكر والعقل.

ولقد أفرد الشاعر فى ديوانه بابا سماه «الفلسفيات» وعندنا أن هذه التسمية لم تكن فى محلها فلقد جمع فى هذا الباب ثمانى قصائد من شعره هى: خواطر شاعر ـ وجه ابن آدم ـ ما وراء القبر ـ لو ـ حقيقتى السلبية ـ حياة الورى ـ حبذا النوم ـ بين الروح والجسد.

وقبل أن ننساق فى شرح هذه القصائد (الفلسفيات) كما سماها الشاعر، نقف أمام قصائده الوصفية الخالصة التى انبثت فى ديوانه فكسته حمرة الشفق وزرقة السماء، وتلألؤ النجوم، ونضرة الزروع، وإيناع الورود. ومنها ما أفرد له بابا، هو سفر هذه الطبيعة المفعمة بآيات الخالق الناطقة بعظمته، الدالة على إعجازه، وفى هذه القصائد صب الرصافى شاعريته الصافية فى هذه القوالب الشعرية التى استحق بها أن يكون فى مقدمة الوصافين من مجيدى الشعراء.

ودونك قصيدة (الغروب) لترى الشعر الفنى الأصيل، وترى التشبيهات البارعة. قال يصف قرص الشمس حال الغروب:

نزلت تجر إلى الغروب ذيولا   صفراء تشبه عاشقا متبولا

تهتز بين يد المغيب كأنها   صب تململ فى الفراش عليلا

وهى حين أشرقت كانت ضاحكة، وحين تهم بالمغيب تبكى دما:

ضحكت مشارقها بوجهك بكرة   وبكت مغاربها الدماء أصيلا

مذحان فى نصف النهار دلوكها   هبطت تريد على النزول نزولا

قد غادرت كبد السماء منيرة   تدنو قليلا للأفول قليلا

ثم يشبه وجهها بالورس ، ويشبهها بالعرارة حين تدركها الصفرة والذبول:

حتى دنت نحو المغيب ووجهها   كالورس حال به الضياء حيولا

وغدت بأقصى الأفق مثل عرارة   عطشت فأبدت صفرة وذبولا

ثم يدع هذا إلى الشفق الذى يعقبها فى المغرب :

غربت فأبقت كالشواظ عقيبها   شفقا بحاشية السماء طويلا

شفق يروع القلب شاحب لونه   كالسيف ضمخ بالدما مسلولا

ولم يقف عند تشبيه الشفق بهذا السيف المسلول ، المضمخ بالدماء بل أتبعه بعدة تشبيهات بارعة ، فشبهه بدمع اليتيم الذى يشوبه دم الحسرة والهوان ، والظلم . ولا غرابة فى هذا التشبيه الذى أورده الرصافى الذى لم يفارق خياله أنات المظلومين ، وزفرات البائسين ، حتى فى مثل هذه المواقف الملهمة ، التى كان يرتقب أن تسرى عن نفسه ، وتخلى حينا بينه وبين آلام المجتمع :

يحكى دم المظلوم مازج أدمعاً   هملت بها عين اليتيم همولا

رقت أعاليه وأسفله الذى   فى الأفق أشبه عصفرا محلولا

وكأن الشمس رفعت بهذا الشفق ردنا مبتلا بذوب ضيائها ، وكأنها الغادة تودع إلفها ، ملوحة له بمنديلها .

كالخود ظلت يوم ودع إلفها   ترنو وترفع خلفه المنديلا

ويدع هذا الوصف الفنى لمنظر الغروب إلى هذه الصور المادية يرسل إليها مدى طرفه ، فينبعث صداها فى قلبه فيرى المروج والحدائق ذات اليمين وذات الشمال ، وتروعه أصوات الدوالى ، وكأنها عويل المحزونين ، وعن كثب ذلك الراعى يروح بشويهاته إلى مراحها ، وفى ناحية أخرى ذو برذونتين يعود بهما إلى مأواه ، وقد أنحله الجد طوال يومه . وفى أقصى الأفق دخان متصاعد إلى أجواز الفضاء ، وكأنه سبب يصل السموات بالأرض ، انظر إلى هـــذا الاستقصاء البديع :

لم أنس قرب الأعظمية موقفى   والشمس دانية تريد أفولا
وعن اليمين أرى مروج مزارع   وعن الشمال حدائقا ونخيلا
وتروع قلبي للدوالى نعرة   فى البين يحسبها الحزين عويلا
ووراء ذاك الزرع راعى ثلة   رجعت تؤم إلى المراح قفولا
وهناك ذوبرذونتين قد اثنى   بهما العشى من الكراب نحيلا
وبمنتهى نظرى دخان صاعد   يعلو كثيرا تارة وقليلا
مد الفروع إلى السماء ولم يزل   بالأرض متصلا يمد أصولا
وتراكبت فى الجو سود طباقه   تحكى تلولا قد حملن تلولا

ثم يصور الليل ورهبته ، وحزن الحزون والسهول على فراق الشمس ، وصور الظلام عزرائيل النور ، وقد أذهلته دجنة الليل ووحشته، فظل يحسب كل شخص غولا ، وأنه أخذ يخبط فى الظلام ليس له من هاد إلا نجمة القطب ثم طلعت نجوم الليل تترى فآنست وحشته ، وبددت أوهامه ، ثم انتقل إلى عظمة خالق هذه الصور :

سبحان من جعل العوالم أنجما   يسبحن عرضا فى الفضاء وطولا
كم قد تصادمت العقول بشأنها   وسعت لتكشف سرها المجهولا
لا تحتقر صغر النجوم فإنما   أرق الكواكب ما استبان ضئيلا
دارت قد يما فى الفضاء رحى القوى   فغدا الأثير دقيقها المنخولا
فاقرأ كتاب الكون تلق بمتنه   آيات ربك فصلت تفصيلا
ودع الظنون فلا وربك إنها   لم تغن من علم اليقين فتيلا

وللرصافى عدا هذه الخريدة ، وصف رائع وصف فيه السماء والبدر فى الهزيع الأخير من الليل والنجوم المنتشرة فى الفضاء ، كأنها عقد انفرط من جيد حسناء :

ركبته وبياض الليل تحسبه   صدر المليحة مكشوف التلابيب

وَالبدر في الأفق الغربي ممتقع   يرنو إلى الفجر في ألحاظ مرعوب
وللنجوم بقايا في جوانبه   كالعقد منفرطا من جيد رعبوب
وللنسيم هبوب في مدارجه   ماينعش الروح من نشر ومن طيب

وندع ـ خشية الإطالة ـ ما منح الرصافي الطبيعة من غالى شعره ، مكتفين بهذه الصورة النموذجية التي أوردناها ؛ وللقارىء أن يرجع إلى ديوانه ليجد نظائرها روعة وقوة شاعرية وفخامة أداء كقصيدة « على جسر مود » [١] ومطلعها :

لاتبك أربعهم ولا الأطلالا   واربأ بحبك أن يكون خيالا

و « على البسفور » [٢] ومطلعها :

وقفت على البسفور والريح عاصف   وللدوح ظل دونه متقلص

و « وقفة في الروض » [٣] ومطلعها :

ناح الحمام وغرد الشحرور   هذا به شجن وذا مسرور

وغير هذه كثير مما تأنق فيه الشاعر فأبرز الطبيعة في حلتها القشيبة ، المستحبة . وكما وصف الرصافي هذه الطبيعة المتألقة كلما عبر عليها الزمن زادها جدة ، كذلك وصف آثار العمران والحضارة من حدائق ذات بهجة نسقتها أيادى الفنيين ، وقصور شامخات شادها المترفون ، وطرقات تشق المدائن وتنتظمها إلى غير ذلك من أسباب المدنية ومستلزمات الحضارة .

المخترعات الحديثة :

والرصافي كغيره من الشعراء في عصر النهضة الحديثة ، الذين استهوتهم مظاهر المدنية وأخذت بلبهم المستحدثات في هذا القرن العشرين ، فوصفوها

---

(١) ديوان الرصافي صفحة ٢٢٦   (٢) ٢٢٧   (٣) ٢٣٦

وأبدعوا فى وصفهما ما استطاعوا ، وأشادوا بأثر العلم الذى أمد الحياة كل يوم بمستحدث جديد ، يزيد فى رفاهية الإنسانية ، ويعمل على إسعادها .

ومن آياته فى ذلك قصيدته (فى القطار) وقد صاغها فى مطلع هذا القرن وكان (القطار) إذ ذاك أعجوبة من الأعاجيب التى جاد بها الزمن . فأنقذ الناس من تسلق الجبال ، واعتلاء الهضاب ، وهبوط التلاع والوديان ، وكان فى ذلك من شق الأنفس ما فيه . وكان شعراء النهضة هم الذين عبروا عن هذا الإعجاب أجمل تعبير ، وفى مقدمتهم شاعرنا الرصافى قال :

وقاطرة ترمى الفضا بدخانها ... وتملأ صدر الأرض فى سيرها رعبا
لها منخر يبدى الشواظ تنفسا ... وجوف به صار البخار لها قلبا
تمشت بنا ليلا تجر وراءها ... قطارا كصف الدوح تسحبه سحبا
فطورا كعصف الريح تجرى شديدة ... وطورا رخاء كالنسيم إذا هبا
تساوى لديها السهل والصعب فى السرى ... فما استسهلت سهلا ولا استصعبت صعبا
تدك متون الحزن دكا وإنها ... لتنهب سهل الأرض فى سيرها نهبا
يمر بها العالى فتعلو تسلقا ... ويعترض الوادى فتجتازه وثبا
وتخترق الطود الأشم إذا انبرى ... وقد وجدت من تحت قبته نقبا
يرن بجوف الطود صوت دويها ... إذا ولجت فى جوفه النفق الرحبا
لها صيحة عند الولوج كأنها ... تقول بها يا طود خل لى الدربا
وتمضى مضى السهم فيه كأنما ... ترى أفعوانا هائجا دخل الثقبا
تغالب فعل الجذب وهى ثقيلة ... فتغلب بالدفع الذى عندها الجذبا
طوت بالمسير الأرض طيا كأنها ... تسابق قرص الشمس أن يدرك الغربا
وما إن شكت أينا ولا سئمت سرى ... ولا استهجنت بعدا ولا استحسنت قربا

وبعد هذا الوصف البارع ، والتشبيهات المادية الظاهرة ، والتقصى الجامع ينتقل إلى هذا العصر الذى يسميه (عصر البخار) فيشيد به ، ويشير إلى موازنة عابرة بين الكهرباء والبخار فيقول :

تعاليت ياعصر البخار مفضلا ... على كل عصر قد قضى أهله نحبا
فكم ظهرت للعلم فيك معاجز ... بها آمن السيف الذى كذب الكتبا
تظاهرت من فعل البخار بقوة ... يذلل أدنى فعلها المطلب الصعبا
وأقسم لولا الكهرباءة فوقه ... لقلت على كل القوى ته به عجبا

وله قصيدة أخرى وصف فيها مخترعا حديثا هو السيارة وعنوان القصيدة (سفر فى التوميبل) وقد أجاد الوصف ، وأحسن السبك ، وتدفقت شاعريته تدفق المورد الذى لا ينضب ، وفيه من حلاوة الأسلوب ، وجودة السبك وروعة التصوير ، ما يرفعه إلى رتبة الفحول فى عصور العربية الزاهرة ، ومن هذه القصيدة :

كأنها وهى بالمطاط منعلة ... تمشى بأخفاف أنواق مطاريب
يمر كالريح لم تسمع لأرجله ... سوى حفيف كنفخ فى الأنابيب
وتنكر الخيل إن جارته فى سنن ... ماتعرف الخيل من حضر وتقريب
تظله قبة فيـــه منجدة ... قد زانها حسن تنجيد وتقبيب
يخال من حل فيها نفسه ملكا ... يزهى بتاج على الفودين معصوب

ومنها :

فطار من غير تحليق براكبه ... بل مر يمطر مطرا فوق ملحوب
وسار سيرا دراكا مل‌ء مهيعه ... كالوبل يتبع شؤبوبا بشؤبوب
فكنت أبصر حولى الأرض جارية ... كمثل تيار بحر وهو يجرى بى
يلوح فصل الربا وصلا فأحسبها ... من سرعة المر قد صفت بترتيب
ما زال يجتاز بى ما فى البسيطة من ... سهل ومن جبل عالى الشناخيب
حتى بلغت به أقصى مدى عجزت ... عنه العتاق من الجرد السراحيب
وكم علا بى أنشازا تسلقها ... وشاب فى السير تصعيدا بتصويب

وصف مجالس الأنس :

أما مجالس الأنس ، ومجتمعات اللهو ، فقد عالج الشاعر وصفها ، وتأنق كل التأنق ، والرصافى من عرفت هو من لا يتحرج عن تعاطى اللهو ، والتماس أسباب المتعة ، والترفيه عن نفسه ، فكانت له فى هذا الميدان جولات !

ولقد آليت حين أشرعت القلم للكتابة عن الرصافى ألا أجرى وراء رواية صديق شفيق ، وألا أتتبع قول شانىء حاسد للرجل مبغض له ، فكلا الرجلين متهم وكلاهما مغال فى رأيه .

ولم يسعدنى الحظ برؤية الرصافى أو بمجالسته ، فألمس بنفسى عن كثب أهواءه وميوله ونزعاته ، فكان من أثر هذه الرغبة عن قول الصديق ، ومقالة العدو ، وعدم تعرفى على شخصه ، أن عكفت على قراءة ديوانه قصيدة قصيدة وبيتا بيتا ، وأطلت النظر إطالة من يريد تعرف السبيل باجتهاده ، ومن يريد أن يستخلص بنفسه ما يحتمل الشعر من المعانى .

وقد ساعدنى على إدراك ما أملت هذا الديوان ، الذى وجدت فيه غناء أى غناء ، فالرصافى رجل صريح كل الصراحة ، جرىء كل الجرأة ، كما قدمنا فى أكثر من موضع ، وإن هذه الصراحة والجرأة لتفيدان الباحث المدقق كل الإفادة.

والرصافى كما عودنا هو دائما يقول ما يعنى ، ويعنى مايقول ، ولا أجد عذرا لمن يدعى أن الشاعر كثيرا ماقد يقول ، وكثيرا ماقد يبالغ دون أن يعلق شىء مما قال بقلبه . فإن صح أن يقال هذا عن غير الرصافى من الشعراء فما نراه يصدق عليه من قريب أو من بعيد .

فإذا قلت : إن الرصافى لا يتحرج عن تعاطى أسباب اللهو ، ولا يحجم عن التماس المتعة والترفيه عن نفسه ، والتعلق بأسباب الهوى . والأخذ من شهوات الدنيا ولذائذها بنصيب ، فذلك ما قرأته فى شعره . وإنك لترى فى الأبيات الآتية فى وصف مجلس خمر إدمان الشاعر معاقرة ابنة الكرم ، لا يجتزىء

منها بالكأس ولا بالكأسين . ولكنه يقصد كبرى الزجاجات :

ولى عند إخوان الصفا أريحية   إلى كل خل فى الزمان موافق
إذا ماعقدنا مجلس الأنس بالطلا   فبينى وبين السكر خمس دقائق

ثم يأخذ فى تبيان سبب هذا السكر السريع :

أقوم إلى كبرى الزجاجات مدهقا   بمستقطر من خالص التمر رائق
فأقرع بالكأس الروية جبهتى   بشرب كما عب القطا متلاحق
أسابق ندمانى إلى السكر طائرا   بجنح من الأنس المضاعف خافق
فما هى إلا بعد شربى سويعة   وقد دب من رأسى الطلا فى المفارق

ويصف مجالسته ندمانه على الشراب ، وما يجدون فى حديثه الشهى من المتعة واللذة . وما يبدو منه من الملاطفة والممازجة والصراحة :

فنادمت أصحابى على غير حشمة   وقلت لهم ما قلت غير منافق
وأغنيتهم عن نقلهم فى شرابهم   بمز طرى من نقول الحقائق
ولم يبد فى السكر عند اشتداده   سوى شكر خلى ، أو سوى حمد خالقى

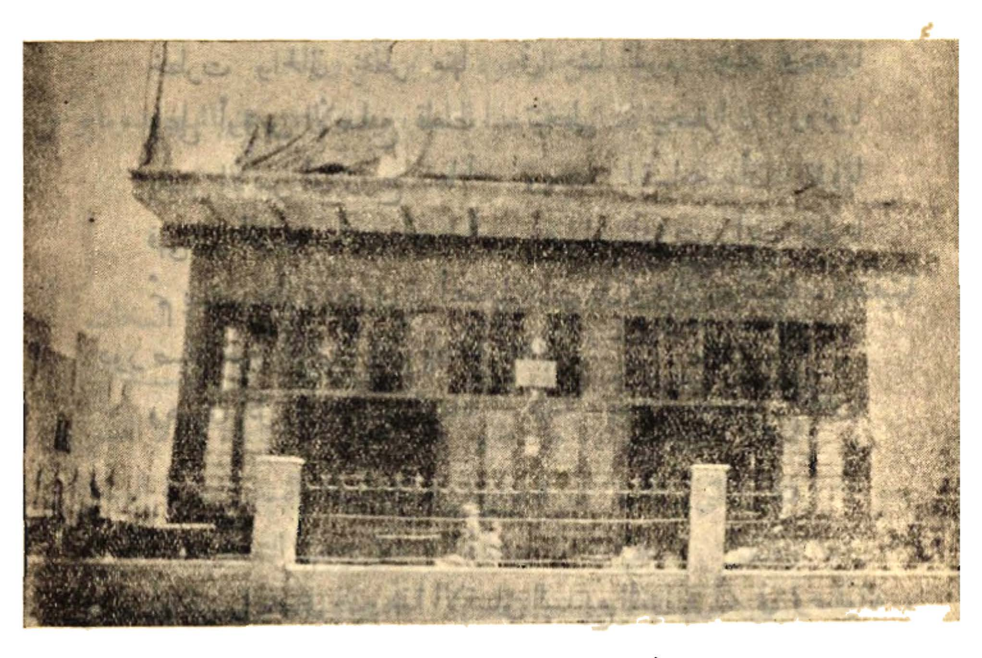
ويلوح لى أن إدمان الرصافى معاقرة الخمر لم يكن ناشئا عن اعتقاد أن تعاطى الخمر مباح ، فإنك لتراه فى هذه الحال التى وصفها من الإغراق فى السكر لا ينسى حمد خالقه ، أو لعله أقحم هذا المعنى وهو حمد خالقه إقحاماً ، أو لعله احترس به من قالة الناس فيه . ولقد بدأ معروف تعاطى الخمر عبثا ، فصار له ذلك عادة وديدنا ، فلج بها ولجت به ، و« العادات قاهرات » كما يقول فى قصيدة طويلة ترى فيها استنكار الرجل لهذه الموبقات واضحا جليا :

لو لم تكن هذه العادات قاهرة   لما أسيغت بحال بنت حانات
ولا رأيت سكارات يدخنها   قوم بوقت انفراد واجتماعات
إن الدخان لثان فى البلاء إذا   ماعدت الخمر أولى فى البليات

فهو يرى بنت الحان منكرا قهر الناس على مزاولته حكم العادة ، ويرى

التدخين ثانى البلايا ، وشرب الخمر أولها . ثم يقول فى صراحة إن هذه الخمر حين تروج تجارتها فى الأسواق ، فإن رواجها رواج للباطل ، وهكذا الدهر سوق نافقة للباطل!

لو لم يك الدهر سوقا راج باطلها ما راجت الخمر فى سوق التجارات !



كان يلذ للرصافى أن يقضى بعض وقته فى هذا المقهى بالأعظمية
وقد سمى باسمه تخليدا لذكرى إيثاره إياه « كازينو الرصافى »

وإليك ما وصف به راقصة فى ملهى من ملاهى الآستانة لترى الإجادة فى الوصف والدقة فى النعت ، ولترى حركات قلبه تتبع حركات الرقص :

أقبلت تنثنى بقد رشيق ألبسته البرد القصير قشيبا
قصرت منه كمه عن يديها وأطالت إلى النهود الجيوبا
حبس الخصر حيث ضاق ولكن أطلق النحر باديا والتريبا

هوزى يزيد فى الحسن حسنا　　من تزيابه وفى الطيب طيبا

ثم يأخذ فى وصف حركاتها من تثن ، وانقباض وانبساط ، ويصف أثر كل أولئك فى قلوب القوم ، فخفقات قلوبهم تتبع حركاتها ، وعلى وجوههم تبدو آثار فعلها فى أفئدتهم ، إن دنت فبشر واستئناس ، وإن نأت فقطوب وابتئاس :

خطرت والجمال يخطر منها　　فى حشا القوم جيئة وذهوبا
وعلى أرؤس الأصابع قامت　　تتخطى تبخترا ووثوبا
يعبس الأنس أن تروح ذهاباً　　ويعيد ابتسامه أن تؤوبا
فهى إن أقبلت رأيت ابتساماً　　وهى إن أدبرت رأيت قطوبا

ثم يصف جارية أخرى قد أعقبتها ،ذات دل وجمال ، وقدمثلت ببندقيتها دور صياد خبير بالرمى ، طب بإصابة الهدف :

وهى فى كل ذا تصيب الرمايا　　مثلما طرفها يصيب القلوبا

الغـــزل

أما غزل الرصافى ففيه هذا الاتساق البـديع الذى قرأته فى وصفياته ، ولـكنك لن تجد فيه أثرا للعاطفة الحادة ، ولا لألم الحب وتبريح الصبابة .

وقد يعلق قلب الرصافى بالمرأة ، ويقع فى شراكها ، وقد يتجاوز ذلك إلى الهيام ، ولـكنه هيام موقت ، لا يلبث فى قلبه طويلا حتى يزايله ، ومن دلائل ذلك ، أنه لا يقصر حبه على واحدة شغفته حبا ، أو هامت بهوهام بها فهو أديب وهو شـاعر يهيم بكل ما هو جميـل ، وقد يتوزع هذا الجمال بين أكثر من واحدة ، فيتوزع حبه ، ويتفرق قلبه بين هؤلاء الغوانى ، ذوات القسامة والوسامة ،فيتقسمن هواه ،كما اقتسمن سمات الحسن وصفات الإغراء .

وأنت مع هذا لاتجده فى هذا الميـدان كغيره من الشعراء الذين عرفوا

بالمخاطرة ، والميل إلى المغامرة ، واقتحام المخاطر ، وركوب الأهوال فى سبيل إشباع هذه الرغبة الجامحة ، كما رأيت شيخ الشعراء (امرأ القيس) وكما رأيت (عمر بن أبى ربيعة) ، ولا تجده كذلك من أولى الحب الحار والعاطفة المشبوبة كالعذريين ، أو أولى الحب الأفلاطونى كما يسميهم بعض العلماء ، كالذى تجده (لجميل بن معمر) ومن إليه من رجال الحب البدوى العنيف العفيف ؛ ولكنه فى تنقله قد يشبه من بعض الوجوه عمر بن أبى ربيعة .

وإليك إحدى قصائده فى هذا الباب ، وسترى من عنوانها وحده ما يوحى إليك بما قدمنا :

الى جميع الغوانى :

وقفت عليكن قلبي الذى ... يمر به الحب مر السحاب
ومنكن أحببت هاتى وذى ... وألفيت عذباً بكن العذاب
فمنكن بيضاء ما مثلها ... (عدا خمرة الخد) إلا القمر
فتلك التى طاب لى وصلها ... كما ليلة البدر طاب السمر
ومنكن حمراء جذابة ... حكى وجهها الشمس عند الطلوع
أرى عينها (وهى خلابة) ... فأمسك بالكف منى الضلوع
ومنكن صفراء فى لونها ... كأن قد تردت شعاع الأصيل
إذا ما تمشت على هونها ... أصحت هبوب النسيم العليل
ومنكن سمراء تحكى الدمى ... وتبعث فى القلب ميت الهوى
على شفتيها يلوح اللمى ... فيضرم فى الصب نار الجوى
ومنكن من هى مثل الرياح ... لها فى ذرى كل قلب هبوب
تريد غلاب جميع الملاح ... وتبغى عذاب جميع القلوب
ومنكن من هى مثل النجوم ... من البعد ناظرة تبتسم
فتلك عليها فؤادى يحوم ... وتلك إليها الردى أقتحم

فقيكن ظرا بوادى الهوى أهيم ، وإن لم تعد عائده
ألا إن حبا بقلبي انطوى كثير فلم تكفه واحده

وله إلى جانب هذا الهوى المتوزع ، والقلب المتفرق ، غزل مبتذل ووصف مكشوف لا يتورع فيه الرصافى عن ذكر الخفيات ، وإبداء العورات في غير تحفظ ولا احتشام ، مما يأباه العقل الحكيم ، ويمجه الذوق السليم ،وما كان يليق منه ولا يقبل هذا وهو الذى جعل شعره صورة لمجتمعه ، وقائدا لأمته ، ولاسيا بعد ماعرف إقبال الناس على آثاره،وحفظهم لأقواله .

ولعل فى قصيدته التى سماها « بداعة لا خلاعة » أقصى الاستهتار والتبذل فى الوصف ، والكشف فى القصة ، ونحمد الله أن برىء ديوانه المطبوع ، من أمثال هذا الشعر الذى ينكره الذوق السليم .

وإن نحن أنكرنا على الرصافى هذا الشعر ، فما يجدر بنا أن نمثل له ، ولكن رغبتنا الشديدة فى التعريف بما يتيسر لنا من معرفة اتجاهات الشاعر ، ونزعاته ، هى التى تحفزنا دائما إلى التلميح لما لا يمكن به التصريح ، وقد يكون فى الإشارة ما يغنى عن صريح العبارة .

وهناك لون آخر من هذا الوصف أو هذا الغزل جنح إليه الرصافى فيما جنح ، وعالجه فيما عالج ، ألا وهو الغزل الغلمانى ، الذى ابتدعه أولئك الموالى من الشعراء فى العصر العباسى ، مما صار سبة للأدب العربى ، وجعله قذى فى عين قارئيه ، لأنه مظهر للانحلال الخلقى ، والانحدار الاجتماعى . على أن الذين لا يهمهم أثر ذلك فى المجتمع ، ولا صداه فى نفوس الرجال والشبان وما يجره هذا من الفساد ، يبيحون للشاعر أن يقول ما يشاء ما داموا يجدون فى قوله لذة فنية ، بغض النظر عما يترتب عليه من وخيم العواقب .

ومن غزل الرصافى فى المذكر أبيات معدودة ، نظمها فى مقطعاته منها مقطعته « وجه نعيم » وفيها يقول :

أسبغ الله نعيم الـ ـحسن فى وجه نعيم

قمر أغنى فى الإشـ ـراق عن ليل بهيم
علم الناس صحيح الـ ـحب بالطرف السقيم
يرجع السحر بعينيه إلى عهد الكليم

وفى مقطعته (عند لعبة البيلارد) ترى هذا الغرض فى وصف جماعة يزاولون هذه اللعبة :

يدحرجهن أغلمة ظراف نسيت بهم مغازلة الإناث
بأيديهم عصى مشرعات مهيأة لضرب واحتثاث
فكان إذا انحنى للضرب منهم غلام هاج شوقى وهوجاث
وربة ضربة لما تثنى ليضربها تثنى بانخنات
وكانت توبة لى عن مجون فعادت من هواه إلى انتكاث
فلست وقد تجدد لى غرام أبالى لوم ألسنة رثاث

فأنت ترى تصريحه بأثر هؤلاء الفتيان فى نفسه ، وترى ذكره لما كان قد عزم عليه من التوب ، ثم ترى عودته بتأثير هؤلاء إلى ما تاب عنه ، فتجدد غرامه ، وليس يبالى بعد ذلك أن يتناوله الناس بالقالة !

الفلسفيات

أشرنا فيما سبق إلى الرصافى الذى حاول أن يتفلسف، فخانه ظنه، وأشرنا إلى قصائده التى أفرد لها بابا خاصا دعاه (الفلسفيات) .

ونشعر أننا لسنا فى حاجة إلى تعريف الفلسفة ولا الإشارة إلى مناحيها وتاريخها ، ولكن حسبك أن تعرف أنها محاولة عقلية لتعليل الظواهر الكونية والجد فى استكناه حقيقة هذه الكونيات ، فموضوعها الكون بما يشتمل عليه .

ويحسن بنا أن نتناول كل قصيدة من القصائد المعدودة التى خصص لها بابا لنعرف حظ الرصافى من الفلسفة .

فأولى هذه القصائد قصيدته (خواطر شاعر)[1] وفيها بين الشاعر شيئا من الشكوك التى تساوره فى صحة بعض السمعيات، وصرح أن الحياة قد أقامت أمام العقل أسدادا حالت بينه و بين معرفة الحقيقة، ويعترف الرصافى بعجزه ، وعجز الناس عن إدراك هذه المعميات ، فعلم الناس فى كنهها نزر وقام الناس يستشفون ماوراء الستر ، فآبوا بالخيبة والفشل .

وتناول الرصافى مسألة الحياة والموت ، وشوقه إلى الموت كشوقه إلى الفجر كما شبه به الموت غيره من الحكماء ، ويستبشر أن ترقى الأرواح فتعرج إلى السماء فتكون بين الأنجم الزهر .

ويذكر الحياة الشعورية فيقول إن ما للحياة من الشعور لعجيب ، وإن العقل أعجب شأن من شئون الحياة ، فإنهما الهامن الشعور والعقل من المعميات، وإن كل ما يشعر به الإنسان من شئون هذه الحياة يعجز عن توضيحه المنطق ويعيا عن وصفه اللسان ، إذا حاول التعبير نظما أو نثرا .

وما كل مشعور به من شئونها قدير على إيضاحه المنطق الحر
فنى النفس ما أعيا العبارة كشفه وقصر عن تبيانه النظم والنثر

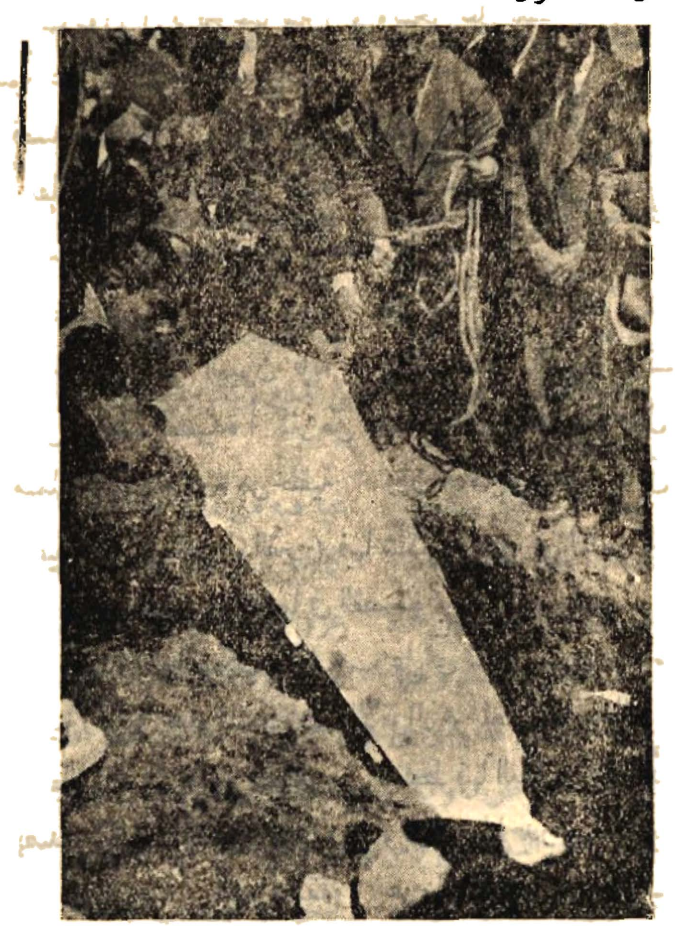
ويرجع هذا العجز إلى قصر اللغة ، وتحدد الألفاظ ، عن التعبير عن هذه المعانى التى يزخربها العقل :

ويارب فكر جالك فى صدر ناطق فضاق من النطق الفسيح به الصدر
ويارب معنى دق حتى تخاوصت إليه من الألفاظ أعينها الخزر
أرى اللفظ معدوداً فكيف أسومه كفاية معنى فاته العد والحصر
وأفق المعانى فى التصور واسع يتيه إذا ما طار فى جوه الفكر
ولولا قصور فى اللغى عن مرامنا لما كان فى قول المجاز لنا عذر

---

(١) ديوان الرصافى صفحة ١٩٣ .

ومن هذا ترى أن الرصافى قد احتج بحجة واهية ، فأرجع قصور فكره إلى تحدد اللغة وانحصار الألفاظ، وهذا كما ترى عذر واه ضعيف ، لا يرتضيه الفلاسفة ، ولا المفكرون .



روايةُ رُؤيا قد جرَتْ فى دِيارِنا فجائعُها حتّى انتهَتْ في المقابرِ

(الرصافى)

وانتقل من هذا إلى معنى آخر ، فأظهر استطاعة الشعر التعبير عن خفقات القلوب ، وعد منه سجع الحمائم ، وحوم الفراشة على الزهر ، ودمعة

العاشق يشكو للوصل ما فعل الهجر ، ورنة الثكلى المفجعة بواحدها وترجيع المطرب وائتلاق الكواكب بجنح الدجى ، وهكذا ترى الشاعر قد ترك هذه المشكلات دون أن يزيح عنها سترا ، وسجل على نفسه وعلى غيره العجز والقصور عن إدراك هذه المعميات .

وقصيدته الثانية [١] (وجه ابن آدم) يشرح فيها دلالة الوجه وقسماته على ما يخفى القلب ، وما يختلج فى الصدر ، مهما حاول العقل إخفاء ما تكن الصدور ثم ما تسبغه بعض الأعضاء على صاحبها من القسامة والوسامة :

والأنف فى وجه ابن آدم زينة   فالوجه لولا أنفه متجهم
كالهدب فى شفر العيون فإنه   لولاه تنشتر العيون وتسجم

وليس فى هذه القصيدة أكثر من هذه المعانى ، وخلاصتها قول الجاهلى :

ومهما تكن عند امرىء من خلقية   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وقصيدته [٢] (ما وراء القبر) فيها شكواه من رمى الناس بالكفر كل من أطلق لفكره العنان ، وكل ما فى القصيدة ترديد للسمعيات ، ولقاؤه هذه السمعيات بالتساؤل والتشكك ، ولم يجب على أى سؤال من هذه الأسئلة جواباً صريحاً يرينا رأيه فى هذه المشكلات والأقوال والمعميات ومطلع القصيدة :

متى تطلق الأيام حرية الفكر   فينشط فيها العقل من عقلة الأسر؟
ويصدع كل بالحقيقة ناطقاً   ويترك ما لم يدر منها لمن يدرى
أرانا إذا رمنا بيان حقيقة   عزينا ـ معاذ الله ـ فيها الى الكفر

وسأل عن موت الجسد ، وحياة الروح ، وتساءل فى تشكك عن تعرفها على جسد صاحبها ، وهل تظل تذكره وهى فى السماء وهو حطام على وجه

---

(١) ديوان الرصافى صفحة ١٩٦
(٢) ديوان الرصافى صفحه ١٩٨

الغبراء ؟ وتناول الأرض والسماء ، فقال إن كانت أرضنا سماء لغيرنا، فهى مصير لأرواح هذا الغير ، وليس يقول جواباً قاطعاً ، حتى نهتدى إلى ما يريد ، ولعلها فلسفة الشك التى تؤدى إلى اليقين ، ولكن أين هذا اليقين ؟ !

ولقد سبق للرصافى فى قصيدته الأولى أن عرض لمن يشبهون الحياة بالليل والموت بالفجر فقال :

وقد قال بعض القوم إن حياتنا كليل وإن الفجر مطلعه القبر
فإن كان هذا القول فيها حقيقة فيا شد ما قد شاقنى ذلك الفجر
وروح الفتى بعد الردى إن يكن لها بقاء وحس فالحياة هى الخسر
وإن رقيت نحو السماء لحبذا إذا أصبحت مأوى لها الأنجم الزهر

وهو فى هذه القصيدة يعيد هذا المعنى نفسه ويكرره ، وفى كلتا القصيدتين لم يوضح رأيه ، قال :

لعل حياة المرء ليل ستنجلى غياهبه من سكرة الموت بالفجر
فإن كان ذا حقاً فإن حياتنا كما قيل ستر، والردى كاشف الستر
وقد قيل إن الروح تبقى فهل لها عروج إلى الأعلى إلى الأنجم الزهر؟
وهل تعرف الجثمان بعد عروجها فتمكث منه فى السماء على ذكر؟

ويظهر أن الرصافى قد رأى فى هذه الأقوال شيئاً من الطرافة استهواه ، فأخذ يعرضها هذا العرض ، ويكرر هذا التكرار ، بأسلوب تجاهل العارف ولكنه لم يفصح عن النكتة التى يرمى إليها، وهى أحق شىء بالبيان والإفصاح !

وقصيدته (لو) [١] كلها تمنيات ، وليس فيها شىء من الفلسفة ، ولكنها نقدات للأولين والآخرين، وفيها شىء من الشعر الاجتماعى كقوله :

لو يجعل الناس التعاون دأبهم لتمتعوا بسعادة العمران
لو أن أخلاق الرجال تهذبت لتكشفت حجب عن النسوان

---

(١) ديوان الرصافى صفحه ١٩٩

وحبة الأوطان لولاها لما عرف الأنام عداوة الأوطان

ثم نظرة فى السماء والنجوم، وعرض للمجرة والشمس والأرض ، فيرى أن هذه المجرة لا خير فيها ، لأن هذه الأرض التى اقتطعت منها تغلى بالشر ويعرض للثريا والعيوق والدبران ثم يختتم القصيدة بقوله :

لو لم يكن فزعاً سهيل لم يبت فى أفقه متتابع الخفقان

وهذا البيت بمعانيه وألفاظه هو بيت أبى العلاء :

وسهيل كوجنة الحب فى اللو ن وقلب المحب فى الخفقان

إذا استثنينا فى بيت الرصافى فزع سهيل ، وهو كما ترى من حسن التعليل الذى يعرفه البديعيون ، وليس فيه من الفلسفة قليل أو كثير .

وقد عرضنا لقصيدته التى سماها «حقيقتى السلبية»[1] حين عرضنا لبحث حقيقة عقيدته[2] وهى تحوى طائفة من الأوهام والشكوك والإلحاد ، وشيئاً من عيوب المجتمع أيضاً ، وليس فيها سوى قوله :

ولا ممن يرى الأشياء تفنى بحيث تكون من عدم هواء

ولكن هن فى جمع وفرق تبدل منهما صور البقاء

فهو يجرى مع علماء الطبيعة الذين هاموا بالمادة ودرسها ، وانتهوا من ذلك إلى القاعدة المعروفة « المادة لا تفنى ولا تستحدث» . وهو رأى لما ينته الماديون من البحث فيه . وقصيدة «حياة الورى»[3] كلها من باب الحكمة ، أو الحقائق المجردة التى يهتدى إليها نتيجة لإطالة النظر وكثرة التجربة ، وليس فيها جديد من المعانى والأفكار .

ثم قصيدة «حبذا النوم» وهى التى حيا بها صاحبة مجلة «الفجر» وفيها نظرة إلى

---

(١) ديوان الرصافى ٢٠١

(٢) فى صفحة (٦٢) من هذا الكتاب .

(٣) صفحة ٢٠٢ من ديوان الرصافى

النوم ومايجدى من القوة والنشاط للجسوم المثقلة بتكاليف الحياة ، ومن انطلاق النفس إلى عالم الأرواح والأشباح ، وعنده أن حاجة الجسم إلى النوم لا تقل عن حاجة المصباح إلى الزيت ، وعرض للشبه بين الحى النائم ، وبين الثاوى بين القبور ، وهكذا ترى القصيدة كلها عرضاً لما يسبغ النوم على النائم من الراحة ، وإطلاق روحه من عقالها لتهيم فى أودية الخيال !

أما آخر هذه « الفلسفيات » فقصيدته التى سماها « بين الروح والجسد » وفيها يذكر هذه الصلة اوثق بين الروح والجسد ، لاصلاح لأحدهما دون صلاح الآخر ، ومن هنا كان هذا الاتصال :

فلا جسد يقوم بغير روح ولا روح بلا جسد تقوم

ويدعوه هذا الرأى إلى الشك فى بقاء الروح إذا أصاب الجسد البلى ، وسطا عليه الموت ، وهى إن بقيت ، « وهذا مالا يقبله عقله » فهى حياة دون شعور ، ويرى بعد ذلك أن مادة الروح هى المادة التى نبت منها الجسد وهى الغبراء :

ولست أظن أن الروح تبقى إذا محيت من الجسد الرسوم
وربتما يكون لها دوام ولكن غير شاعرة تدوم
وماهبطت من الخضراء لكن من الغبراء أنبتها الحكيم

ثم انتقل إلى أثر الطعام والشراب وألوانهما فى النمو الجثمانى ، وفى توليد الحرارة ، والاقتدار على الحركة ، وكل هذه الأقوال ليست له وإنما هى لعلماء الفسلجة !

وبعد أن عرض لما تقوى به وتنشط الجسوم ، عرض كذلك لما ينمى المشاعر والحلوم من الأنغام الشجية ، وطول تطلعها إلى الجمال ، ويستطرد إلى ذكر الغناء والطرب ، ويحث على الحرص عليهما ، فإن كل كريم طروب ، ولكنه يحذر الشطط والإسراف ، ويدعو إلى التوسط والقصد .

هذه هي قصائده الفلسفية جيعا عرضنا لها هذا العرض لتعرف ما اشتملت عليه من الأغراض ، وتقف على ما تضمنته من المعانى ، لتستخلص منها بعد ذلك ما تستطيع ، وأكبر الظن أنك لن ترى فيها رأيا جديداً للرصافى يصح أن يضاف إلى آراء الفلاسفة القدامى والمحدثين .

ولسنا ندرى ما جر الرصافى إلى هذا المضيق الوعر؟ أتراه كان يرى الشاعر لا تكتمل شاعريته إلا إذا عد فى المتفلسفين ؟ إن هذا القول لم يعد مسوغ له فى عصرنا الحاضر ، فإن نظرة المحدثين إلى الشعر فنا من الفنون الجميلة ، لتنفى هذه النظرات الفلسفية التى يشحذ فيها العقل ، ويتعلق بالعلوم التى تعنى بالحقائق ، دون هذا الفن الشعرى الذى ينفر من التعلق بحبال الفكر والتأمل إلى الصور الخيالية البارعة ، لأنه يخاطب القلوب والمشاعر والعواطف، فيكون لها غذاء وريا ، خلاف العلم الذى يخاطب الرءوس والقوى المفكرة .

المـــدح

أما مدح الرصافى فقليلة فى ديوانه وقد أوردنا لك نموذجالها (١) . والذى يخيل إلينا أن شعر المديح عند الرصافى كان وليد المناسبة ، فقلما خلصت قصيدة فيه ، وإنما أكثر شعره فيه تجده قد شيب بشكوى الزمان ، وتنكر الخلصاء وقسوة الدهر ، يرفع هذه الشكاة تحمل هذه المعانى ، وفى ثناياها ترى المديح إلى من توسم فيه الخير ، والعون على صروف الدهر ، اقرأ له قصيدته (إلى غرة آل سعدون) يبدؤها بالمديح ، ليصل إلى غرضه الأصلى :

أعبد المحسن السعدون إنى   أراك مناط أسباب الرجاء
وأبصر من فعالك بدر تم   يلألىء من نخارك فى سماء

---

(١) ارجع إلى صفحة ١٠٣ من هذا الكتاب لترى ما مدح به فخامة (نورى السعيد)

لذلك قد أتيت إليك أشكو   رثاثة بزتى وبلى كسائى

ويأخذ فى هذه الشكوى فى أبيات كثيرة إلى أن يعاود المديح مرة ثانية فينعته بمزاياه الجمة ، وكبر نفسه ، وعلو همته ، وبشاشة وجهه ، وأصالة رأيه ، واتقاد ذكائه ، وصراحته ، وعذوبة شمائله ، ومروءته وحيائه .

شكوت إلى فتى جم المزايا   كبير النفس منفرد السناء
فتى يوليك عندالبؤس خيرا   ولا ينساك فى حال الرخاء
رحيب الباع مؤتلق المحيا   أصيل الرأى وقاد الذكاء
صريح فى مقاصده إذا ما   أسر القوم حسوا فى ارتغاء
زكت أخلاقه فصفت ورقت   فهن لكل مكرمة مراء
يلاقى الزائرين ببشر وجه   تجلل بالمروءة والحياء

ولقد أجازه عبد المحسن السعدون بمبلغ كبير من المال ، أذهب عسره وقضى على شكاته ، ويظهر أنه كانت بين السعدون وبين الرصافى قطيعة ، فتحول إلى مدحة سرى كريم هو (عبداللطيف باشا المنديل) أحد كرام البصرة يمدحه ويشكو إليه ، ما كان يشكوه إلى السعدون ، فمدحه بأكثر من قصيدة ومن قوله فيه :

أبا ماجد إنى رأيتك مبصراً   خفايا أمور أعجزت كل مبصر
إذا خفيت يوماً عليك حقيقة   نظرت إليها من ذكاء بمجهر
وإن ليلة الخطاب ادلهمت كشفتها   بأوضاح صبح من فعالك مسفر
وتلك مزايا فيك أعلمت الورى   بأن بنى (المنديل) أكرم معشر

وينكر عليه بعد ذلك أن يكون الموصوف بأصالة الرأى ، وصدق النظر ، ثم لا يفطن إلى ما يعانى الرصافى من قلة ذات اليد ، ومن رقة الحال ، ويقف الرصافى بين نفسه الأبية ، وحاجته الملحة ، وأن إباءه هو الذى أورده هذا المورد ، فلو رضى لنفسه ذلها ، لتدفقت الأموال عليه ، ولأتى إليه على غيره

هـذه الصورة ، بل لأنى يسحب فضل إزاره ، ويذكر السعدون وحيلولة القضاء المقدر بينه وبين جزيل عطائه ، وأن المديح إن كان يباع لـكان له (المنديل) خير مشتر :

فهل خفيت حالى عليك وقد بدا ... لكل صـديق أنها حال مقتر
أتيتك من بغداد لم أدرما الذى ... أتى بى إلا أننى فى تحـير
وأحمل فى جنـــبى نفساً غنية ... وإن شقيت منى بجثمان معسر
ولو كنت فى بغداد أرضى بذلة ... لماجئت إلا ساحبا فضل مئزرى
ولـكننى قد عفت أن أرد الغنى ... ونفسى فى قيد من الذل مفقر
وما عدل السعدون بى عن وفائه ... ولـكن جرى مجرى القضاء المقدر
ولو أننى بعت الثنـاء بنائل ... لمـا رضيت نفسى بغيرك مشتر
وإن حديثى عنك غير مرجم ... وإن مقالى فيك غير مزور

وهكذا ترى الرصافى يمدح من يسدى إليه فضلا ، أو يمد يداً أو يأمل عطاءه ، وله من هذا اللون مدائح للسيد (مظهر الشاوى) الذى حنا عليه أيام فاقته ، وأثقله بعطائه أيام محنته ، وهو الذى كان يتبع المنة بالمنة ، أرسل إليه مرة مائة دينار حين عرف أنه يعانى ضنك العيش مع أنه (أى الشاوى) كان معتقلا فى العمارة ، وأرسل إليه فى مرة أخرى كسوة كاملة بجميع متمماتها حتى المناديل فأرسل إليه الرصافى بهذه الأبيات :

إليك يا (مظهر الشاوى) مغلغلة ... فيها الثناء لكم كالدر فى الصدف
تأتيك تحمل إجلالا وتكرمة ... من شاعر شاكر بالصدق متصف
ما إن تفوه عن كذب ولا ملق ... ولا تمدح عن عجب ولا صلف
يا خير ذى نسب بالنبل متجر ... بالمجد مؤتزر بالفخر ملتحف
أهديت لى حلة غيظ الحسود لها ... لأنها تحفـة من أنفس التحف
فرحت أرفل فيها وهى ضافيـة ... وأنت ترفل فى الضافى من الشرف

وصار عيشى بما أوليتنى رغدا ... وكان من قبل رهن البؤس والشظف
يا ابن الذين أقاموا فى مواطنهم ... للمجد صرحاً منيفا عالى الشرف
قد خلفوك لعالى مجدهم خلفا ... لله درك ما أزكاك من خلف!
لازلت موئل ذاك المجد تحفظه ... مما يؤول به للهلك والتلف

ولا ترى فيما سقناه إليك من المدح جديداً عما خلفه لنا القدماء والمحدثون لأن أسباب الشرف معدودة ، والمآثر محدودة ، والمحامد تعارف عليها الناس من توقد الذهن ، وإجابة الصريخ ، والإسراع إلى ميدان الوغى ، والجود وغير أولئك من الفضائل المعروفة ، والشيم المأثورة .

ولقد سلك المديح فى هذه النهضة الحاضرة ، مسلكا جديداً . فاتجه إلى غاية أخرى هى الغاية العامة لا الخاصة التى تستهدف المنفعة الذاتيـة ، فنفر المحدثون المعاصرون عن مدح أفراد ابتغاء ثوابهم ، إلى مجد أبطال وضعوا لبنة فى أساس نهضة أممهم، وقادوها إلى المجد، وخففوا من الأعباء التى يرزح تحت ثقلها أبناء بلادهم . ولعلك عرفت أن الرصافى لم يقصر أيضاً فى هذه الناحية فمدح الملوك والقادة والأبطال ممن أدوا لأوطانهم ما يجب عليهم تجاهها وقد سقنا أمثلة لذلك فى شعره الاجتماعى ، وشعره السياسى .

الرثـــاء

ويختلف رثاء الرصافى كثيرا عن مدحه ، فهنا تنطلق روح الشاعر على سجيتها ، فيتدفق تدفق الأتى فى غير ما تكلف أو استجداء ، ولا مواربة ولا رياء ، فلا رغبة ولا رهبة ، بل هناك التقدير والإنصاف ، حتى لمن جحدهم فى حياتهم ، وحينئذ تتفجر ينابيع شاعريته .

ولقد كانت مراثى الرصافى أصدق تمثيلا لروح العصر من مدائحه ، فإن فيها شمولا لذوى المواهب ، ومن أسدوا الخير فى أية ناحية من نواحي الخير

رثى الملوك والأمراء ، وبكى العلماء والأدباء ، ونعى الوطنيين الأفذاذ ، والمصلحين الاجتماعيين ، وبهذا اتسعت دائرة رثائه ، فشملت العراقى والشامى والفلسطينى والمصرى والتركى من أقطاب العلم والسياسة فى شتى الأمصار ، وفيها الوفاء كل الوفاء لمن مدوا إليه يد الأخوة والمصافاة .

ومن أصدق رثائه ، وأكثره جوى ولوعة ، مارثى به صديقه (الشيخ محي الدين الخياط) ، ويبتدىء الرصافى هذه المرثية ، بنظرة فى طبيعة الحياة ، واكتناهها وعدم اهتدائه إلى معرفة أسرارها ، إلى أن بدا له قبس من نور طرب له وسرعان ما انطفأ هذا اللهب ، وخمدت هذه الجذوة ، فعاد إلى التخبط فى الحلك ، يقول فى مطلعها :

تفكرت فى كنه الحياة فلم أكن ... لأزداد إلا حيرة فى تفكرى
وكم بت فيها أخبط الليل راميا ... إليها بلحظ الطارق المتنور
فلا أهتدى من أمرها لمقدم ... ولا أنتهى من أمرها لمؤخر

وبعد هذه النظرة والحيرة يدخل فيما رمى إليه من التوجع للصدمة ، والتفجع لهول المصيبة فى صديقه ، فيقول :

عليك العفا بيروت هل لك بعدما ... قضى فيك (محي الدين) من متبصر
فتى كان ركنا فيك للعلم والحجى ... وغر القوافى والكلام المحبر
فقدنا به صلت الجبين مهذبا ... كريم سجايا النفس عف المؤزر
لقد عاش شيخا فى العلوم مقدما ... فما ضره أن مات غير معمر

وفى أسلوب قصصى يرثى الصدر الأعظم (محمود شوكت باشا) الذى اغتاله أحد أعدائه السياسيين ، فيتصور خياله ، ويناجى روحه فى قصيدة أولها :

لقد بت مطروف النواظر بالسهد ... تقلبنى فوق الفراش يد الوجد
تساورنى رقشاء من لاعج الجوى ... ويقدح فى قلبى الأسى وارى الزند

ويصف طول الليل ، وما يجر إليه من الويلات ، وما يثير فى نفسه من لواعج الأسى :

فارقب تغوير النجوم بمقلة ترقرق فيها الدمع منفرط العقد
أقول وفرع الليل أسحم والأسى يدب دبيب السم فى العظم والجلد
متى يسفر الصبح الذى أنا راقب أليس قميص الليل عنه بمنقد ؟

وأنت ترى أن معانيه فى كل هـذه الأبيات جاهلية انتزعها ممن وصفوا الليل وأهواله ، ومن ساورتهم الهموم والأحزان ، كامرىء القيس ، والنابغة الذبيانى ، ثم يأخذ الشاعر فى تصور ما أجراه على لسان (شوكت باشا) من حبه لبلاد العروبة ، وما كان يرجوه لها من الخير والرفاهية ، ويبرئه من ظلم الناس وسوء فهمهم لما كان ينتوى من إنصاف العرب ، وتحقيق حريتهم ، وبهذا جنح الشاعر إلى شىء من الشعر السياسى ، ليزيل الحفائظ التى كانت كامنة إذ ذاك فى صدور العرب ، فنصب الرصافى نفسه مدافعا عن الرجل ، وقد كان من رجاله المقربين ، وممن سعدوا بلقائه ، وجزيل عطائه ، أيام إقامة الرصافى فى تركيا ، وصحبة الجيش الزاحف إلى الآستانة للقضاء على حركات الرجعيين .

ويفيق من هذه الصورة القصصية البديعة إلى البكاء والرثاء :

سأبكى وأستبكى الجيوش على فتى فقدناه فقد الغيث فى الزمن الصلد
فتى كان فى أفق الوزارة كوكبا به فى دجى الخطب الخلافة تستهدى
وقد كان فى وجه الخطوب تبسما إذا عبست يوماً بأوجهها الربد

وفى ديوان الرصافى مرثيتان رائعتان، رثى بهما أستاذه وشيخه (السيد محمود شكرى الألوسى) أولاهما عنوانها « واشيخاه » ، وعنوان الثانية « فى موقف الأسى » ، وفيهما تقرأ روعـة الخطب ، ولوعة البث ، والإشادة بعلم الرجل وفضله ، وكمال نفسه ، وسمو روحه ، حتى دهى خطبه مصر والبلد الحرام والعراق حيث أصبح الرافدان فيه سطرين للدمع فى خـديه قد سالا ! وقد عرضنا لشىء من أولى القصيدتين فى وفاء الرجل لأساتذته ، أما الثانية ففيها

الفرق على تعطل أودية العلم ، وأندية الأدب، بفقد علمهما الخفاق ، والرصافى فى هذه القصيدة يدخل فى الغرض الأصلى دون مقدمة فيقول :

لمن تركت فنون العلم والأدب ؟ أما خشيت عليها من يد العطب ؟
تلك المدارس قد أوحشتها فغدت خلوا من الدرس والطلاب والكتب
ما إن تركت لها فى العلم من وطر ولا لمنتابها فى الدرس من أرب

ويصف طرب (أبى الثناء محمود) للقاء حفيده فى عالم الخلود ، فى هذه الضجعة المريحة ، بعد طول الجهاد ، وحسن البلاء فى تحصيل العلم وتعليمه .

إن الألوسى محموداً عرته لدن لاقاك محمود شكرى خفة الطرب
فاهتز لابن أب فى قبره وغدا يبدى الحفاوة خير ابن لخير أب
بحرين فى العلم عجاجين قد ثويا فانصب مضطرب فى جنب مضطرب
من فخر أزماننا فى العلم أنهما علامتا هذه الأزمان والحقب

وهو فى هذه الأبيات يشير إلى الألوسيين النابغتين أبى الثناء شهاب الدين ومحمود شكرى ، ثم ينتقل إلى أثر الفجيعة فى بلاد العروبة ، حتى ليحسها أبناؤها فى مختلف ديارهم .

ولم يخص الأسى دارا نعيت بها بل عم مبتعدا من بعد مقترب
من (العراق) إلى (نجد) إلى (يمن) إلى (الحجاز) إلى (مصر) إلى (حلب)

ولقد كان من حق الألوسى على الرصافى ، ومن واجب الرصافى نحو الألوسى ، أن يأسى عليه هذا الأسى ، ويستشعر الحزن فى حنايا ضلوعه ، وفيما جاوزه من الرجال والأوطان ، ولقد سبق لك أن عرفت صلة الباكى بالمبكى ، وفضله عليه ، فهو الذى أورده حياض العلم والمعرفة ، وأكرم مثواه ، ورعاه وسماه . وليست هذه المراثى إلا تقديرا للجميل ، واعترافا بالفضل لمسديه ، ولهذا تعد مرثياته فيه من أجود مراثيه .

وله عدا ما ذكرنا كثير من المراثى الجيدة التى يذرف فيها الدموع على الخالدين من الرجال بأعمالهم الجليلة .

ونرى أن الرصافى فى هذه الناحية من الرثاء ، قد قصر فنه على من يعرف فضلهم ، ويقدر خدماتهم ومن أحس قلبه ، بهول المصيبة فيهم ، فحينئذ تجد مرارة الأسى ، وحرارة البكاء ، أما إذا أريد على الرثاء فإنك لن تستشعر هذا الألم يحسه الرصافى ، وحسبك دليلا على هذا قصيدته « ذكرى الرجال من حياة الأمم » أنشدها وقت إذ كان فى القدس ، فطاب إليه أحد أصدقائه وهو « عادل أفندى جبر » أن ينشدهم فى حفلة أقامها شبان فلسطين لتأبين « روحى بك الخالدى » يبدؤها بالحكم وبشىء من فلسفة الحياة والموت فيقول :

لعمرك لو كانت حديداً جسومنا لأبلته من كر الليالى مبارد
فكيف ولسنا بالحديد وإنما جوارحنا هذى الدماء الجواسد ؟
إذا ما افتكرنا فى الحياة وأصلها وغايتها هانت علينا الشدائد
وماذا عسى يجدى التوجع والأسى من الموت إذ كل على الموت وارد ؟

وبعد هذه النظرة ينتقل إلى الرثاء فى أبيات قليلة ، كل معانيها مسبوق إليها فهو رثاء صناعى كما ترى ، لا تجد فيه لذعة الألم ، ولا لوعة الأسى ، وإنما استجابة لداعى الواجب :

ومن تفن بعد الموت آثار مجده فآثار (روحى الخالدى) خوالد
فتى غمدت فيه المنون مهندا وأى حسام ماله الدهر غامد ؟
يعد بألف من رجال زمانه على أنه فى الألمعية واحد
لقد بقيت للخالديين بعده مناقب غر دونهن الفراقد
وكم حبرت أقلامه من صحائف بجيد العلا من درهن قلائد
نماه إلى المجد الصراح متمما به فخره السيف الإلهى خالد

وهذه الأبيات الستة هى نصيب المرثى وحدها فى هذه القصيدة الطويلة ، ويجنح الرصافى بعد ذلك إلى مالا علاقة له بالموضوع ، وهو الثناء ، يزجيه (لعادل جبر) الذى دعاه إلى مشاركة القوم فى بكائهم أحد زعمائهم .

ولعلك عرفت موضع التقصير وسببه فى هذه القصيدة وغيرها، مما لم يدفع الرصافى إليه وجده وأساه على من رثاه . وهذا البيت فى هذه القصيدة يدل على عدم معرفة الرصافى لروحى الخالدى .

وإنى وإن لم أحظ منه برؤية ليشهد لى من « عادل» فيه شاهد

وإن الثناء الذى حبا به داعيه إلى القول (عادل أفندى جبر) لأكثر من الرثاء الذى بكى به الميت .

وكثيرا ما يلجأ الرصافى فى مرثياته إلى تاريخ المرثى ، وإلى ذكر جهاده فى الحياة ، وإلى موقف الناس منه ومن آرائه إن كان صاحب رأى ، ويقف الرصافى عنه موقف المحامى الوفى عن موكله ، كما قرأت فيما رثى به (محمود شوكت باشا) ، وكما تجد ذلك فى قصيدة « هلم نبك » التى رثى بها (عطا افندى الخطيب) فيذكر موته فجأة ، وهو أكثر ما يكون عافية :

قد فاجأته المنايا وهو معتدل كالرمح دق على الصفواء فانقصفا

ويذكر دعوته إلى الإصلاح ، ووقوف الحساد فى طريق دعوته ، فأفسدوا عليه منهجه . حتى ناء بمعارضتهم ، وكان حزنه وكمده هو الذى قضى عليه كما يذكر الرصافى ، ولكنه لم يبين هذه الدعوة الإصلاحية التى كان الخطيب يدعو إليها :

قامت بحساده الأطماع هائجة لما رأوه مجدا يطلب الترفا
فعارضوه بسيل من مكايدهم قد سال ثاكتسح الآمال واجترفا
وعرقلوا بدعاويهم مساعيه ومددوا من دواهيهم له كنفا
فظل يرسف فى مسعاه مرتطما فيما يكيدون حتى خالط التلفا
حتى قضى راسبا فى مكرهم غرقا إذ عطل الموت منه الكف والكتفا

ومثل ذلك قصيدته « ميتة البطل الأكبر » وهى التى أنشدها فى دار المرحوم عبد المحسن السعدون فى اليوم الثالث من انتحاره إذ يعرض لهذا الانتحار فيدفع عن هذا البطل تهمة الخور والضعف، وجعل انتحاره شرفا له وسر خلود :

هكذا يدرك فى الدنيا الكمال　　هكذا فى موتها تحيا الرجال
هكذا يشرف موت المبتغى　　شرفا ليس إذا ريم ينال
من كعبد المحسن الشهم الذى　　حفه بالموت عز وجلال
ما بعبد المحسن السعدون إذ　　رام قتل النفس مس وخبال

وهكذا يدفع الرصافى عنه المس والخبال ، بما استطاع من الأسباب التى أوردها ، ولقد جهد الرصافى فى نفى ذلك عنه ، إكبارا للرجل، وتقديرا لفضله ووطنيته، فهى التى أوردته هذا المورد ، وماكان انتحار السياسى ذى الرأى الأصيل والعقيدة الوطنية ، ليبرره الساسة والعلماء فى أى عصر من العصور ، والرصافى نفسه هو من لا يقر هذا الانتحار ، ولا يرضاه لإنسان وهو القائل ،

أشر فعل البرايا فعل منتحر　　وأخش القول منهم قول مفتخر

وإن كان عبد المحسن السعدون من لا يشك أحد فى صدق وفائه لوطنه : وتفانيه فى جلب الخير له ما وسعه ذلك ، وليس يضيره أن أخفق فى مسعاه ولكن الرصافى يكبر من هذا الانتحار ، ويعرض لسببه فيما يأتى :

أعمل الرأى وقد جاد له　　فيه بعض القوم واشتد الجدال
خذلوه فاغتدت آراؤه　　كسهام كسرت منها النصال
كم غدا ينصحهم حتى إذا　　راء أن الداء فى القوم عضال
ورأى أن الذى يرجوه من　　طلب استقلالهم شيء محال

ويجعل هذا الدم الزاكى غاليا إلا على الوطن ؛ فانتحاره لا يقل شرفا عن مصرع الجندى فى ساحة الوغى :

جاد للأوطان منه بدم　　لسوى أوطانه ليس يسال
والفتى الحر له فى موته　　سعة إن ضاق بالنفس المجال

هذه قصيدته الأولى فى رثاء الرجل ، وإن له لقصيدة أخرى فيها القوة كل القوة ، وعنوانها (ميتة البطل الأكبر) وقد تنوعت مناحيها ،

وتعددت جوانبها ، ولـكنها رغم هذا لم تفقد ما تعارف عليه المتأدبون فى هذا العصر من (وحدة الموضوع) . بدأها الرصافى بمنظر الرافدين ، وقد نعى إلى أهلهما البطل الأكبر :

شب الأسى فى قلوب الشعب مستعرا ... يوم ابن سعدون عبدالمحسن انتحرا
يوم به كل عين غير مبصرة ... إذ كان إنسانها فى الدمع منغمرا
يوم به البرق رج الرافدين أسى ... غداة أدى إلى أقصاهما الخبرا
فلو ترى القوم قاموا فى ضفافهما ... واستنزفوا من شئون الدمع ما غزرا
خلت العراقين خدى ثاكل وهما ... سطران للدمع فى الخدين قد سطرا

ويعرض لتدفق الشعر من أفواه الشعراء رثاء لهذا البطل ، وسيل الدموع حزنا عليه وأسى ، ويوازن الشاعر أبدع موازنة بين الشعر والدمع وسباقهما على توفية الرجل حقه من البكاء :

يوم قد انهل فيه الشعر منتظما ... كما قد انهل فيه الدمع منتثرا
فبالدموع بكت فى يومه شيع ... وبالقوافى بكت فى يومه الشعرا
فالشعر قد قرط الاسماع مندفقا ... والدمع قد قرح الأجفان منحدرا

إلى أن يقول :

فالشعر من هذه الأكباد بل صدى ... والدمع من هذه الأوطان بل ثرى

ويدخل فى مديح السعدون ويصفه بقوة العـــزيمة وعظم حيلته وقوة شكيمته بحيث يعجز الرجال عن مصاولته ، والأبطال عن مطاولته وقد أعمل الرأى والحيلة ، ماوسعه الرأى والحيلة فى خدمة وطنه ، وتخليصه من نفوذ العدو ، والشعب يرقب فى صبر ما يأتى من النصر على يد البطل المخلص حتى إذا أعجزه الهدف قتل نفسه :

حتى إذا لم يجد للأمر متسعاً ... ولم يجد عن بلوغ الأمر مصطبرا
أرمى مسدسه فى صدره بيد ... لا تعرف الضعف فى المرمى ولا الخورا

ولقد نبه هذا الانتحار الشعب من سباته ، وهداه إلى ما يبيت له أعداؤه من المكايد ، وما يصرون عليه من بقاء السيطرة ، والتدخل فى شئونه فاستبان الأمر ، وبرح الخفاء وعرف القوم بانتحار السعدون طريقهم إلى الاستقلال ، بعد الحيرة والضلال :

كنا نقاسى ضلالا قبلها فإذا بها الطريق إلى استقلالنا ظهرا

ويفرد جزءاً من هذه القصيدة لخطاب الانجليز ، وهذا الجزء من أبرع شعر الرصافى فى السياسة ، فيذكر حيل هؤلاء الأجانب التى لم تعد تخفى على بدو ولا حضر ، وانتدابهم الذى أصبح جرحاً تعذر على المحنكين علاجه ، وهذه المعاهدات التى تعقد والقوم يعرفون ما ترمى إليه ، وما يخشاه المخلصون منها ، ويحذر الإنجليز الاستهانة بالعراق ورجاله لضعف قوته ، فرب صغير جر حتفا لكبير :

لا تستهينوا بنا فى ضعف قوتنا فكم ذبابة غاب أزعجت نمرا

وحثهم بعد ذلك على استدامة محبة العراق ووده ، بتحقيق آماله فى الحرية والاستقلال :

هذى البلاد اغرسوا فيها مودتكم ثم اقطفوا من جناها ودنا ثمرا
نكن لكم حلف صدق فى سياستكم نمشى إلى الموت من جرائكم زمراً
لسنا بقوم إذا ما عاهدوا نكثوا ولو جرى الدم حتى أشبه النهرا

وقد تعجب أشد العجب لهذا القول يصدر عن الرصافى ، من إظهار استعداد بلاده للولاء والنصرة ، وهو الذى ناصبهم العداء منذ انتهى الحكم العثمانى وسقطت بغداد فى أيديهم ، ولعل قوله « نمشى إلى الموت من جرائكم زمراً » أعجوبة الأعاجيب ، وآية التناقض وتبدل الرأى عند الرصافى .

ويوازن الرصافى بعد هذا بين عبد المحسن السعدون زعيم العراق وسعد زغلول زعيم مصر ، فيعرض لما أسداه كل من الرجلين لأمته ، وما ضحى به فى سبيلها من راحته ، فينعتهما بأجل النعوت ، ويقصر عليهما زعامة الشرق

سعد وسعدون محمود مقامهما ... هذا بمصر وهذا ههنا اشتهرا
كلاهما قد فدى بالنفس أمته ... لكن سعدون لا سعدا قد انتحرا
فكان بينهما بون وإن غديا ... فى الشرق أعظم مذكورين ما ذكرا
فإن سعدون دانى الشمس منزلة ... وإن سعدا بمصر قارن القمرا
هذا هنا قد سعى للمجد مبتدراً ... وذا هناك سعى للمجد مقتدرا

ثم يسأل أهل مصر فى لوعة عن وقع نبأ مصرع السعدون من نفوسهم:

يا أهل مصر وأنتم مثلنا عرب ... ما قلتم عندما أعلمتمو الخبرا ؟
إن كان قد أرخص الأموال سعدكم ... فان سعد وننا قد أرخص العمرا

وعندنا أن سعداً لم يرخص أمواله ، وإنما أرخص صحته ، وشيخوخته ورضى بالمجاهدة والكفاح،ورغب عن الدعة والرفاهية فى سبيل أمته ووطنه ، وقد تلبس تفضيل الرصافى المنتحر على سواه ممن لم ينتحر ، ويرى بهذا البون شاسعاً بينهما ، وللشاعر رأيه على كل حال !

ويختم هذه القصيدة بخطاب البطل الذى خر صريعاً ، فى سبيل وطنه ، ويدعو له بالراحة بعد هذا الجهاد وطول الكفاح، ويرقب الرصافى ماسيفعل الخلف بعد أن عرفوا موقف السلف أتراهم يرضون مارفضه ، أم يستبسلون استبساله ، ويصرون على أمانى الوطن مكتملة غير منتقصة ؟ فيقول :

نم مستريحاً فإن الشعب مرتقب ... ماذا ستفعله من بعدك الوزرا ؟
أيتركون الذى قد كنت تطلبه ... أم هم سيقضون من مطلوبك الوطرا ؟
فالشعب منهم مريد ما أردت له ... وليس يقبل عذرا ممن اعتذرا

ولقد أطلنا بعض الشىء فى علاج هذه القصيدة لكثرة ما اشتملت عليه من العبر ، ولأنها مظهر قوة الشاعر وبراعته ، وطول نفسه ، وقدرته العجيبة على هذا الاستقصاء فى فن الرثاء ، حتى لتعد من أقوى قصائده ، وأعظم فرائده .

الشكوى

وللرصافى شعر فى الشكوى ذكرنا لك طرفا منه ، وعللنا له بما قاسى الرجل من ألوان الحرمان ، وما منى به من الإسراف الشديد ،وعدم الإبقاء على مال تصل إليه يداه ، وهو فى هذا الفن يحاكى كثيرا من شعراء العصر الحديث كحافظ إبراهيم، والبارودى، ومن قول الرصافى يصف رثاثة بزته ، وبلى لباسه حتى ليستحى أن يخرج به فى وضح النهار ، وذلك من القصيدة التى وجهها إلى غرة آل السعدون ، قال :

لذلك قد أتيت إليك أشكو رثاثة بزتى وبلى كسائى
فقد رقت ثيابى اليوم حتى تكاد تذوب من مس الهواء
غدت شفافة حتى كأنى لبست بهن أثوب الرياء

إلى أن يقول وهو من أحسن الاستعارات ، وأجود التشبيهات :

لبست قرار بيتى فى نهارى ولم أخلعه إلا فى المساء
فإن جاء المساء لبست منه ظلاما ماتمزق بالضياء
وصرت أجول كالخفاش ليلا وألجأ فى النهار إلى الضراء

وقد وردت هذه الشكاة فى معرض المديح ، وله غيرها كثير فى تنكر الخلصاء ، وإنكار البيئة ما يراه لنفسه من المنزلة.

الفخر

وإذ كانت الأقوال متضاربة فى معرفة الأسرة التى ينتمى إليها الشاعر فى بيوتات العراق ، فلم يؤثر عنه فخر فى هذه الناحية ، فلم يذكر أباه من قريب أو بعيد ، وكذلك أمه ، ولا الأسرة التى ينتمى إليها ولعل ضعف هذه الأسرة وقلة ذكرها ، هو الذى جعله يغفل هذه الناحية إغفالا تاما ، وهو فى هذا

يشبه المتنبي شبها قويا ، وإن كان هنالك ما يشبه الإجماع على معرفة أسرة أبي الطيب المتنبي ، وإن أبدى بعض العلماء المعاصرين شيئا من الشك في صحة نسبة الرجل إلى أبيه . أما الرصافي فإن المتشككين في صحة نسبه أكثر من الجازمين به ، ومن هنا كان اعتداد المتنبي بنفسه ، وبهمته وشجاعته وشعره ، وجعل كل أولئك سبب فخر لقومه الذين سموا به ولم يسم بهم ، أما الرصافي فلا يعرض لهذه الجهة من قريب أو بعيد ، بل إن له من الشعر ما نستطيع أن نقول إنه يكاد يقر به هؤلاء الشاكين في نسبه كقوله :

قالوا : ابن من أنت ياهذا؟ فقلت لهم   أبي امرؤ جده الأعلى أبو البشر
قالوا : فهل نال مجداً؟ قلت : واعجبي   أتسألوني بمجد ليس من ثمري ؟

فهو يقول إن أباه الذي لم يسمه ينتسب إلى أبي البشر آدم ، هذا كل ما يصرح به وقد عرفت أن الرجل لم يذكر شيئا عن نسبه لخاصة خلصائه !

ولو كان هذا الأصل ذا خطر ، وذلك مالم يكن ، لوجدنا لمعروف به فخرا ، وهو الذي عالج جميع الفنون الشعرية ، وما ترفع عن فن الفخر شعراء العربية في سائر أعصرها ، فإن المباهاة بشرف النجار ، وكرم المحتد سليقة العربي في كل زمان وفي كل مكان ، ما ترفع عنه السادة ولا الصعاليك ، وليس لارتياح الممدوحين للثناء ، وطربهم للمديح ، سوى مظهر لهذه الرغبة في ذيوع محامدهم ، والولوع بانتشار فضائلهم ، وفي هذا ما يشفي غلتهم إذا استحوا من المباهاة ، وعجزوا عن المفاخرة .

على أن معروفاً وإن أعلن هذه الرغبة عن الفخر وأنكر على المفاخرين فخارهم ، وعده أفحش القول في بعض شعره كقوله :

أشر فعل البرايا فعل منتحر   وأفحش القول منهم قول مفتخر

لا يستطيع وهو الشاعر الفحل أن يمضي عن علاج هذا الفن ، فيفخر بمواهبه وشاعريته فخرا ليس وراءه فخر لمفتخر ، فهو شاعر العرب المجيد ،

الذى حلى جيد الدنيا بعقود شعره ،ولو فرع به يوما العبيد لخلعوا ربقة العبودية من أعناقهم ، ولو استنهض به الجبناء لاقتحموا الأهوال ، شجعانا وأبطالا ، وهو الذى يحلو للقوم سماعه ، ويصرون على استعادته ، ولو أعيد ألف مرة بهذه الأوصاف وغيرها وصف معروف شعره :

إذا أنشدته الحسناء تاهت　　كأن قرطتها درا فريدا
وأنت إذا قرعت به عبيدا　　رددت إلى الحرار به العبيدا
ولو تستنهض الجبناء يوما　　به لتقحموا الهيجا أسودا
ولو كررته للقوم ألفا　　لأقسم سامعوه بأن تعيدا
وكم تهتز أعطاف المعالى　　إذا ما قلت قافية شرودا

وهكذا تراه لم يترك فخرا لمفتخر بما وهب من هذه الملكة الشعرية البارعة وله من هذا اللون من الفخر بشعره كثير ، منه قصيدته التى عنوانها « فى سبيل حرية الفكر » (١) ومنه قصيدته « سياسة لا حماسة » ، وفيها يزهو أشد الزهو حتى لكأن الشعر هو الذى يلتمس ابتكاره ، وهو ليس فى افتقار إليه ، ولكن القوافى تمثل بين يد معتذرة وقد أسلست له قيادها ، وأنها فى أسره وخدمته ، فتصرف فيها تصرف المالك المقتدر وغير هذه المعانى التى تجدها فى قوله :

الشعر مفتقر منى لمبتكر　　ولست للشعر فى حال بمفتقر
دعوت غر القوافى وهى شاردة　　فأقبلت وهى تمشى مشي معتذر
وسلمتنى عن طوع مقادتها　　فرحت فيهن أجرى جرى مقتدر
إذا أقمت أقامت وهى من خدمى　　وأينما سرت سارت تقتفى أثرى
صرفت فيهن أقلامى ورحت بها　　أعرف الناس سحر السمع والبصر
ملكن من رقرق النفوس هوى　　من حيث أطربن حتى قاسى الحجر

---

(١) ديوان الرصافى ص ٩٧ وقد انشدها فى حفلة منتدى التهذيب فى بغداد يوم ٢ من أيار ١٩٢٦ م .

سقيتهن المعانى فارتوين بها وكن فيها مكان الماء فى الثمر
كم تشرئب لها الأسماع مصغية إذا تنوشدن بين البدو والحضر

وفى قصيدته « فى المعهد العلمى »[١] يزهو به كذلك ويعلو ويبعد حتى يجاوز النجم علواً وبعدا وحتى يفوق الدر صفاء وقدرا :

فللنجم بعد دون ما أنا ناشد وللدر قدر دون ما أنا منشد

وفى قصيدته « على البسفور »[٢] يلخص العلا فى بعض شعره :

فيا شعراء القوم كفوا وغاكم فشرح العلا فى بعض شعرى ملخص
دعوا كشف مكنون الصدور لفطنتى فإنى بذا من دونكم متخصص
ذكاء لو اجتزت الجدار بثورة لشف لعينى الجدار المجصص

وإذا نحن تجاوزنا هذه المفخرة للشاعر ، وحسبه هى من مفخرة ، فلدينا لون آخر من فخر الرصافى تجاوز به حدود الفخر ، فعمد إلى التكلف والمبالغة غير المقبولة ، ولعل الشاعر قد ساق هذا الفخر فى سياق تبرمه بالزمان، وفعله به فهو يعلن عدم اكتراثه بحدثانه ، ونائباته ، وعبث الدهر ، ولا يتبرم مما يرميه به من السهام بين حين وحين إلى أن يقول مخاطبا الدهر :

بل أنت أحقر عندى من أن تجود وتجدى
إنى وإن كنت أشقى بأوجه منك ربد
ربأت عنك بذمى كما ربأت بحمدى

ويزعم أن الدهر ليس كفواً له ، ولن يرتضيه خادماً إن عرض عليه خدمته فيقول :

إذ لست أنت بكفوى ولست أنت بندى
لو كنت يا دهر حراً وجئت تخدم عندى

---

(١) صفحة ٩٠ من ديوان الرصافى (٢) ٢٢٧ من الديوان

لما ارتضيتك عبـــدآ ولا خويدم عبـــد !
وكيف أرضاك عبدا؟ وأنت أوغد وغـــد؟

وهذا منتهى الإسراف فى المبالغة ، والرصافى هنا ينحو فى هـذا التعالى منحى ابن سناء الملك المصرى (المتوفى سنة ٦٠٨هـ) الذى يعدنحره من المبالغات الممقوتة، ومثلا لهذا الإسراف البغيض الذى لجأ إليه الشعراء أيام فقد الملكة الأصيلة فى عصور تردى الأدب والأدباء فى الغلو واختراع الـكذب . حيث يقول فى داليته المشهورة :

ولو مد نحوى حادث الدهر كفه لحدثت نفسى أن أمـدله يدا
وإنك عبـدى يا زمان وإننى على الرغم منى أن أرى لك سيدا !

الهجـــاء

وللرصافى هجاء ، أثبت منه فى ديوانه قدرآ يسيرآ ، و لعـله اجتزأ منه بهذا القدر البعيـد عن الإقذاع والفحش ، وأكثر هجوه لمن عاب شعره ، وهو جد حريص على ألا ينال منه عدو نيلا ، وهـذه سمة كثير من شعراء العصر الحديث ، الذين كانوا يفرقون ، إذا ما عاب شعرهم عائب ، ولم يبرأ من الفرق من النقد حتى أعلام الشعر كشوقى وحافظ وغيرهما ، الذين كانت نفوسهم تطير شعاعا إذا ما حاول واحد الغض من موهبتهم، أو وجد ماخذا فى أقوالهم ، ولهؤلاء عذرهم فيما ذهبوا إليـه فهذا فنهم الذى يعتزون به ، أو هو ميزتهم التى تميزوا بها على غيرهم . وكانت منزلتهم فى الأمة التى ينتسبون إليها على قدر هذه الملـكة الشعرية .

ومن أهاجى الرصافى :

ركضوا بميدان التحاسد خيلهم وسبوا من الأعراض كل مباح

لبسوا النفاق لهم دروعا واغتدوا   يتطاعنون من الخنا برماح
أضحوا كماة وشاية وسعـــاية   ومن الضغائن هم شكاة سلاح

وقال يهجو بعض من عدهم لئاما ، وهم يحسبون أنفسهم كراما :

قد يطفح اللؤم حتى إن صاحبه   ينسى الحياء فيغدو يدعى الكرما
إن الجهالة إن كانت قذى بصر   رأى الضلال هدى واستسمن الورما
ما للغواة ارعواء عن غوايتهم   إن لم يك السيف يعلو منهم القمما
كم من أراذل أطغتها سفاهتها   حتى ادعت وهى أذناب لها الشمما
إن عدت الوحش ما كانت ولا بقرا   أوعدت الطير ما كانت ولا رخما

وقال فيمن هجاه :

وذى سفه أكب على المخازى   وما قبل النصيحة من نصيح
تروج المخزيات لديه حتى   تباع إليه بالثمن الربيح
أطاف بغيه وأباح شتمى   وكان الشتم أجدر بالمبيح
وأغراه الضلال فكان منى   كما كان اليهود من المسيح

وهو فى هذا البيت يقفو أبا الطيب فى قوله :

ما مقامى بأرض نخلة إلا   كمقام المسيح بين اليهود

ثم يقول :

فمت فى نار غيظك مستشيطا   فلست من الهجاء بمستريح
سأضرم فيك بالكلم الأهاجى   كنيران تشب تجاه ريح
تجمعت المخازى فيك حتى   يعد الهجو فيك من المديح

٢
المعـانى

وَأجودُ الشعرِ ما يكسوهُ قائلهُ ... بوَشْيِ ذا العصرِ لا الخالى مِنَ العُصُرِ
لا يَحْسُنُ الشعرُ إلا وهو مبتكرٌ ... وأىُّ حسنٍ لشعرٍ غيرِ مبتكرِ؟

(الرصافى)

إن الرصافى الذى عرف بثورته وتحلله من كثير مما تعارف عليه الناس، مما لا يتفق مع مبدئه وهواه من النظر الصحيح إلى حقائق الأشياء، دون النظر إلى قشورها، شاعر مجدد فى طليعة المجددين، فهو شاعر الأصالة الذى لا ينطق بغير رأيه، ولا ينافق ولا يداجى، ولقد عرفنا ما جنت عليه الصراحة، وما جر عليه اعتداده برأيه من صنوف الألم. وهو أحد أولئك الأفذاذ الذين خرجوا على الاستبداد فى الحكم خروجهم على الاستبداد فى نظم المجتمع وقيوده، فكان من الطبيعى أن يحاول تخليص شعره من أغلال التقليد، وربقة المحاكاة، ليكون صورة لما يضطرم بين جنبيه من الغرام بالحرية والولوع بها.

١

وكلما بدأت أمارات العصر تتضح علاماتها، وتتميز شاراتها، رأيت معروفا أكثر صدوفا، وأشد عزوفا عن هذا القديم، وأصدق تمثيلا لهذه العقلية العربية الآخذة بأسباب النهوض، فليس الرصافى من يرى جودة القصيد لا تتم إلا ببكاء الدمن والأطلال، أو بافتتاح قصائده بالتغزل بليلى والرباب أو وصف ابنة الكرم، أو بث الهوى وتبريح الصبابة، وإنما ينفذ إلى الغرض الذى يعالجه فى قدرة عجيبة، فيستقصى معانيه استقصاء، فى عذوبة واطراد

كاطراد الماء الجارى، وإذا أنت أمام قصيدة طويلة ، لاتحس فيها اللين ، الذى يؤدى إليه الطول من استنزاف المعانى ، والرغبة فى التطويل خشية اتهامه بالتقصير ، وإذا القصيدة كلها تعالج هذا الغرض الذى أراده الشاعر بلا حيد عن القصد ، ولا استطراد إلى مالا غناء فيه .

وهكذا ترى القصيدة وحدة كاملة ، قد برئت من تعدد الأغراض رغم هذا الطول ، الذى يدل على الملكة البارعة ، والاقتدار العجيب . والعجب العجاب أن هذا الحكم لا يختص به بعض شعره دون بعض ، وإنما هو الحكم الصادق الذى ينطبق على أكثر شعر الرصافى ، الذى وسعه ديوانه ، وما لم يتسع له هذا الديوان الضخم ، ومن هنا يصعب على الباحث الاختيار والتمثيل لهذه الحقيقة البارزة ! وحسبك أن تقرأ قصيدته « العالم شعر » لترى أغراضا تبدو لأول وهلة متعددة ، ولكنك حين تنعم النظر تجدها ، وقد اتسقت فنونها ، وجمعها هذا المعنى :

قرأت ، وما غير الطبيعة من سفر   صحائف تحوى كل فن من الشعر

رغم أن عدة أبياتها تقارب الثمانين بيتا . وكذلك قصيدته « أم اليتيم » و « السجن فى بغداد » و « المطلقة » و « اليتيم فى العيد » وهذه جميعا قصائد متتابعة فى أغراض اجتماعية ، فيها ما قدمنا من القدرة الفائقة على « وحدة الموضوع » وما أعجزه وزن . ولا أعجزته قافية .

٢

وفى بعض قصائد قليلة إلى درجة الندرة تجد معروفا يجنح إلى قليل من التقليد فيبدؤها بالفخر ، وهو هذا الفخر الذى عرفت بشعره ، وترفعه وإبائه ، كما تجد ذلك فى قصيدته التى يحيى بها الذين نهضوا بتأسيس « المعهد العلمى » ومطلعها .

لعمرك إن الحر لا يتقيد   ألا فليقل ما شاء فى المفند
إذا أنا قصدت القصيد فليس لى   به غير تبيان الحقيقة مقصد
نشدت بشعرى مطلبا عز نيله   وإن هان عند الشعر ما كنت أنشد

ثم يقول:

وما أنا إلا شاعر ذو لبانة | أنوح بها حينا وحينا أغرد
ولى بين شدقى الهريتين صارم | يسل على الأيام طوراً ويغمد

ثم يعرض لهذا الشاعر الذى عاب شعره، فيصفه بالسخف والتقليد ولا غرابة بعد ذلك أن ينتقص الشاعر من لا يجيد الشعر كما انتقص بشارا حماد عجرد:

ولا عجب أن عابنى الشاعر الذى | يقول سخيف الشعر وهو مقلد
فإن ابن برد وهو أكبر شاعر | تنقصه فى الشعر حماد عجرد

إلى أن يصل إلى الغرض الأصلى من تحية مؤسسى هذا المعهد، والإشادة بمجهودهم وماسيسبب للبلاد من نهضة وحضارة.

فأنت ترى بعد الفخر عن غرضه، ولعلها حالة ثورة جعلت الشاعر يضيق بانتقاص حساده وجور نقاده، فجرى به القلم إلى هذا الذى سجله فى مطلع القصيدة، ومع هذا التقديم الذى يعد تقليدا، لن تعدم ما تصل به بين الغرضين. وهو لجوء هذه الجماعة إليه يستمدون من شعره تأييدا لهم ويلتمسون به عونا وتشجيعا، فوصف شعره وفخر به.

ومثل ذلك قصيدته «فى القطار» وهى من أروع شعره الوصفى وقدعالجناها قبل، تراه يبدؤها بالحنين إلى وطنه «وكان إذ ذاك فى الآستانة»، ويذكر عداء الدهر إياه وترفعه عن عتابه ويفخر بأنه شب على حب المكارم، وأنه أخو العزمات التى تفل غرب السيوف، ومطلع هذه القصيدة:

تذكرت فى أوطانى الأهل والصحبا | فأرسلت دمعا فاض وابله سكبا
وبت طريد النوم اختلس الكرى | بشاخص طرف فى الدجى يرقب الشهبا
كئيب كأن الدهر لم يلق غيره | عدوا فآلى لن يهادنه حربا
وإنى إذا ما الدهر جر جريرة | لتأنف نفسى أن أكلمه عتبا

ويستطرد إلى جملة من مفاخره، إلى أن يلج باب الغرض الأصلى، وهو

وصف القطار وقد عالجنا هذا الغرض فى وصفياته .

ومثل ذلك يقال فى قصيدته التى مطلعها :

لمن الديار يلحن فى الصحصاح   لعبت بهن روامس الأرواح
عبثت بها أيدى البلى فتركنها   فى العين أخفى من دريس نصاح
ولقد وقفت بها المطى مسائلا   شجرات واديها وهن ضواح
أقتاف آثارا لهن دوارسا   كانت إليها غدوتى ورواحى

وفى هذه الأبيات وما بعدها ترى الرصافى غارقا فى التقليد ، مما لا يحتاج معه إلى معاناة الرد إلى المآخذ ، فكلها معان جاهلية ، ولكن القصيدة كلها ـ رغم هذا التقليد ـ فى المعنى تجمعها وحدة الغرض ، وهى ذكرى أحبابه الراحلين ومطارح لهوه ومدارج عبثه .

ولا يعجز الرصافى أن يكون كأحد أولئك الشعراء القدماء فى الوقوف على الأطلال الدوارس ، ومناجاة المنازل على أن ذلك قليل فى شعره ومنه قصيدته التى مدح بها المرحوم أبا المعز السيد محمد القزوينى العالم المشهور يبدؤها ببكاء الدمن الدوارس وتحيتها فيقول :

قف بالديار الدارسات وحيها   واقرا السلام على جآذر حيها
وانشد هنالك للمتيم مهجة   فنيت من الأهواء فى عذريها

ثم يعدو ذلك إلى التشبيب بالمرأة وذكر محاسنها فيقول :

رشأ إذا أبدى ابتسامة شائق   أجرى المدامع من عيون غصيها
شغل القلوب بحبه ولطالما   فتكت ضعاف لحاظه بقويها
من لى بلثم مقبل من شادن   عذب الثنايا الواضحات شهيها

إلى أن يصل إلى غرضه الأصلى وهو المديح فيقول :

كالفاضل «الفيحاء» حيث تفاخرت   بسريها الجحجاح وابن سريها
السيد السند الهمام محمد   فرع النبوة وابن خير وصيها

فهذى إحدى قصائده التقليدية المعدودة ، وفيما عدا ذلك فسائر قصائده ومقطعاته تجمعها وحدة الغرض فى قوة أسر وجميل أداء .

٣

وللرصافى معانيه البكر التى يزدان بها ديوانه ،والتى تعدثروةللعربيةالخالدة ولا سيما فى هذه النفثات السياسية التى أرسلها ، والاجتماعيات التى برع فيها براعة منقطعة النظير .

فمن أجل معانيه وأكثرها جدة وطرافة ، ماعلل به استمراء الشرقيين الاستعباد وقعودهم على الضيم من أنهم نشئوا فى حجور لساء استعبدوهن وهو من معانيه المبتكرة :

ألم ترهم أمسوا عبيدا لأنهم على الذل شبوا فى حجور إماء ؟
وهان عليهم حين هانت نساؤهم تحمل جور الساسة الغرباء

ومن تشبيهاته الرائعة تشبيه السها وهو نجم خفى تمتحن الأبصار برؤيته بأديب ثوى بأرض العراق «يريد نفسه» والثريا بقفاز مزين بأحجار الماس .

كأن نجم السها أديب فى أرض بغداد ذو ثواء
كأن خط الشهاب مدل لأسفل البئر بالرشاء
كأنما أنجم الثريا فى شكلها الباهر الضياء
قفاز كف به فصوص من حجر الماس ذى الصفاء

ومنها ما أجرى فيه المعنويات مجرى المحسات، فجعل الظن يشرب، والحدس يؤكل وما روى الشارب ، ولا شبع الآكل :

لقد طغت حيرة أهل النهى هل فيك ياعلم لها مردع ؟
كم نشرب الظن فلا نرتوى ونأكل الحدس فلا نشبع

ومنهافى وصف اليتيم الصغير وأمه تسليه بالبكاء ،ويالهامن تعلة يعرفها المعدمون

بكى حولها جوعاً فغذته بالبكاء وليس البكا إلا تعلة معدم

وفى وصف ظلمات السجن ، وما غراه من الإهمال ، مما يدعو المرء إلى

إيثار الموت على الحياة ، فيجعل نزع روحه قيثا :

هنـاك يود المرء لوقاه نفســه وأطلقها من أسر عيش منكد

وتشبيهه الأحياء بالسفر ليس لهم من زاد ولا راحلة سوى العلم الذى يوصلهم إلى غايتهم التى أزمعوا إليها الرحيل فى مفازة الحياة .

نحن سفر وما الرواحل والزا د سوى العلم والحياة مفازة

وقوله يجعل عقول الناظرين إلى وجوه الحسان غارقة فى ماء الشبيبة

خدود جرى ماء الشبيبة فوقها ففيه عقول الناظرين من الغرقى

وتشبيهه دجلة والفرات بسطرين من الدمع قد سالا على خدى العراق حزنا على أستاذه محمود شكرى الألوسى .

أما العراق فأمسى الرافدان به سطرين للدمع فى خديه قد سالا

وحسبنا هذا القدر للتمثيل فإن للرصافى قصائد تفيض بمعانيه المخترعة التى لم يسبق إليها .

٤

والرصافى من يجيد القصص الشعرى غاية الإجادة ، وله فى سائر أغراضه قصائد ينحو فيها منحى القصاص ، ولا تلمح فى إحداها أثراً للتكلف . على أن شعره القصصى ليس من هذا النـوع بمفهـومه عند الأوربيين من أنه يذكر حياة الأبطال ، ويذكر العصور ، وما يسودها من آراء وأفكار ومعتقدات ، كالذى نراه فى ملحمة هوميروس « الإلياذة » وغيرها مما خلفه اليونان فى أدبهم ، والحق يقال إن الشعر العربى فى سائر عصوره ليس فيه شعر قصصى بهذا المعنى ، وإنما فيه الصورة القصصية الخيالية التى يؤلف الشاعر بين أجزائها ويسرد ما كان من قول وفعل ومحاورة تخيلها ، ومن قصائده القصصية « اليتيم فى العيد » و « المطلقة » و « الفقر والسقام » و « رؤياى الصادقة » و « أم اليتيم » وغيرها من القصائد .

وقد تراه يحاكى عمر بن أبى ربيعة وامرأ القيس فى شعرهما القصصى فى

تتبع المرأة ووصفها ، والتحدث إليها كما تجد ذلك فى صفحة (١٨) من ديوانه إذ يقول .

وبيضة خدر إن دعت نازح الهوى أجاب ألا لبيك يا بيضة الخدر

إلى أن يقول :

مررن وقد أقصرت خطوى تأدبا وأجمعت أمرى فى محافظة الصبر
فطأطأن للتسليم منهن أرؤسا عليها أكاليل ضفرن من الشعر
فألقيت كفى فوق صدرى مسلماً وأطرقت نحو الأرض منحنى الظهر
وأرسلت قلبى خلفهن مشيعاً فراح ولم يرجع إلى حيث لا أدرى

٥

على أن هناك ظاهرة لا يسعنا السكوت عنها ، ذلك أن ولوع الرصافى بالقراءة فى كتب العربية على اختلاف مباحثها قد أدى به إلى أن يتأثر بما قرأ من شعر الأقدمين تأثراً ظاهرا تلمحه فى مواضع متفرقة من بعض قصائده ، وما كان أغناه عن هذا التتبع ، وذاك التقليد الظاهر.

وما يقال فى الرصافى فى هذا هو ما يقال فى غيره من الشعراء الذين اتفق لهم ما اتفق لغيرهم من الأفكار والمعانى ، من توارد الخواطر ، أو أو تشبع اللاحق بما قرأ للسابق فجرى على لسانه ، يحسبه لنفسه ، مدفوعاً بعامل الإعجاب ، وما هو لنفسه ، وهذا الذى نشير إليه الآن من الكثرة فى الشعر العربى بدرجة لا يستطاع معها جحوده ، فلقد وقع لأساطين شعراء العربية ، كما وقع لمن هم دونهم قدرة على الإبداع والابتكار، حتى أفرد له علماء العربية أبوابا خاصة ، بل كتبا خاصة ، وهم فى ذلك بين منتحل عذرا للشاعر ومتهما إياه بالسرقة والسطو على آثار غيره ، وقد ذكروا ذلك ومثلوا له ، وجعلوه أنواعا ، سموها أسماء مختلفة ، فارجع إليها فى الكتب المفصلة [1] .

---

(١) من ذلك باب السرقات الشعرية فى صفحة (٣١٠) وما بعدها من كتاب المثل السائر لابن الأثير ، وصفحة (٤٤٧) وما بعدها من شروح التلخيص (ج ٤ مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٣ هـ) .

وسنورد لك أمثلة مما ظهر فيه تأثر الرصافى بشعر غيره .

١ — قال من قصيدته التى عنوانها (نحن على منطاد) :

لاتلمنى إذا جزعت فإنى ما ملكت الخيار فى إيجادى

وهو فى هذا يردد مذهب الذى يقولون بالجبر ، ويشير إلى قول أبى العلاء

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

٢ — وقوله : صاح ما دل فى الأمور على الأشكال إلا تفحص الأضداد

فاعتبر بالسفيه تمس حليما وتعرف بالغى طرق الرشاد

من قول أبى العلاء أيضا .

والشىء لا يكثر مداحه إلا إذا قيس إلى ضده

لولا غضى نجد وقلامه لم يثن بالطيب على رنده

٣ - وقوله : أيها الغر لاتغرك دنيا ك بكون مصيره لفساد

من قوله : واللبيب العاقل من ليس يغتر بكون مصيره لفساد

٤ — وقوله : لا أحب النسيم إلا إذا هب على كل حاضر أو باد

من قوله : فلا هطلت على ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

٥ — وقوله : واقفا تحت سرحة ناح فيها طائر فوق غصنها المياد

من قوله : أبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنها المياد ؟

٦ — وكذلك قوله : قد يحسب الإنسان آماله والموت مصغ نحوه يسمع

من قوله : ورب ظمآن إلى مورد والموت لو يعلم فى ورده

مع إجادة الرصافى فى الصورة الحسية التى رسمها ببراعة فى الشطر الثانى

٧ — وقول الرصافى فى قصيدته (الأرض) .

كم على الأرض رفات باليات من جسوم طحنتها الدائرات

فاحتفر فى الأرض تلك الطبقات تجد الأنقاض فيها رمما

هى للأحياء أو للشجر

كل وجه الأرض للخلق قبور خفف الوطء على تلك الصدور

والعيون النجل منهم والثغور   إنما أنت ستفنى مثلما
قد فنوا والموت دامى الظفر

من قول فيلسوف المعرة :

خفف الوطء ما أظن أديم الأر   ض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهـ   ـد هوان الآباء والأجداد

وهذه الأبيات كما ترى تابع فيها أبا العلاء المعرى ، ولقد عرفت أنه كان به ولوعا كما قدمنا .

٨ — وقول الرصافى :

فشر العالمين ذوو خمول   إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
وخير الناس ذو حسب قديم   أقام لنفسه حسبا جديدا
تراه إذا ادعى فى الناس فخراً   تقيم له مكارمه الشهودا

من قول الشاعر :

وإذا افتخرت بأعظم مقبورة   فالناس بين مكذب ومصدق
فأقم لنفسك بانتسابك شاهدا   ببناء مجد للقديم محقق

٩ — وقوله أيضا من القصيدة نفسها :

فدعنى والفخار بمجد قوم   مضى الزمن القديم بهم حميدا
قد ابتسمت وجوه الدهر بيضا   لهم ورأيتنا فعبسن سودا
وقد عهدوا لنا بتراث ملك   أضعنا فى رعايته العهودا

من قول الشاعر .

ورثنا المجد عن آباء صدق   أسأنا فى ديارهم الصنيعا
إذا الحسب الرفيع تداولته   بناة السوء أوشك أن يضيعا

١٠ — وقول الرصافى :

هل وأنا إلامن أولئك إن مشوا   مشيت وإن يقعد أولئك أقعد ؟

من قول دريد بن الصمة :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد ؟

١١ — وقوله : متى قيد مجروراً إلى الضيم ينقد !

من قول طرفه : ومن يك فى حبل المنيــة ينقد !

١٢ — وقوله :

أرى العمر مهما ازداد يزداد نقصه إذا نحن فى نقص من العمر دائم

من قوله :

أرى العيش كنزاً ناقصا كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد

١٣ — وقول الرصافى :

تقدمنا قوم فأبعـد شوطهم وقد كان عنا شوطهم غير مبعد

من قول الطغرائى :

تقدمنى أناس كان شوطهم وراء خطوى لو أمشى على مهل

مع ما تجد من القوة فى بيت الطغرائى .

١٤ — وقوله فى قصيدة « الدهر والحقيقة » :

وكم عاقل قد عده الناس أحمقا وما هو لو يبلى سوى متحامق

من قول الشاعر :

ولما رأيت الجهل فى الناس فاشيا تجاهلت حتى ظن أنى جاهل

١٥ — وقوله :

فأخوك من إن غاب عنـ ـك رعى ودادك فى غيـابه

من قول الشاعر :

وليس أخى من ودنى بلسانه ولـكن أخى من ودنى وهو غائب

١٦ — وقول الرصافى :

تعودت تصريحى بكل حقيقـة وللمرء من دنيـاه ما يتعود

من قول أبى الطيب :

لكل امرىء من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الفتك بالعدا

١٧ — وقوله :

وإن مياه الأرض تعذب ما جرت   ويفسدها فوق الصعيد ركودها

من قول القائل :

إنى رأيت وقوف الماء يفسده   فإن جرى طاب أو لم يجر لم يطب

١٨ — وقوله يصف بلى ملابسه :

غدت شفافة حتى كأنى   لبست بهن أثواب الرياء

من قول التهامى :

ثوب الرياء يشف عما تحته   فإذا التحفت به فإنك عار

١٩ — وقوله :

وما الناس إلا خادع أدرك المنى   وآخر مخدوع لها غير مدرك

من قول عمران بن حطان :   والناس من بين مخدوع وخداع

٢١ — وقول الرصافى :

قد يقبح الشىء وضعاً وهو من حسن   كالنعش يدهش مرأى وهو من خشب

فالقبح كالحسن فى حكم النهى عرض   وليس يثبت إلا عند معتبر

قريب من قول ابن الرومى :

فى زخرف القول تزيين لباطله   والحق قد يعتريه سوء تعبير

تقول هذا مجاج النحل تمدحه   وإن تذم فقل خرء الزنابير

مدحا وذما، وما جاوزت وصفهما   حسن البيان يرى الظلماء كالنور

وحسبنا هذه الأمثلة لندل على مدى تأثر الشاعر بقراءاته واطلاعه، وولوعه بطول النفس فى القصائد التى اقتبسنا منها هذه الأبيات ، ولقد رأيت بنفسك أيها القارىء الكريم أن الرصافى قد تجاوز نقل المعنى ، وذلك ما وقع فيه غيره من الشعراء إلى نقل اللفظ نفسه ، مما يجعل الأخذ شيئاً ثابتاً لا يقبل الشك ولا التأويل .

وقد يعجب الرصافى معنى من المعانى، فيذكره فى أكثر من موضع كما راقه

تشبيه دجلة والفرات بسطرين من الدموع فى رثاء الألوسى حين قال :

أما العراق فأمسى الرافـدان به سطرين للدمع فى خديه قد سالا

فـكرر هذا المعنى مع تحوير يسير فى قصيدته « ميتة البطل الأكبر » وهى التى رثى بها المرحوم عبد المحسن السعدون ، فقال فى منظر الرافدين :

خلت العراقين خدى ثاكل وهما سطران للدمع فى الخدين قد سطرا

كما أعجبه إضمار الحسو فى الارتغاء فذكره فى قصيدته « حقيقتى السلبية » :

أحب صراحتى قولا وفعـلا وأكـره أن أميل إلى الرياء

فما خادعت من أحد بأمر ولاأضمرت حسوا فى ارتغاء

ومدح به السعدون فى قصيدته «إلى غرة آل السعدون » فقال :

صريح فى مقاصـــده إذا ما أسر القوم حسوا فى ارتغـاء

وقد عرض لتشبيه الناس الحياة بالليل ، والقبر بمطلع الفجر . وتفاؤله بأن تعرج روحه، لتتخذ لها مكانا بين الأنجم الزهر ،فقال فى قصيدته «خواطر شاعر»

وقد قال بعض القوم إن حياتنا كليل وإن الفجر مطلعه القبر

فإن كان هذا القول فيها حقيقة فياشد ماقد شاقنى ذلك الفجر

وروح الفتى بعد الردى إن يكن لها بقاء وحس فالحياة هى الخسر

وإن رقيت نحو السماء فحبذا إذا أصبحت مأوى لها الأنجم الزهر

ويكرر المعنى نفسه فى قصيدته « « ماوراء القـبر » وبينهـا وبين السابقة قصيدة واحدة تفصل بينهما :

لعل حياة المرء ليل ستنجلى غياهبه من سكرة الموت بالفجر

فإن كان ذا حقا فإن حياتنا كماقيل ستر ، والردى كاشف للستر

وقد قيل إن الروح تبقى فهل لها عروج إلى الأعلى إلى الأنجم الزهر؟

وقد يذكر بيتا واحدا بحروفه أكثر من مرة فى قصيدة واحدة كما فى قصيدته «اليتيم فى العيد» إذ ذكر البيت الآتى مرتين :

ألا ليت يوم العيد لا كان إنه يجدد للمحزون حزنا فيجزع

٣

الألفاظ والأساليب

١

ولقد تثقف معروف ثقافة عربية خالصة عرفتها فيما سبق فأحاط بها إحاطة من ملك زمامها ، واستولى على قيادها ، عرف نحوها ، وحفظ غريبها الذى أصبح حجة فيه ، وزاد هذه المعرفة رسوخا فى ذهنه قيامه بتدريس هذه اللغة وآدابها فى أعلى معاهد العراق وتركيا وفلسطين .

وكان الرصافى يقول :

« كنت أدرس العربية على أستاذى المرحوم محمود شكرى الألوسى وأنا إذ ذاك دون العشرين حتى حفظت ألفية ابن مالك وقرأت لها عدة شروح ، وكنت مولعا بحفظ الشواهد التى يوردها النحويون فى كتبهم ، وكنت إذا مر بى فى أثناء الدرس بيت من الشعر راجعت فيه الشروح والحواشى ، فعلمت من قائله ، وماذا بعده أو قبله ، من الأبيات فحفظتها ، وكنت قوى الحافظة حتى حفظت شيئا كثيرا من هذا القبيل ، بحيث أن أستاذى كان يلقبنى بالشواهدى وكنت أشعر بميل شديد فى نفسى إلى الشعر لشدة تأثيره فى . . . »(١)

ونحن نعرف أن شعر الشواهد مأخوذ من شعر الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين الذى يمتاز بفخامة الأسلوب ، وجزالة اللفظ ، ورصانته ، وعلى هذا اللون من الشعر ربى الرصافى ملكته ، فصاغ لنا هذا القريض الذى يعد فى الذروة من الشعر العربى الأصيل .

ولكن الرصافى مع هذه القدرة الفائقة له هذا الشعر العذب السلس ، الذى تفجر من ينابيع الشاعرية ، التى لا ينضب معينها ، ولا يقف تيارها عن السيولة

---

(١) ص ٦ — ١٧ من الجزء الأول من السنة الثانية من مجلة الحرية الصادرة فى أول تموز سنة ١٩٢٥ م .

والانحدار فى دعة لا تحس معها لوعة ، وهو يخاطب قلبك، ويحدث مشاعرك دون الإغراب الذى يلجأ إليه المتفيقهون المتقعرون . وليس ذلك لضعف فى ملكته أولين فى مقدرته ، وهو الذى هام أول ما هام بشواهد النحو فراض جامحها ، وذلل شاردها . ولكنه فعل ذلك فراراً من مظنة التصنع، وجنوحاً عن صنعة التكلف ، التى لا تليق بأمثاله من الذين يتحدثون للناس بآلام قومهم وآمالهم فى إيضاح وبيان ،أو بعبارة أخرى بلغة العصر الذى كانت السرعة من أبرز مظاهره، وكذلك سرعة الإفهام يجب أن تكون من أبرز خصائص المفهم وهو القائل :

وجردت شعرى من ثياب ريائه   فلم أكسه إلا معانيه الغرا
وأرسلته نظما يروق انسجامه   فيحسبه المصغى لإنشاده نثرا

وكما امتلأ ديوانه بما يمثل الناحية الأولى ، وماتراه فى شواهدنا التى اخترناها ومثلنا بها لأغراضه الشعرية ، فكذلك حوى طائفة من الشعر العذب السلس الذى يحسبه المصغى لإنشاده نثرا كما يقول الرصافى .

٢

وقد يبالغ الرصافى فى مجاراة لغة شعره لطبيعة العصر الذى عاش فيه فيجعل البيان والإفصاح أسمى مقاصده ، حتى لقد ينبو عن الرصانة والجزالة إلى النقيض فتراه فى بعض الأحيان يرق ويلين، حتى ليكاد ينحدر إلى لغة العامة كما تجد ذلك فى قوله فى مطلع قصيدته « نقش على ماء » إذ يقول :

أرى عيشنا تأبى المنون امتداده   كأنا على كيس المنون نعيش

فتعبيره « كأنا على كيس المنون نعيش » مع كونه يدل على معنى بارع إلا أنه تعبير عامى كما ترى . وكذلك قوله فى « المرأة المسلمة » :

فهذه حالة نسواننا   وهى لعمرى حالة مؤلمه
ما هكذا يا قوم ما هكذا   يأمرنا الإسلام فى المسلمه

وكذلك قوله : من قصيدة رثى بها الشيخ مهدى الخالصى من كبار علماء العراق فى الكاظمية .

أنا أبكى عليه من جهة العلـ ـم وأغضى عن خوضه فى السياسه
قد أبت هذه السياسة إلا أن تكون الغشاشة الدساسه
ما تعاطى غير الخداع (غلادستون) فيها كلا ولا (دلكاسه)
لو أردنا إفاضة فى هجاه لكتبنا لكم بها كراسه

وكذلك قوله :

قد بكته مدارس عامرات هو فيها المدرس المسئول
إنما قد ذكرت بعض مزايا ه وإلا فشرحهن يطول

٣

وقد ترى الرصافى فى بعض قصائده ينحدر إلى مادون لغة العامة إلى ألفاظ مبتذلة ، ليس فيها هذا الانتقاء المعروف عنه ، فلا يعف حين يثور بنفسه دافع الحقد على من هجاه ، أن يرميه بأقبح الألفاظ وأفحشها، يفعل هذا بمن سخط عليهم من الأفراد والأمم كما رأيت فى قصيدته « ليلة نابغية » التى أسف فيها وهجا بأقذع الهجاء ، ولم يكن لهذا الإفراط سبب سوى الحقد على من نقدوه من أهل الشام ، ويعنينا هنا ما استعمله من ألفاظ جارحة ، وعبارات نابية .

وتجد مثل ذلك بل أفحش منه فى قصيدته « أنشودة الحرب » حيث يخاطب أهل الصرب والبلغار الخارجين على الدولة العثمانية ، حيث يتنزل إلى الشتم المقذع الذى يعف عنه ذوو الذوق السليم ، وإنما جره إلى ذلك ما جره إلى ذم أهل الشام ، من الحقد على من ينشدون خلع الربقة التركية من أعناقهم. استمع إليه

ياعلوج الصرب والبلـ ـغار أولاد الزوانى
لم يكن إيعادكم بالـ ـحرب غير الهذيان
إنما الحرب لدينا من تمام الحيوان
فاتركوا الإيعاد يا أبـ ـناء حمراء العجان
وتزيوا يا مخانيـ ـث بأزياء الغوانى

إنما أنتم تيوس أولعت بالنزوان

والرصافى الذى يمقت التكلف أشد المقت ، لا يعنى فى شعره أية عناية بالبديعيات ، سواء منه ماقرضه أوائل هذا القرن العشرين ، ومما قرضه فى سائر أيام عمره ، وهذه مزية جديرة بالتقدير إذا عرفنا أن الشعراء فى أوائل هذه النهضة كانوا يجرون فى السبيل التى جرى عليها شعراء الفترة المظلمة ، من العناية البارزة باستخدام محسنات البديع ، والتفنن فى ذلك ، ليغطوا بذلك عجزهم عن الأخيلة السامية ، والمعانى الجليلة لخلو كناناتهم منها ، ولكن الرصافى وهو الشاعر المطبوع يدعو المعنى فينقاد له ، فأغناه ذلك عن التعثر الذى نلمحه فى شعر غيره من شعراء الفترة الماضية .

على أنك رغم ذلك الحكم ، واجد له شيئاً قليلاً من ذلك ، وعندنا أنه لا بأس على الشاعر من استخدام محسنات البديع ما دام قد برىء من مظنة التكلف ، وسلم من التعسف الذى يشوه المعانى ، أو يستر ما فيها من ضعف ورخاوة ، ولأن الذى وقع للرصافى من البديعيات زاد معانية بهاء . وأساليبه إشراقا ، لا أثر فيه لما ينفر من الصنعة المستكرهة وهو القائل :

لست بالشاعر الذى يرسل اللفــظ جزافا لكى يصيب جناسه
أنا لا أبتغى من الشعر إلا ما جرى فى سهولة وسلاسه
إنما غايتى من الشعر معنى واضح يأمن اللبيب التباسه

ونحن حين نعرض عليك شيئا من بديعياته ، فليس يساورنا شك فى أنك لن تأخذ على الرصافى مأخذاً ، مادام قد اكتمل له ماذكرنا من قوة الأسلوب وفخامة المعنى ، وهو ما اشترطه البلاغيون فمن ذلك مطلع قصيدة التى مدح بها « القزوينى » سرى الحلة المعروف :

قف بالديار الدارسات وحيها واقرا السلام على جآذر حيها

فقد جانس الشاعر بين « حيها » وهو أمر بالتحية ، و« حيها » البطن من القبيلة . وقوله فى العفو عمن أعتدى عليه :

ولو شئت أتبعت الخديعة خلفه تطارده حتى تضيق مذاهبه

ولـكن أبى منى الخداع مهذب تعود فعل الخير مذ طرشاربه

فقد جرد من نفسه مهذبا تعود فعل الخير أى أنه بلغ من ذلك مبلغا صح معه أن ينتزع منه آخر مثله فى تلك الصفات . وهذا هو التجريد المعروف فى علم البديع. وقوله :

يقينى شر فريتكم يقينى بأن الله مطلع رقيب

جانس فيه بين (يقينى) وهى فعل من الوقاية و (ويقينى) وهو اسم معناه الاعتقاد . وقوله فى وصف الراقصة :

فهى إن أقبلت رأيت ابتساما وهى إن أدبرت رأيت قطوبا

فيه هذه المقابلة البديعة بين الإقبال والإدبار، والابتسام والقطوب، كما أنه أحيانا يؤرخ الحوادث بالشعر ، كما ترى ذلك فى آخر أبياته فى رثاء الشيخ قاسم مدرس جامع النعمانية حيث يقول :

ولما مضى للخلد قلت مؤرخا لقد بات فى أعلى الفراديس قاسم

١٣٢٥

٥

وفى قوافى الرصافى امتداد وسعة ، وله قدرة ظاهرة على قياد الكلام الذى لا يكاد القارىء يرى أنه يستنزله قسرا ، أو يتطلبه من بعد ، وإنما هو انثيال وتدفق فى اطراد وجزالة ،حتى ليكاد يمثل قول أبى تمام فى تغاير القوافى، حين يسهرلها ويتطلبها فى بيته المعروف :

تغاير الشعر فيه إذ سهرت له حتى ظننت قوافيه ستقتتل

وقد يتوهم القارىء أن ذلك فى ناحية من الهجاء دون ناحية ولـكنه فى كثير من الأحيان يحمل قوافيه عـلى أحرف نادرة لا يكاد يسلس قيادها للشعراء كالنون والزاى مثلا .

ويظن أنه قـد يستهلك ديباجه كلامه بهذا النمط من الاستجداء والتعمل ولـكنه يجدها سوائح كاسية حالية من الخفة والرشاقة . ولا يحمل ذلك إلا على

ما كان يوصف به الشاعر من ثقوب الطبع وغزاره الإحاطة بأوابد اللغة ، وتمام الحذق بحسن التأتى للألفاظ التى تأتلق بها القافية ، وتتسق معها خواطر الشعر المنفسح .

وليس من العسير عليك أن ترى تلك الحقائق فى ديوان الرصافى وحسبك من ذلك أن تقرأ قصيدة « تموز والحرية » و « سوء المنقلب » و « إلى أبناء الوطن » و « اليتيم فى العيد » و « السجن فى بغداد » و « أم اليتيم » . . .

فهذه كلها شواهد ناطقة على تبريز الشاعر فى هذه الناحية ، وقدرته على إطالة القافية ، وطول النفس .

ومع أن الإطالة مظنة الضعف ، وفى مداها يظهر كلال الحد ، لكن ذلك قلما يوجد مع المبرزين ، من جهابذة البيان وفحول الكلام .

آثار الرصافى

ترك الرصافى آثارا كثيرة ، تدل على خصوبة ذهنه ، وسعة اطلاعه ، وكنا نرجو أن تتاح لنا فرصة الكتابة التفصيلية عن هذه الآثار ، ولكن الوقت وحده هو الذى ألجأنا إلى الإشارة إلى هذه الآثار إلى أن يتاح لنا تحقيق رغبتنا إن شاء الله :

١ — ديوان الرصافى : طبع جزء منه فى بيروت سنة ١٩١٠ فيه مجموعة شعره إلى هذه السنة ، ثم طبع طبعة أخرى سنة ١٩٣٢ فجاء ديوانا ضخما فى ٥١٤ صفحة غير مالم ينشر من شعره .

٢ — نفح الطيب فى الخطابة والخطيب . طبع سنة ١٩١٥ ، وهو مجموعة محاضراته التى ألقاها على طلبة مدرسة الواعظين فى القسطنطينية .

٣ — دروس فى آداب اللغة العربية : طبع سنة سنة ١٩٢٨ الجزء الأول منه ، وفيه محاضراته التى ألقاها على طلابه فى دار المعلمين العالية فى بغداد .

٤ــ رسائل التعليقات : طبع فى بغداد سنة ١٩٤٤،وقد تناول فيه مسائل دينية أحدثت دويا فى العراق والعالم الإسلامى .

٥ ــ على باب سجن أبى العلاء : طبعته دار الحكمة فى بغداد سنة ١٩٤٦

٦ــ الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس ـ لم ينشر .

٧ــ مجموعة الأناشيد المدرسية . طبع سنة ١٩٢٠

٨ــ نحو اللغة العامية العراقية .

٩ــ رواية (الرؤيا) . ترجمها عن (نامق كمال) الشاعر التركى ، طبعت فى بغداد سنة ١٩٠٩

١٠ــ دفع الهجنة فى ارتضاح اللكنة . طبع فى الآستانة سنة ١٣٣١ وقد عرض فيه لكثير من الألفاظ التركية وإرجاعها إلى أصلها العربى .

١١ ــ محاضرات الأدب العربى . التى ألقاها على معلمى المدارس فى بغداد طبع فى بغداد سنة ١٩٢٢

١٢ ــ كتاب الآلة والأداة . فى أسماء الآلات والأدوات التى يستعملها الإنسان ، وفيه مقدمة فى التعريب والاشتقاق .

١٣ ــ آراء فى أبى العلاء . أعلنت دار المكشوف فى بيروت أنها ستقوم بطبعه .

١٤ ــ فى عالم الذباب : فى الرد على كتاب أصدره الدكتور فائق شاكر بهذا الاسم . طبع فى بغداد سنة ١٩٤٥.

الخاتمـــة

لعلنا بهذا القدر من الدراسة الذى اتسع له وقتنا نكون قد وفينا الرصافى ما يستحق من دراسة هو بها جدير ، فالرصافى الذى خدم هذه الأمة العربية بشعره أكثر من نصف القرن ، وشهد الأحداث التى نزلت بها ،وأشاد بعظمتها وعمل على رفع لوائها ، واستعادة مجدها ، خليق بأن تشرع الأقلام لدراسته وأن تشحذ لعـــلاج نواحى عبقريته : ليكون من وراء ذلك توجيه للمتأدبين الذين يقتضيهم الوطن أن يكونوا من خدامه ، فيهم الخلود وهو أسمى جزاء للعاملين الأوفياء .

وإخالنا مقصرين حين نهب ما منحنا من قوة للسابقين من أدباء العربية ونضن على معاصرينا سدول التناسى والإهمال ، ومن هؤلاء من لا يقل خطراً عن الغابرين حسن أداء ، وفصاحة أسلوب ، ونخامة معنى ، ومن يفوقهم إحساساً بما تكابد أممهم فى حياتها السياسية والاجتماعية .

لقد انقضى عهد التكسب والزلفى بالمدائح والمراثى ، وأصبح الأدباء فى عصرنا أصحاب رسالة يذيعونها، ومبدأ يعملون لتحقيق أهدافه ، ولهذا السبب أكبرهم الناس وأقبلوا على آثارهم يجدون فيها رياً لظمئهم ، وغذاء لأرواحهم وأقبل النشأ فى هذه البلاد على القراءة إقبالا منقطع النظير هـــذه الأيام وهذا مما يجعل التبعة على عاتق الأدباء والمفكرين والقادة شاقة ، إذ يقتضيهم هذا استصفاء الموارد ، التى يردها الآخذون عنهم والذين يتطلعون إلى من يحلونهم من منزلة رفيعة وتقدير كريم .

وليس هذا البحث ــ رغم ما كلفنى من جهد ــ سوى لبنة أضعها فى هذا البناء الذى آمل أن يتكانف أولو الغيرة ، من ذوى المواهب على إعلاء صرحه ، وهم قد فعلوا، فنبهوا الناس إلى ما يحوى الأدب العربى من كنوز فى سائر عصوره

ولكن جهدهم فى الإشادة بأدبنا المعاصر لم تبلغ بعض مافعلوا للأدب القديم

ولقد أقمت فى العراق سنوات ، هى أطيب ماعبر من أيام حياتى ، ولقيت فى هذا البلد العربى الكريم خير مايجد راحل عن وطنه ، وناء عن أهله وولده جئت إليه لأعلم وأفيد شباب هذا البلد بما يظنون أن فى مقدورى ومقدور غيرى من أبناء الكنانة أن يفيدهم إياه ، فوجدت رجالا يقدرون من يتقرب إليهم بالعمل والجد ، فكان هذا خير حافز لى على بذل ما استطعت من جهد فى خدمتهم ، وأقبلت على التزود بما يعيننى على تحقيق هذه الغاية لمن منحونى ثقتهم .

فإذا جهدت فى تأليف كتاب عن العراق فى شاعره الأكبر معروف الرصافى ، وذكرت القوم الذين عاش بينهم هذا الأديب النابه ، فإن مرد ذلك كله لهذا العامل الكريم .

إن الرصافى فى الصدارة من شعراء الجيل ، وقد يتهم بالغفلة من يذهب إلى أن الناس فى هذا البلد كلهم إعجاب بشخص الرصافى الذى أغضب حساده ولم يرض أصدقاءه ، ولكن لايختلف اثنان فى إحلال الرجل منزلته من حيث الشاعرية الناضجة الكاملة ومن حيث توقد الذهن ، واستواء ملكة الأدب وخصوبة القريحة وليس لباحث فى تطور العقلية العربية فى هذه الفترة من الزمن غناء عن شعر الرصافى، الذى هو سجل الأحداث التى اصطدمت والمشاعر التى اضطرمت فى نفوس العرب فى هذا العهد الزاخر بالحوادث والأحداث .

ولقد أقبلت على هذا العمل بعيداً عن الهوى منزها عن مظنة التحامل والمجاملة . بل جعلت رائدى الإنصاف فى كل كلمة سطرها يراعى ، وأنا أرجع بالقارىء الكريم إلى ما كتبت فى صفحة ١٦٧ من هذا الكتاب ليقرأ منهجى فى هذا البحث ، وأقرر هنا أننى لم أحد عن هذا المنهج الذى رسمته لنفسى ، فكل مايجد القارىء فى هذا الكتاب من رأى فى الشاعر ، فى شخصه وفى أدبه فإنما هو رأيى الذى اهتديت اليه بطول معاناتى للشاعر ، وإدامة التطلع فى ديوانه

اللهم إلا ما أخذته من غيرى ، وأشرت إلى المأخذ والمأخوذ عنه فى موضعه .

وأنا أسأل الله الكريم أن يجنبنى عجبا يصل إلى الزهو بما قدمت ، أو الاعتقاد بأنه بلغ رتبة من الكمال ليس بعدها غاية ، فما كان هذا دستور الذين يعملون جاهدين لاستكمال أسباب الكمال ، ولا سيما فى الموضوعات العلمية والأدبية ، التى تهدف إلى خدمة الحق ، وتفتح ذراعيها لكل استدراك له قيمة وتعنى أشد العناية بكل ملاحظة كريمة ، فى تحقيق مظنة ، أو تصويب خطأ .

ولئن اعتاد الكتاب والمؤلفون أن يفوا لمن أسدوا إليهم يداً . أو أعانوهم على ما هم بسبيله من العمل ويرون من هذا الوفاء تسجيل شكرهم لهؤلاء المتفضلين فإنى لأذكر بكل خير معالى العلامة الشبيبى حفظه الله ذخرا للفضل والعلم والأدب ، الذى لم يكد يشعر برغبتى فى نظره الكريم ، فى هذا الأثر المتواضع حتى أسرع إلى الإجابة ، إسراع الأجواد إلى القرى ، فنظر فيه نظرة الفاحص المدقق ، ولم تخل نظرته من إشفاق على هذا الجهد ، فجنبنى مزالق لا يؤمن فيها العثار ، وكان فى هذا التعطف من معاليه ما أشعرنى بما امتاز به من سجايا النبل والإخلاص ، وكانت له فى بعض أبواب الكتاب ملاحظات وتعليقات قبلتها راضياً شاكراً ، وسجلتها لما تحوى من فوائد لقارىء الكتاب لا يسعه الاستغناء عنها .

ثم كانت آية الآيات تفضله بكتابة تصدير الكتاب ، فتفجر قلمه بهذا البحث المستفيض ، الذى يطالعه القارىء فى صدر هذا الكتاب ، فيطالع حقائق يبسطها الممارس للعصر وأحداثه ، واتجاه أفكار أعلامه وساسته وأدبائه ، ولا غرو فالشبيبى (حفظه الله) من اجتمعت فيه مزايا كل هؤلاء ومن عرك هذا العصر الذى عاش فيه الرصافى ، فجاءت كلمته وفيها الحذق والبراعة ، ونفاذ الرأى ، وصحة القول ، وكانت وحدها جديرة بأن تكون كتابا جليل الشأن ، عظيم الخطر ، وما ينبئك مثل خبير .

ثم أستاذنا الجليل محمد هاشم عطية الذى أشربنا حب الأدب ، وهو من قضى أيام شبابه فى التوفر على درسه وتدريسه ، فأجاد وأفاد ، وكانت له هذه المنة المأثورة على متأدبى هذا الجيل ، بما يشجعهم به على ارتياد مجاهل الأدب ، وارتشاف العذب النمير من سلافته ، وحسبه كتابه فى الأدب الجاهلى ، الذى لم ينسج على منواله أحد فى السابقين ، ولا فى المحدثين . وقد أسعدتنى الأيام فجمعت من شتاتنا ما كان يخشى عليه فى بلد كريم ، هو العراق ، وفى معهد عظيم هو دار المعلمين العالية فاتصل الود والاكبار والإعجاب .

وقد قرأ كتابى هذا فكانت له المنة تتبعها المنة ، فتفضل ـ جزاه الله ماهو أهل له من الفضل ـ بكتابة رأيه فى الكتاب وفى مؤلفه ، وإنى لفخور بثنائه معجب بنقداته ، فإذا رضيت مغتبطا ما خلعه على مما جرى به قلمه السباق من المحامد ، فإنى جد مسرور بهذه اللفتات الكريمة ، التى تنبىء عن النظرة الفاحصة عما فى الكتاب ، مما فات القلم تسطيره ، والعقل تذكيره .

ثم أخى الأستاذ أحمـــد ناجى القيسى ، الذى عناه هذا الكتاب فى جملة ماعناه من شغف بالدرس ، وحرص على خدمة الأدب والأدباء ، فأمدنى بما استطاع من آثار الرصافى ، وما رأى أنه يأخذ بيدى فيما أنا بسبيله ، فإليه أخلص شكرى ، وأطيب ثنائى .

وبعد ، فهذا الكتاب بين يديك أيها القارىء الكريم ، ولعلك واجد فيه ، ما أملت من خدمة أدبنا المعاصر فى نهضتنا ، التى تعتمد أول ما تعتمد على إبراز آثار رجالها ، والإشادة بقادتها ومفكريها ، ولا يزال الشعراء من هؤلاء فى الطليعة .

والله حسبنا ونعم الوكيل ، ومنه نستمد العون والمثوبة ؟

بدوى أحمد طبانة

وكتب فى القاهرة يوم الاثنين ١٢ من ربيع الأول سنة ١٣٦٦
٣ من فبراير (شباط) سنة ١٩٤٧

رأى فى الكتاب

بقلم الأستاذ الجليل محمد هاشم عطية

أستاذ الأدب العربي فى دار المعلمين العالية ببغداد

ترجع الصلة بيني وبين مؤلف هذه الرسالة إلى تلك الأيام البعيدة التى كان فيها طالبا بدار العلوم العالية بمصر، وكان يومئذ يحمل أساتذته بما يظهره من الاهتمام بنفسه على تفقد مافيه من الصفات، التى تجعل من مثله أهلا لما يترشح له من التخرج بنجاح فى صناعة من الصناعات العلمية المختلفة. وكنت من بينهم أجد فى شدة صبره على الدرس، وطول ملازمته للأستاذ وسيلة صالحة للاعتماد عليه فيما يتناول البحث بين الطلاب من فنون الكلام، حتى جعلت هذه الأمارات الظاهرة فى الكلف بالطلب، والحرص على التحصيل تقوم من ناحيتها دليلا على استجابة طبيعية لنزعات ثابتة فى نفسه، كنت أتفاءل لها أنها لابد يوما أن تبرز آثارها، وتبوح بأسرارها، إلى أن انتهى الأستاذ من دراسته العالية، وكادت الصلة بيني وبينه يعتادها شيء من الفتور، لولا أنه كان يلقاني بعد ذلك عابرا أو قاصداً، فنقضى بعض الوقت فى مطارحات وأحاديث، يراجعني فيها دائما إلى شيء من ذكرياته الماضية، ولم يكن يستطيع فى ذلك الوقت أن يحجب عن عيني بعض ما كنت ألمحه من قدرته على إدارة الكلام، وتوفيقه إلى استتمام كثير من مسائل العلم، التى جعلتها نتيجة لازمة لما بقى له من الشغف بالاستزادة وحسن الرأى فى تحصيل مايسنح من الفوائد، حتى كان من الحظ أن التقينا هنا بالعراق، واضطرنا الحال إلى الملازمة والعشرة وجالت بنا الأحاديث مجاولها، وتأديت بالاختبار والمشاهدة إلى مبلغ ما انتهى إليه الأستاذ من الاطلاع والدراسة، مما كنت رجوته له وتوسمته فى نشاطه واجتهاده، والمجتهد معان. ولا أكاد أشك فى أن إقامة الأستاذ فى العراق هذه الفترة كانت ذات صلة كبيرة بما صارت إليه مواهبه من التقدم والانسجام

فإنما هى التى ألزمته بمراجعة حياة الدأب والتحصيل ، كما يفعل الأستاذ الذى يحسب لكرامته العلمية حسابها . فيرى أنه لا بأس عليه أن يعود ثانية طالبا يتزود ويتجدد ، للدفاع عن نفسه والاحتفاظ بمكانته إذا تقاضته الحياة أن يغترب عن أهله ، وأن يمر بمثل هذه الحالة التى يمر فيها نازح إلى قطر شقيق ، يحاول أن يعطى لأهله مثلا جديدا من الدلالة على ما للمعونات العلمية من الأثر فى إبلاغ نهضاتهم الاجتماعية إلى ما يرتجى لها من التقدم والنجاح .

وقد كانت حياته فى العراق ذريعة موصلة إلى تنمية ما أسلفته الأيام من دراسات ، وما أولته التجارب من علم ، فإن ذلك هو الوقت الذى يتتبع فيه الإنسان على نفسه ، ويجعل من عقله كميناً على أدبه ، وتظهر فيه قدرة المجتهد على حماية نفسه من خداع المغالطة ، فيكثر من اتهامه لمعلوماته ، ويبعده عن تضييع الحزم فى ترك التثبت ، واستشارة المراجع وأهل العلم قبل الإقدام على الخطار بالنفس ، والغرة عن منزلة الإقدام ، والناس كلهم عليه رقباء ، يتسقطون منه الهفوات ويتوقعون له الزلل ، وهنا يكون الاكتساب الذاتى ، وتقع الدراسة الشخصية التى لا يتكون الإنسان إلا بمقدار حظه منها ، وهى التى تصيره فى النهاية إلى أن يكون قياسه فى تحقيق الأشياء ، وعماده فى تقدير الأمور ما يرضاه الرأى الثاقب والذوق السليم ، ولقد أعجبنى من الأستاذ أن سبق إلى هذه المبادرة الكريمة من الاعتراف بالجميل للعراق المضياف ، الذى يحبرنا نحن الأساتذة المصريين بما ليس فى الوسع تجاهله من الحفاوة المطبقة ، والتكرمة للغزيرة الفائقة وذلك بمعالجته لسيرة شاعر عراقى كالرصافى جدير بأن يكون شاعرا عربيا لا يستأثر به العراق وحده دون مصر وغيرها من البلاد العربية وقد ، حركنى ذلك إلى معرفة الطريقة التى سلكتها هذه الرسالة فى البحث والمناهج التى اتخذتها أساسا للدراسة ، فأخذت أتفقد بعض أبوابها ، وأترسم خطوات المؤلف حتى أسلمنى التصفح إلى الاعتراف بما أحرزته من التوفيق فى تنظيم البحث وتنزيهه من آفات التعصب ، التى يواقعها بعض المؤلفين ، حين يرون أن مجرد

اختيارهم للموضوع من الموضوعات كاف وحده فى حسم كل شبهة ، ونفى كل منقصه أو عيب ويفضلونه فى الجملة على غيره ، ويتكلفون المؤن الشداد فى الدفاع عنه فيظهر بذلك كلالهم وتخلفهم، ويبدون للقراء صفحتهم ويحثونهم على توجيه اللائمة إليهم ، والانصراف عن مثل هذا النمط السقيم من أساليبهم . ولكن المؤلف كان ميزانا عدلا بقدر المستطاع فى توزيع تقريظه ونقده ، بين منازل الإحسان والإساءة ، وعلى مواطن الجمال والعيب فى حياة الشاعر وأدبه فقد رأيته يطوف حوله، ثم يقتحم مضاجعه، ويتدسس فى همسات خواطره . ويكشفه فى حنينه وتهداره ، وفى بأسائه ونعمائه، ويلتمسه فى الحوانيت ويلاقيه فى المجامع ، ويجليه لمن لم يره حتى يجعله كأنه يشاهده بعيانه ، ويتحققه من جثمانه وذلك لشدة ملازمته لجادة الاعتدال والصواب فى التحليل والدرس وحذره من الإدلاء بالأحكام قبل استيفاء غايته من الاستدلال. نعم! قد يجمح به القلم فى التنويه أحيانا بشاعرية الشاعر فتدعوه الرغبة فى العبارة، ومحاولة التأنق فى الوصف إلى صوغ الجمل، وترديف النعوت، من ذكر الإبداع والتفوق والعبقرية وغيرها من الكلمات التى قلما تخلو الكتابات المعاصرة من الالتجاء اليها وخاصة عند ذكر الشعر أو تقدير حياة الشاعر . ولعل من شفعائه فى ذلك أنه على الراجح يكون مغلوبا على أمره، عندما يتعرض لتحرير القول فى أدب الشاعر لدى مقام بارز من مقاماته فى الإجادة، وإننا لنحسن الاختيار إذا أسرعنا إلى القارىء بوضع الشاهد من صميم البحث ، وتقديم الدليل من قول المؤلف لنصانع بذلك بين ما نظن أننا أثرناه بهذه الدعوى من الشغف فى نفوس المطالعين ، وبين ما يرغبون فيه دائما من تعليق الدعوى بما يؤيدها من البرهان فنقول : جاء فى وصف المؤلف لشاعرية الرصافى قبل الكلام على وصفياته أن قال ما نصه : (ومع هيام الرصافى بمجتمعه تجده كذلك الشاعر العاطفى المبدع ، الذى تعددت نواحى شاعريته ،وتنوعت جوانب إبداعه ، فلم يدع بابا من أبواب الشعر طرقه الأقدمون، أو عالجه المحدثون ، ولا فنا من فنونه إلا وقد

تصرف فيه وعالجه علاجا قويا ، فكانت له هذه الشاعرية المكتملة الناضجة الشاملة ، فمدح وهجا ووصف وتغزل ورثى ورضى وشكا وفخر) . ثم يقول : (وأهم ما تناوله بالوصف الطبيعة بما فيها من جمال وإبداع . في السماء ونجومها والأرض وجبالها ، فكان ترجمانا لهذه الطبيعة التي وقف حيالها موقف المصور البارع المأخوذ بسحر جمالها فهو أحد أولئك الشعراء الذين ألهمهم الكون فقرءوا فيه سطور الإبداع وصاغوا منها غرر شعرهم . وأنشد له :

قرأت وما غير الطبيعة من سفر صحائف تحوى كل فن من الشعر
أرى غرر الأشعار تبدو نضيدة على صفحات الكون سطرا على سطر)

ثم يقول في موضع آخر . (والرصافي كغيره من الشعراء في عصر النهضة الحديثة الذين استهوتهم مظاهر المدنية فوصفوها وأبدعوا في وصفها ما استطاعوا) إلى أن يقول :(ومن آياته في ذلك قصيدته في القطار) ، ثم يقول بعد هذا (وقد أجاد الوصف وأحسن السبك وتدفقت شاعريته تدفق المورد الذي لا ينضب وفيه من حلاوة الأسلوب وجودة السبك وروعة التصوير ما يرفعه إلى رتبة الفحول في عصور العربية الزاهرة) .

وكان من حق القارىء أن يحاسب الأستاذ المؤلف على هذه الأحكام الكثيرة التي ينسقها للشاعر في أعقاب أشعاره أو في مفاتحها من غير أن يفتح له وجوه الرأى في استنباطها ، كما فعل في غير هذه المواضع ، من تحليل أدب الشاعر ، ولعله استغنى هنا بسياق القصائد وفي نصوصها غنية للمطالع ، وتوجيه لمناط الجمال الذي أجمل المؤلف الإشارة إليه ، قد يدركه القارىء بدون احتياج إلى تعقيب أو بحث .

وانظر إليه في موضع آخر حين يتحدث عن الغزل فيقول : (وأما غزل الرصافي ففيه هذا الاتساق البديع ، الذي رأيته في وصفياته ، ولكنك لا تجد فيه أثراً للعاطفة الحادة ، ولا لأم الحب وتبريح الصبابة ، وقد يعلق قلب الرصافي بالمرأة ويهيم بها ولكنه هيام موقت) ، ثم قال (إنه لا يقصر حبه على واحدة)

وجعله فى تنقله مشبها من بعض الوجوه لعمر بن أبى ربيعة ، ثم يعود فيقول (وله إلى جانب هذا الهوى المتوزع ، والقلب المتفرق ، غزل مبتذل ووصف مكشوف ، لايتورع فيه الرصافى عن ذكر الخفيات وإبداء العورات ، فى غير تحفظ ولا احتشام مما يأباه العقل الحكيم ويمجه الذوق السليم) . ويقول :(ولعل فى قصيدته التى سماها «بداعة لاخلاعة» أقصى الاستهتار والتبذل فى الوصف والكشف فى القصة) قال (وهناك لون آخر من هذا الوصف او هذا الغزل جنح إليه الرصافى فيما جنح وعالجه فيما عالج ، ألا وهو الغزل الغلمانى الذى ابتدعه أولئك الموالى فى العصر العباسى مما صار سبة للأدب العربى ، وجعله قذى فى عين قارئيه ،لأنه مظهر لانحلال الخلق والانحدار الاجتماعى) ثم ساق مقطعته فى وصف لعبة «البليارد» وهى قوله .

يدحرجهن أغلمة ظراف نسيت بهم مغازلة الإناث
بأيديهم عصى مشرعات مهيأة لضرب واحتثاث
فكان إذا انحنى للضرب منهم غلام هاج شوقى وهو جاث

ونرى المؤلف هنا يقف من الشاعر موقفا لا يرفق به فيه ، ولايلين له ولكن يصفه كما وضع نفسه من هذه المخزاة فى شعره فلم يعف عن أخذه بالكلمة القارصة، والتحايل اللاذع، كما قلنا فى أثناء كلمتنا هذه . ولا نحب أن ندع الكلام أو نختمه دون أن نحمد للأستاذ المؤلف هذا الجهد الأدبى الموفق ونقدر له هذا البحث القيم، الذى لانشك فيما سيلقاه به جماهير القراء من التقدير والإعجاب ، وإنه لبادرة كريمة نرجو بعدها أن يتابع الأستاذ هذا النشاط المحمود حتى يبنى للأدب المعاصر ، كما بنت الأوائل، وفقنا الله جميعا إلى ما نحن بصدده ، من التوفر على خدمة اللغة والأدب ، والله ولينا ومنه نستمد العون ونطلب المكافأة والسلام ؟

محمد هاشم عطية

ثبت الكتاب

١ ــ تصدير الكتاب :

٢ ــ مقدمة :

٣ ــ معروف :

٤ ــ أخلاقه :

٥ ــ عقيدته :

٦ ــ شعره :

الأغراض والفنون

١ ــ في سبيل الوطن

٢ — فى سبيل المجتمع

٣ — سائر أغراضه

المعانى والأخيلة

الألفاظ والأساليب

يطلب من :

مكتبة الخانجي : بشارع عبد العزيز . بمصر
تليفون ٤٣١٤٨

و

مكتبة المثنى : بسوق السراي . بغداد
تليفون ٣٥٨٨